الألف كتاب
الثانى
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

البراجماتية
أو
مذهب الذرائع

تأليف
يعقوب فام

الأعمال
المختارة

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

البراجماتية

أو

مذهب الذرائع

الطبعة الثانية

تأليف

يعقوب فام

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٨

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

البـــاب الرابع

فلسفة البراجماتية

مقـدمة الكتـاب

هذا الكتاب يبحث فى احدى أشـهر نظريات الفلسـفة الحديثة ، وهى البراجماتية Pragmatism ، وهى نظـرية أمريكية تتناول قضايا الفلسفة بطريقة لم تسبقها اليهـا فلسفة أخرى ·

طلب الى تأليف هـذا الكتـاب فجـزعت وخفت ، لأن الفلسفة مشهورة بالاسـتعصاء عـلى الفهم ــ فهم الرجـل العادى ــ أولا ، والبعد عن الأمور العملية فى الحياة ثانيا ، والصعوبة الثانية يمكن تداركها لأن من مميزات البراجماتية الاتصال بالحياة ، تصر على تقريب ما بين الأمور العمليـة والنظريات الفلسفية ، ومن ثم فلا بأس علينـا من هــذه الصعوبة ·

وأما الصـعوبة الأولى ــ وهى الاستعصاء والتعقيد ــ فليسا من طبعى ، فانى آكره التكلف ولا أستسيغه بحـال ، وكذلك فقد ظننت أنى مستطيع أن أتغلب على هذا الاستعصاء والتعقيد دون كبير عناء ·

فهل نجحت فى هذا يا ترى ؟

أظن من العدل أن يترك جواب هذا السؤال للقارىء ·

وحسبى أن أروى هـذه الحقيقة الواقعـة ـ وهى أنى أعطيت مسودات هذا الكتاب لطالب من ناجحى الكفاءة هذا العام ـ فقرأه وفهمه كما تبين لى من تلخيصه له ومناقشته فيه ·

ومع كل هذا فانى آترك الحكم فيه للقراء ·

يعقـوب فام

الباب الأول

الفلسفة والعلم

الفصل الأول

بدء التفكير

كان الانسان فى أول آمره اما طريدا يهرب الى مخبأ يحتمى فيه مما يطارده ويسعى فى القضاء عليه ، أو مطاردا يحتال على فريسته بكل أساليب الحيل حتى ينال طعامه منها ، ويروى ظمأه بدمها ٠

كانت حياته كلها تدور حول كلمة واحدة لا تتسع لغيرها ، وكانت هذه الكلمة هى مفتاح الحياة عنده ، ثم كانت الغاية القصوى من الحياة ٠ لم يكن يفهم الوجود الا عن طريق هذه الكلمة « كيف » ، لقد كانت « كيف » هذه هي الوجود عنده ، هى الوسيلة القريبة للحياة والعيش ، لها ما بعدها للتو والساعة ، وليس من شأنها الغد أو ما بعده ٠ كانت هذه الكلمة صوت الرغبة الحافزة الملحة ، هى نداء الغريزة ــ غريزة الحياة والعيش ــ لا يفهم الوجود الا عن طريقها ، وطريقها ضيق محدود لا يتعدى الغذاء والنشاط الجنسي والدفاع عن النفس ٠ فالوجود لا يخرج عن هذه الأشياء الثلاثة ، والنفس عنده هى ارادة هذه الأشياء ليس غير ، والنشاط عنده هو « كيف » يحصل على هذه الأشياء ،

« وكيف » يحصـل عليهـا عنـدما يريدها ، لا قبـل ذلك ولا بعده ·

كان آخر ما يفكر فيه ليلا « كيف » يتقى شر الظلام ، و « كيف » يحتمى من أعدائه رواد الليل · وأول شيء ينهض فى نفسه عندما ينهض هو « كيف » يجد الالف ، و « كيف » يجد القوت و « كيف » ينجو من الحيوانات الضارية ؟ كان هذا السؤال محور كل شيء ، ومفتاح كل شيء وغاية كل شيء ، ولم تكن الحيـاة لتمهله قليـلا وتعفيه لحظات من « كيف » هذه ·

للسباع مخالب قوية وأنياب حادة ليس للانسان مثلها، « فكيف » يتقيها عندما يشتبك معهـا فى قتال ؟ « وكيف » يحتال عليها فى النضال ؟ الأفضل له بالطبع أن لا يقاتلها عن قرب أو يشتبك معها جسما لجسم وبدنا لبدن ، وانما يحسن أن يكون قتالها عن بعـد بحيث يأمن هـذه الأنيـاب وتلك المخالب · ولكن « كيف » السبيل الى ذلك وليس بالمستطاع أن يصيب أعداءه بمجرد الرغبة والتمنى ؟ « كيف » السبيل الى قتال هذه الضوارى عن بعد الا باستعمال أسلحة تطير من يد الانسان الى مقتلها ؟ بالطبع كانت « كيف » هـذه هى الأصل فى وجود الآلات بجميع أنواعها من قطعـة الحجـر المدببة الى السيارة والراديو وغيرهما ·

وكانت مظاهـر الطبيعـة التى لم يكن يفهمهـا كثيرة منوعة ، وبعض هذه المظاهر مروعة مخيفة لم يكن يطيقهـا أو يستريح اليها ، كالبرق ، والرعد، والزوابع، والأعاصير،

والفيضانات ، والصواعق ، والزلازل ، والبراكين ، والزلاقات ، وبالاختصار ثورات الطبيعة العنيفة التى قلما تحدث دون أن تترك أثارا واضحة المعالم على وجه الأرض ، وأمام هذه الظواهر القوية كان الانسان الأول يشعر بالعجز المطلق والخوف القاتل • وكان السؤال الذى يلازمه آناء الليل وأطراف النهار هو « كيف » يتوقى هذه الظواهر ويهرب منها ؟ بالطبع لم يكن لهذه الظواهر أسباب واضحة يفهمها ، أو مقدمات تدل عليها ، فكان يعجز أمامها ويخافها كل الخوف ، فكان يفرض أسبابها فرضا ، وراح يعالج هذه الأسباب بالطرائق الممكنة له ، ولم تكن هذه شيئا سوى التزلف الى القوى التى تدفع بهذه الظواهر دفعا ، وتلقى بها على الدنيا القاء ، ولابد أن يكون « السبب » شيئا هائلا ، ولابد أن يكون هذا « السبب » غاضبا يريد الانتقام من الدنيا فى مجموعها ومن الانسان خاصة • وبعد ، « فكيف » يتقى هذا الشيء ؟ انه لا يستطيع له قتالا لأنه لا يقع تحت حسه ، فلا يراه ، والنظر عند صاحبنا هو أوكد السبل فى القتال ، فمتى رأى العدو اطمأن نوعا وأمن على نفسه نوعا ، أما المجهول ، أما الخطر الكامن فهذا ما لا قبل له به • ومن هنا نشأ التزلف الى قوى الطبيعة الكامنة ، ونشأت الشعائر التى كانت تقام لها عند الانسان الأول •

كان هذا شعور صاحبنا بالأمس ، وكانت « كيف » هى الشغل الشاغل له ، ولم تكن حياته بالأمس تتسع لسؤال غير هذا • وكانت غرائزه الأولية تلاحقه فلم تترك له لحظة واحدة للراحة ، يطلب القوت عندما ينهض ، ولا يزال

يطلبه حتى يأوى الى فراشه ، واللحظات القليلة التى لم تكن تصرف فى الحصول عليه ، كانت تنصرف أيضا فى « كيف» يجد الأنثى ويستخلصها من مزاحميته الأقوياء ، « وكيف » يتقى الأعداء ؟

أما اليوم ، فقد أصبح صاحبنا على غير عادته مطمئنا نوعا ما ، مستريحا نوعا ما ، اطمأن نوعا لأنه استطاع أن يدجن بعض الحيوانات ، فأصبحت أليفة تعيش بقربه فيطعم لحمها وألبانها • ثم استراح نوعا لأن زوجه أو زوج أجداده الأولين استطاعت أن تنبت له العشب والبقول ، وأصبح يستطيع أن يمد يديه فيحصل على بعض ما يريد من هذه ومن تلك ، ثم أضحى آمنا نوعا ما لأنه تعلم أن يعيش من جماعات صغيرة تستطيع أن تدرأ عن أفرادها خطر الضوارى • وبالجملة ، فقد أصبحت حياته محتملة نوعا ما ، وأصبحت ، « كيف » هذه لا تعاوده الا بين الفينة والفينة • حقا ان حياته ما تزال تدور حولها ، وما تزال هى الغاية والوسيلة من الحياة ، الا أنها لم تعد تملأ الكون على رحابه ، ولم تعد تشغل جميع قواه النفسية ، بل تركت له بعض اللحظات يرجع فيها الى نفسه ، ثم فيها يقبل على الكون بقصد الاستمتاع به وخلق القيم والأقدار للأشياء •

وأصبح فى يومنا هذا واذا بسؤال صغير يتردد فى نفسه خافتا هامسا باهتا يكاد لا يستبين له لون ولا طعم ، ولكنه سؤال غريب لم يعتده من نفسه ، ولم يعتد أن يسأله لنفسه ، ثم لم يعتد أن يحاول له جوابا ، لقد كان هذا السؤال بدء عهد جديد فى حياة الانسانية ، وفاتحة عهد

جديد للفكر ، وكان هـذا السؤال « لمـاذا » ، كان سـؤالا متواضعا خافتا ، وكان يتطلب منه جوابا على أية حال ٠

وبدأت « لماذا » هذه ضعيفة حائرة ، وأخذت تظهر وتشتد وتقوى الى أن أصبحت في عصرنا هذا المحور الذى يدور عليه الكون فى مجموعه ، ويشقى بها الانسان من منشئه الى نهاية عمره ، وأصبحت تشغل تفكير الناس دون المأكل والمشرب ، لقد كانت « كيف » تحتل منه جميع منابع النفس ، فأصبحت « لماذا » تنازعها مركزها هذا ، وتكاد تقصيها عنه لولا بقية من التنازع على البقاء تأخذ عليها المنافذ وتمنعها أن تتحكم فى الحياة بجملتها ٠

استراح صاحبنا فى يومنا هذا ، واطمأن الى أن عنده قوت يومه ، والى أن زوجه أصبحت ملكا له لا ينازعه فيها أحد في ذلك اليوم بذاته ، فأخذ يسأل نفسه « لماذا » أريد أن أقتل هذا الحيوان ؟

ــ أريد أن أقتله لأنى أريد لحمه طعاما، وجلده كساء ٠

ــ « ولماذا » أريد لحمه طعاما وجلده كساء ؟ ٠

ــ لأنى اذا أكلت لحمـه ولبست جلده لا أموت جـوعا أو بردا ٠

تتسلسل « لماذا » هذه وتكبر حروفها وتصبح معضلة يصعب على الانسـان أن يجد لها حلا معقولا أو قريبـا من المعقول ، وتصبح أيضـا نوعا من الرياضة العقلية البحتة التى لا تعود على الانسان بفائدة قريبة مرجوة ، أو تبعد عنه خطرا منظورا ، وانما هى نوع من المران الذى لا يدرى له

الانسان غاية ، ولكنه على آية حال مران للقوى العاقلة لابد أن يترك فيها أثرا يغير الحيـاة بطريقة لا يحسها الفرد ، وانما تستبين في النـوع البشرى ، ولا تستبين فيه الا على أحقاب طويلة ، والآن لنعد الى صاحبنا والى سؤاله هذا :

ــ ولماذا أموت من البرد والجوع ؟

ــ ولماذا لا يكون البرد والجوع من مقومات الحياة ؟

ــ ولماذا الموت أصلا ؟

ــ ولماذا الجوع ؟

ــ ولماذا البرد ؟

ــ ولماذا صـنع جسـمى بهـذا الشـكل فيتأثر بالبرد وبالجوع ؟

ــ ولماذا الحياة ؟

ــ ولماذا الكون ؟

ألا يرى القارىء أن « لماذا » هذه تكبر وتتضخم قليـلا قليلا الى أن تكاد تملأ الكون وتذرعه طولا وعرضا ، تذهب الى أقصى الأجرام بعدا عنا وأقربها الينا ، ألا تتناول الأجرام الكبيرة ، والجسيمات الصغيرة على السواء ؟ ألا تتناول الحياة في صميمها ، وأصلها ومسارها وغايتها وما قبل الحياة وما بعدها ؟ ألا يرى أن « لماذا » هذه تحاول أن تذهب الى ما وراء الطبيعة ، وتحاول أن تهتك الأستار التى تحجب الغيب وتخفى المجهول ؟

كانت «كيف» تهتم بالوسائل القريبة ، لتفسير الظواهر الواقعة ، واستخدام هذه الظواهر أو بعضها كوسيلة لبعض الغايات القريبة . كانت هي الوسيلة لفهم ما يتصل بحياة الانسان عن قرب واستخدام هذه الأشياء في فائدة الانسان العاجلة . كانت كآلة بسيطة يستصحبها معه كل يوم في شئون الحياة ، ويستخدمها كل آونة في تسخير القوى الطبيعية حوله اذا ما كان في حاجة الى تلك القوى .

أما « لماذا » فقد كانت تحفة طريفة لا تستخدم الا في أوقات الرفاهة والامتلاء ، حينما لا يكون له مطلب قريب يتصل بحياته الراهنة ، وحينما لا يكون مهموما باجابة رغائب غرائزه الأولية .

أظن أنه قد اتضح للقارىء من هذا الحديث أن «كيف» هذه هي سؤال العلم(★)، وأن « لماذا » هي سؤال الفلسفة ، وأن الفرق بين جوابيهما هو كالفرق بين الفلسفة والعلم ، وأن دائرة النشاط في « كيف » هو ميدان العلم ، بينما أن دائرة « لماذا » هي ميدان الفلسفة .

وسيلة العلم هي أن يبحث في « كيف هذا » كيف يتركب . وكيف يحلل ، كيف تسير الكواكب ، وكيف تدور الذرات حول النواة ، كيف يتركب الماء ، وكيف يحلل الى عناصره الأولية ، كيف يتسنى لنا أن ندفع بكتلة من المادة فتسير في المكان كالسيارة مثلا ، وكيف نغوص في الماء ، وكيف نستطيع البقاء تحته آمدا طويلا دون أن نختنق ،

(★) الحق ان كيف هى سؤال التكنولوجيا ، اما العلم فهو كالفلسفة يسال لماذا ، ولكنه يسالها ليستنبط القوانين التى تحكم الظواهر المادية بوجه عام وتفسرها اما مجال الفلسفة فهو اشمل لانه يتطرق الى العلل الأولى – (المحرر) .

كيف نسير ، وكيف نطير ، وكيف تعمل عضلات الجسم ، وكيف تتعاون أعضاؤه على قضاء أغراضه ، كيف تنتابنا العلل ، وكيف نشفي منها وتصح أبداننا ؟

وبعبارة أخرى ، ان العلم لا يبحث الا في ميادين محدودة معينة ، يتناول الوجود شيئا شيئا ، وجزءا جزءا ، ويبحث في كل منها على حدة ، مم يتركب هذا الجزء ، ما عناصره التي يتركب منها ، وما ظروفه التي يتركب فيها (درجة الحرارة والبرودة أو الضغط الجوى الخ) ثم ما مقادير أجزائه ونسب هذه الأجزاء الى بعضها ، ثم كيف يتصرف أو ماذا يحدث لهذا الشيء في الظروف المختلفة ، وكيف ينفعل عند اتصاله بالعناصر الأخرى ؟

يتناول العلم الأشياء من ناحية أشكالها وأحجامها وحركاتها ، أو كأنه يعالجها من الناحية الكمية أو العددية دون غيرها ، فهذا الشيء مركب من عدد معين من الذرات وثقله عدد معين من الجرامات ، ويسير في الفضاء بسرعة كذا ، وبعبارة أخرى ان العلم يفترض أن للأشياء جميعا خاصة عددية ، ثم يحاول جهده أن يدل على هذه الخاصية ، ويظهرها بالأرقام ، بالآحاد والعشرات .

الفصل الثاني

وظيفة العلم

العلم يبحث عن المعرفة ، يرمى الى فهم هذه الدنيا وظواهرها المتباينة ، وكذلك الفلسفة تبحث عن المعرفة ، فكأن الاثنين يستويان فى الغاية والغرض ، وكأنهما متشابهان • والحقيقة أن أوجه الخلاف متعددة :

١ ـ فوظيفة العلم الأولى أنه يجمع الحقائق (Fact) التى تتصل بموضوع درسه ، يراقب الظواهر الطبيعية التى تمس موضوعه ، ويجمعها ويدونها ، وكلما ظهر شىء جديد جمعه أيضا وأضافه الى مجموعة الحقائق (facts) التى يملكها ، الى أن يصبح فى آخر الأمر وفى جعبته مجموعة كبيرة متباينة عما يبحث فيه • مثال ذلك أن دارون (Darwin) مكث بضع سنين يجمع كل ما يصل اليه من الحقائق عن الأحياء ، يجمعها ليس لأنه يريد أن يدعم بها وجهة نظره بأية حال من الأحوال ، وانما أخذ يجمعها ويختزنها لمجرد الجمع والاختزان ، وبعبارة أخرى كان دارون عالما بأدق معانى الكلمة •

٢ ــ ثم يأخذ العلم في وصف الحقائق التي يجمعها ، أو وصف الموضوع الذى يدرسه ، فالماء سائل ، ثقله النوعى كذا ، يتبخر في درجة حرارة معينة ، ويتجمد في درجة حرارة أخرى معينة ، يحدث له كيت وكيت تحت ضغط معين ، يفعل كذا وكذا في الأملاح وفى المعادن ، يتخذ شكل الوعاء الذى يوضع فيه ، مركب من كذا وكذا من العناصر، ونسبة العناصر الى بعضها هى كذا ، يتركب في حالات معينة وينحل الى عناصره الأولية في حالات أخرى معينة ، ثم يتناول عناصره الأولية بالوصف التفصيلى ، ويبين خواص كل منها فى جميع الحالات ، وتصرف هذه العناصر فى الظروف المختلفة المتباينة ، وبالاختصار نرى أن العلم يتناول الأشياء من ناحيتها الوصفية •

٣ ــ وللعلم عمل آخر هو مغرم به ؛ لأنه قد ثبت له بالتجربة أن هذه الوظيفة معينة له على الوصول الى الحقائق التي يسعى فى الحصول عليها ، وهذا العمل أو هذه الوظيفة هى التحليل ، فما تكاد تصل الى يديه مادة غريبة أو جسم طريف الا ويسارع به الى المعمل ليحلله الى عناصره الأولية ليرى مم يتركب ، يفعل ذلك فى الذرات المادية وفى الخلايا الحية على السواء •

٤ ــ بعد أن يجمع هذه الحقائق ويضمها الى بعضها ، يأخذ فى تبويبها وتقسيمها الى مجاميع متشابهة مشتركة فى خاصية واحدة أو فى مجموعة من الخواص ، يميز كل مجموعة منها باسم خاص ، أو باصطلاح معين يدعوها به كلما أراد الدلالة على صفات معينة • فيقسم الظواهر

الطبيعية الى مجاميع ، كالغازات والسوائل والجوامد ، ثم النباتات والحيوانات ، ثم العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية والعلوم الرياضية ، وهكذا يقوم العلم بالترتيب والتبويب ويجده وسيلة نافعة له فى فهم الأشياء ٠

٥ ـ ثم بعد ذلك يحاول ان يشرح الظواهر الطبيعية أو الحقائق التي تعرض له ، وبمعنى آخر يدل على الحالات التى تحدث فيها الحوادث ، أو الشروط التى يجب أن تتوافر حتي تحصل بعض النتائج ، فمثلا يجد آنه عندما تتوافر حالة معينة فى جسم حى كأن ترتفع حرارة الانسان بشكل معين ، وتظهر عليه عوارض معينة ، ونوع من الحمى معين ، يجد أنه لابد أن يكون قد سبق هذه الحالة دخول ميكروب معين فى جسم الانسان وهو ميكروب الملاريا ، يلاحظ هذا الميكروب ويشاهده ويدون ملاحظاته ومشاهداته ، ثم ينتظره فى كل الحالات المتشابهة ، فعندما تظهر العوارض المتقدمة يتوجه فى الحال الى الدم ويحلله ويستبعد كل الأشياء والمواد التى يعرف أنها سوف توجد فى محتويات الدم ٠ ثم يصوب ميكروسكوبه الى الباقى فيجد ـ كما كان ينتظر ذلك ـ الميكروب بعينه ، فكيف أتى هذا الميكروب ؟ وكيف حمل الى الجسم الحى ؟ وكيف دفع الى الدم ؟ هذه أسئلة تجعله يبدأ بجميع الحقائق مرة أخرى وتبويبها من جديد ، فيجد مثلا أنه يسبق دخول هذا الميكروب الى الدم اتصال نوع معين من البعوض بجسم الانسان ولدغه وامتصاص قدر من دمه ، ويجد فى نفس الوقت أن بعض الأنواع الأخرى من البعوض، وجميع الحشرات الأخرى لا تحدث مثل هذه النتيجة فى

الانسان ، فيذهب يستقصى تاريخ هذه البعوضة بالذات من يوم خروجها من البيضة الى أن تحط على جسم الانسان وتلدغه ·

وبعبارة أخرى ، يعتقد العلم ــ وهذا من القواعد الأساسية عنده ــ أن لكل نتيجة سببا ، وأن هذا السبب يسبق النتيجة دائما فى الترتيب الزمنى · ويحاول ــ وهو ينجح دائما في محاولته هذه ــ أن يبين أن الحوادث مرتبطة بأسبابها ، و « كيف » أنه عندما يتوافر السبب وتكتمل فيه جميع الشروط المطلوبة لابد أن تحدث النتيجة المعلومة ، ومن هذه القضية الأساسية عنده يتدرج الى غاياته التى يسعى اليها ، فمتى وجد نتيجة معينة يذهب مباشرة يفتش على السبب المعلوم ، أو متى عرض له سبب ينتظر مطمئنا النتيجة المحتومة ·

ولا نغالى بحال من الأحوال اذا نحن زعمنا بأن المسألة السببية هى عند العلم حجر الزاوية ، والأساس الذى يقوم عليه كل شىء ، ولذلك نرى أنه يستطيع فى جميع الحالات المعلومة أن يدل على «كيف» يحدث هذا الحدث ، « وكيف » توجد هذه النتيجة ، و «كيف» يمرض الانسان ، و « كيف » يصح بدنه و « كيف » تتحرك الكتل المادية و « كيف » تسكن ، الى آخر هذه الظواهر الطبيعية ·

ثم من قضاياه الأساسية أيضا مسألة الزمن فى السببية ، أو ترتيب الحوادث والظواهر ترتيبا يراعى فيه الزمن ، فالسبب دائما أبدا يسبق النتيجة ، ولا يصح العكس بحال

من الأحوال ، أما « لماذا » يسبق السبب النتيجة فهذه قضية لا تدخل في حساب العلم ، لأن العلم بعيد عن هذه القضية أو هذا السؤال ، ثم هو لا يحاول أن يعالج مشكلة آخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وهي « لماذا » كان لابد لكل نتيجة سبب أو « لماذا » كان هذا السبب أصلا ؟ ولماذا يفرض وجود هذه السببية فرضا ؟ كل هذه أسئلة لا يحاول العلم أن يعالجها : لأنها ليست من اختصاصه ولا تقع في دائرة نشاطه ، هذه معضلة يتركها للفلسفة ، وسوف نتناولها عندما نتكلم عن دائرة نشاط الفلسفة ·

٦ ــ وللعلم وظيفة أخرى تميزه عن وظيفة الفلسفة وهى أنه يحاول أن يضع للظواهر الطبيعية أو الحوادث (Events) قوانين عامة شاملة تربط بعضها ببعض · والواقع أن قوانين العلم ليس لها صفة الالزام بحال من الأحوال ، فليس وجود القانون معناه أن هنالك قوة أو ارادة ترغم الأشياء على التصرف بهذا الأسلوب ، وبعبارة أخرى ان القانون في الأبحاث العلمية لا يخرج عن أن يكون وصفا للظواهر أو للحوادث الطبيعية ·

فقانون الجاذبية مثلا ليس هو في الواقع شيئا سوى وصف لما يحدث في هذه الأرض وفي الأجرام السماوية ، فالأجرام السماوية أو الأجسام الأرضية لا تخضع في الواقع لقانون الجاذبية · ليس في هذا القانون قوة ملزمة للأشياء تجعلها تتصرف بهذه الطريقة أو بتلك ، وانما هو لا يعدو أن يكون وصفا بسيطا لبعض الظواهر التي تحدث ، أو هو وصف لكيفية الحدوث ليس غير · يزعم هذا القانون أن

« الأجسام تجذب بعضها بعضا بنسبة أحجامها طردا وبنسبة مربع المسافة بينها عكسا » أو كأن مقدرة جسم معين على جسم آخر تتوقف على حجمه وعلى قربه من الجسم الآخر ، وظاهر من هذا الكلام أنه كلام وصفي لا غير ، لا يعدو أن يكون شرحا لظاهرة طبيعية ، وليس في القانون خاصية تجعل الأجسام تخضع له ، وكل ما لهذا القانون من شأن أو أهمية أنه وصف عام شامل لتصرف جميع الأجسام السماوية أو الأرضية ٠

وملخص القول في العلم أنه :

١ ـ يجمع الحقائق (facts) ,

٢ ـ ثم يصف هذه الحقائق (facts)

٣ ـ ويحلل الظواهر ٠

٤ ـ ويسعى لمعرفة الأسباب والنتائج ٠

٥ ـ ثم يستنبط القوانين العامة ٠

ولو أمعنا النظر في جميع هذه الوظائف ، لوجدنا أنها في الواقع تندرج جميعها تحت باب واحد وهو الوصف (Description) ، وأنها كلها لا تصلح الا أن تكون جوابا لأحد سؤالين وهما « كيف » و « كم » ، وقد نجح العلم في ميدانه نجاحا منقطع النظير ، وأجاب على الأسئلة التى وجهت اليه في دائرة اختصاصه ، وأصبح في وقت من الأوقات يفاخر الفلسفة ويشمخ عليها بأنفه وان كان قد أخذ في الثلاثين سنة الماضية يعود الى تواضعه المعهود ، وأمسك عن التدخل في الشئون التى لا تعنيه ٠

الفصــل الثــالث

وظيفة الفلسفة

للفلسفة وظيفتان مهمتان :

الأولى أنهـا تبحث فى القضايا التى لا تقع فى دائـرة العلم بحكم وظيفته ، فهو يتناول الأشياء في أجزائها ، وهى تتناولها فى مجموعها • العلم يبحث « كيف » تحدث الحوادث وتظهر الظواهر ، والفلسفة تبحث فى « لماذا » هذه الحوادث والظواهر، هو يتناول الكون من ناحية وصفه ، وهى تتناوله من ناحية معناه • العلم يصف والفلسفة تحاول أن تعطى للأشياء قيمة وقدرا • العلم يفسر الظواهر والفلسفة تريد أن تصل الى الحقائق (Realities) التى تختفى وراء الظواهر •

والوظيفة الأخرى للفلسفة تنحصر فى أنها تبحث فى قضـايا العلم ذاته ، تنبـه العلم الى أنه سـاذج فى بعض الحالات ، يأخذ الأشياء على علاتها ويسلم تسـليما مطلقـا للأدوات التى يستعملها فى أبحاثه ، ويأخذ نتائجها على أنها صادقة لا تقبل الشك فى معظم الأحايين •

العلم لا يستعمل فى أبحاثه سوى الظواهر المشاهدة المحسوسة ، ولنضرب على ذلك مثلا بالسبب والنتيجة اللذين قدمناهما ، كل ما يعنى العلم فى هذا الموضوع هو شيئان ، الأول أن السبب يسبق النتيجة ، أو بعبارة أخرى أن العلاقة بين السبب والنتيجة هى علاقة زمنية بحتة ، ومن وجهة نظر العلم ، يكفيه هذه العلاقة دون غيرها ، فهو لذلك لا يحاول بحال أن يبحث وراء علاقة أخرى قد تكون أوثق من مجرد الترتيب الزمنى ، ولذلك متى أراد العلم أمرا هيأ له أسبابه فى فترة من الزمان ، ثم اطمأن واثقا بأنه سوف يحصل على النتيجة المطلوبة فى الفترة الزمنية التالية ٠

والشيء الثانى الذى يعنى العلم به كل العناية هو مجرد رأى أو نظرية له عن الكون ، ابتدعها ابتداعا واخترعها اختراعا ثم استخدمها فى شئونه استخداما متواصلا ، وهذه النظرية أو هذا الرأى هو أن الكون منتظم يتبع قوانين موضوعة لا يحيد عنها بأية حال من الأحوال ، يؤمن العلم بأن الكون صادق في ظواهره لا يكذب ولا يخدع ، موثوق به لا يتصرف فى الغد الا كما تصرف بالأمس ، وبعبارة أخرى يؤمن بأن الكون منظم مرتب (Orderly and Uniform) لا يمكن أن يحيد عن خطته الموضوعة له أو يخالف القوانين المألوفة لديه ، فالأجسام تجذب بعضها بنسبة معينة ، وهذا هو المشاهد بالأمس ، وقد خضعت جميع الأجرام لهذا القانون فيما سبق ، وهذا بالطبع حق لا ينازع العلم فيه منازع ٠

وانما العلم لا يقف عند هذا الحد ، بل يتعداه ويفترض افتراضا لا يقوم عليه دليل بحال بأن الكون سوف يخضع

لهذا القانون في المستقبل ، وسوف تجذب الأجسام بعضها بعضا بهذه الكيفية في الغد كما فعلت بالأمس • واذ نسأل العلم لماذا يفعل الكون هكذا ، ولماذا هو مطالب بأن يتصرف في غده كما تصرف في أمسه ، يجيب بأنه موقن بهذا لأن
في غده كما تصرف في أمسه ، يجيب بأنه موقن بهذا لأن
عن بعض (Orderly and Uniform) •

لكن الفلسفة لا تسلم بهذا على علاته ، بل تلحف بالسؤال وتتطلب الجواب ، تتساءل الفلسفة قائلة : « وكيف عرفت أيها العلم أن الكون يخضع للقوانين ؟ » يقول العلم : « عرفت ذلك من جميع التجارب السابقة التي أجريتها » ، والفلسفة لا تجهل بالطبع جميع هذه التجارب ، ولكنها تصر على أن ما قد حصل لا يعين ما سوف يحصل في المستقبل ، فقد يخلف الكون ظن العلم في أنه يخضع للقوانين : يجوز ذلك بالطبع ، والعلم يسلم به ولا ينازع فيه ، وكل ما يزعمه العلم في الواقع أن قانونية الكون وانتظامه هو في الواقع مبني على ايمان أو ظن •

الواقع أن العلم لم يبحث علة الانتظام في الكون وخضوعه للقوانين العامة ، لم يبحث هذا لأنه ليس من شأنه أن يبحثه ، وبحثه اياه ـ على فرض أنه أزمع البحث فيه ـ لا يهم العلم ولا يقدم أو يؤخر في أبحاثه العادية ، وانما كل ما يهمه من خضوع الكون لقوانين عامة تربط تصرف جزئياته ، أن هذه الجزئيات تتصرف بالطريقة التي ينتظرها العلم ، فليس من شأنه مثلا أن يفهم طبيعة السببية ، أو هل السبب عامل موجب في النتيجة ، أم أن الصلة بينهما مجرد

صلة زمنية ، فيسبق السبب النتيجة ثم ينتهى الموضوع عند هذا الحد ، لا يهمه هل السبب يخلق النتيجة ، أم يوجدها بشكل من الأشكال ، وهل هذا التتابع بينهما ينبنى على قوة ملزمة في طبيعة السبب ، أو على وجود عقل في الكون يحتم هذا الارتباط بينهما • لا يهم العلم شيء من هذا ، وانما كل ما يهمه هو أن يجد النتيجة المطلوبة عندما يجهز لها أسبابها ، أو أنه عندما يمنع السبب بمحض ارادته تمتنع النتيجة بالتبعية •

ولكن الفلسفة تبحث في نفس هذا الشيء الذى لا يهتم له العلم ، تبحث في طبيعة هذا الارتباط بينهما ، وتتساءل عن نوع هذا الالزام ، ولماذا تتبع النتيجة السبب ، لماذا لا تتقدمه مثلا ؟ يقول العلم ان دخول نوع معين من الميكروبات في جسم الانسان يسبب له الاصابة بحمى التيفود ، فتسأل الفلسفة لماذا يصاب الانسان بهذه الحمى عندما تدخل هذه الميكروبات في جسمه ، وما العلاقة بين الميكروب والحمى ، وهل الحمى من صنع الميكروب وبارادته ، ولماذا يتحتم هذا الارتباط بينهما ، وهل هذا التحتيم من فعل الميكروب ذاته ، أم من فعل قوة خارجة عنه ، أم هل مجرد السبق في الزمن كاف لحل هذا المشكل ؟ وبالاختصار ، فإن السببية موضوع للفلسفة دون العلم •

ثم تسأل الفلسفة : اذا كان لكل نتيجة سبب ، أو لكل حدث قوة أو شيء يحدثه ، فما أصل هذا السبب ، من أحدثه وكيف وقع في هذا الكون ؟ لابد وأن يكون له هو بدوره شيء أنتجه ، لابد وأن يكون السبب نفسه نتيجة لسبب آخر قبله ،

ولنفرض أن كل سبب نتج عن سبب تقدمه ، فما السبب الأصلى أو الأولى (first Cause) الذى أوجد كل هذه الأشياء والحوادث والظواهر ؟ ولسنا نتعنت فى ايراد هذا السؤال ، لأنه قد ورد على الانسانية من قديم الزمان وحاولوا له جوابا .

ولكن نظام السببية هذا له لوازم لابد وأن تتبعه كظله ، له نتيجة منطقية لا يمكن أن نتحلل منها ، وهى أن الحوادث (events) تحدث بتقدير معين ، وبارادة معينة وبنظام موضوع محكم يخضع الحوادث للزمن ، ويملى التصرفات ولا يمكن لشىء أن يحدث الا متى آريد له أن يحدث ، واذن نكون نحن أيضا آلات صغيرة فى دولاب الزمن ، نسير لأنه يسير ، وننفعل لأنه يراد لنا أن ننفعل ، ونتصرف لأننا مضطرون لهذا التصرف دون سواه ، فكأن القاتل لا محيص له عن أن يقتل ؛ لأن النظام الآلى للكون يسلبه كل ذرة من الحرية ، ولأن نظام السببية هذا يجعل الكون دولابا كبيرا ، يدور فى مجموعة وليس لأجزائه الا أن تدور معه دون بحث أو تفكير .

وكيف يكون الحال هكذا على حين أننا نشعر كأفراد أن لنا حق الاختيار وحق العمل المستقل ؟ كيف ينسجم نظام السببية هذا مع ما أشعر به أنا فى قرارة نفسى من أن لى الحرية أن أكتب هذه الصفحات أو لا أكتبها ؟ وكيف تتفق هذه الآلية مع نظامنا الاجتماعى ؟ اذ ان فى هذا النظام الاجتماعى من يحاسب كل انسان على ما فعل ، ولا يقبل منه تعلات أو معاذير ، فالمخطىء يجازى والمحسن يثاب دون

التفات الى هذا النظام الآلى للكون ، ودون التفات الى النظرية السببية التى فرضها العلم على الكون فرضا، وسار بمقتضاها فى أبحاثه المختلفة • والنتيجة أن شعور الفرد بحريته يتنافى مع نظرية العلم فى السببية ، وهذا بالطبع وحده كاف لأن تأخذ الفلسفة على عاتقها بحث هذه القضية من أساسها بحثا بعيدا عن التحزب لرأى معين •

ثم اذا كان كل شيء مقدرا تقديرا ، وكان الكون يخضع لنظام معين لا يمكن أن يحيد عنه ، فما غاية هذا الكون ؟ اذا كانت نظرية السببية صحيحة ، فالى أين يسير بنا هذا النظام ؟ لابد وأن تكون للكون غاية يسعى اليها وغرض يرمى اليه ، فما هذا الغرض ؟ يقول العلم ، ان الكون يسير بمقتضى خطة موضوعة ، فمن وضع هذه الخطة أولا ، ولماذا وضعت هذه الخطة وماذا ترمى اليه ؟ هذا أيضا تبحثه الفلسفة ؛ لأنها معنية بأمثال هذه القضايا التى لا تهم العلم •

ومع ذلك ، وبرغم كل ما تقدم ، قد يجوز أن العلم مخطىء فى تمسكه بنظرية السببية هذه ، وقد يجوز أنه أخطأ فى تقديره أن لكل سبب نتيجة ، وأن كل نتيجة تتبع سببا • قد يمكن أن تكون الصلة الزمنية بينهما مجرد وهم أو مصادفة ، فقد يمكن أن تحدث الحوادث من تلقاء نفسها وبالصدفة دون تدخل من أحد أو من شيء • قد يجوز أن يصاب المرء بالتيفود لمجرد أنه أصيب به ، دون أن يكون هنالك سبب أو نتيجة ، ودون أن يكون هنالك ارتباط بين هذا الحدث والحوادث الأخرى مثل دخول الميكروب الى جسمه : اذ صح هذا ــ ولا يهم الفلسفة سواء أصح أم لم

يصح ـ يكون الكون عبارة عن أجزاء مستقلة حرة لا يرتبط أحدها بالآخر الا عن طريق الوجود ـ فليس يرتبط التيفود بالميكروب الا أن هذا موجود ، وذاك أيضا موجـود ، وكل منهما يتصرف مستقلا عن الآخر في حدود اختصاصه .

وبالاختصار ، نرى أن العلم يضع نظريات وقوانين عامة يطبقها في الحالات الخاصة ، ويجد أن هذه الطريقة تصلح له في عمله . يفرض أن لكل سبب نتيجة مثلا أو يفرض أن الكون خاضع لنظم وقوانين لا يحيد عنها ، ثم يسير العلم في شئونه على هذا الزعم كأنه حقيقة واقعة لا شـك فيها ، وهو يفعل ذلك لأنه عالج بعض الحقائق الموضعية وبعض الاختبارات وبعض الحوادث ؛ فتبين له أنهـا عـلى الأرجح تخضع لمثل هذه القوانين العامة . فيفترض وجود هذه القوانين والنظم ويذهب لشأنه يعالج هذه الحقائق الموضعية لا يعنيه شيء بعد هذا ، واذا سألته هل يدري أن فروضه هذه حق ، يجيبك أنه لا يقطع بصحة ذلك قطعا باتا ، ثم هو لا يعنيه صحتها أو عدم صحتها ، وانما يعنيه شيء واحد وهو أنهـا قد حققت له أغراضه التي يسعى اليها ، ثم اذا سألته هـل هو واثق من أن هذه القوانين سوف تصدق في المسـتقبل يجيبك أنه لا يدري ، ولا يعنيه أن يدري ، وان كانت على الأرجح سوف تصدق .

أما الفلسـفة فلا تكتفي بهـذا ، وانما تبحث وتجـد وتجتهد الى أن توفق الى حل الاشكال فيتبين لها صواب هذه القوانين من خطئها ، ولكنهـا عـلى كل حال لا تني تبحث وتدرس . حقا انها لم تصل الى نتائج باهرة قوية كما فعل

العلم وكما لا يزال يفعل في كل يوم ، وحقا ان موقفها كان سالبا أكثر منه موجبا فى هذه الأبحاث ـ وهذا بالطبع أحد الأسباب التى جعلت العامة تنصرف عنها الى العلم ـ ولكنها على أية حال قد أدت واجبها فى كثير من الأحيان ، ومن هذا الواجب أنها نبهت العلم الى كثير من أغلاطه التى وقع فيها ، وأظهر هذه الأغلاط وضوحا ايمانه المطلق بصواب نتائجه التى وصل اليها ٠

أتى على العلم وقت كان يقطع فيه بصحة نتائجه ، ولا ينى يؤكد بكل ما يملك من قوة أن هذه النتائج حق لا يأتيها الباطل بأى شكل من الأشكال ، وأنه اذا كان فى الوجود شىء اسمه حق فيكون هذا الشىء هو الحقائق العلمية، وأمعن فى هذا التوكيد بشكل طغى على كل تفكير آخر ، حتى عدنا لا نسمع بشىء ولا يسمح لنا أن نسمع بشىء الا اذا أقره العلم ٠ والعلم شكل العالم بطريقة آلية مادية ينتفى معها كل أثر للقيم والغايات ، فأصبح الكون آلة كبيرة تدور كالعجلة ولا تعلم لماذا هى تدور ، وأصبحت المادية هى الدين الذى لا يوجد دين سواه ٠

فعل العلم كل هذا ناسيا أن الأرض التى يقف عليها لا تثبت لنقد منطقي يوجه اليها ، وكان أن الفلسفة خدمته بأن نزعت من رأسه الغرور وأرجعته نوعا الى صوابه ، فأصبح اليوم يعيش معها جنبا الى جنب ، كل منهما يسعد بأبحاثه فى دائرته دون أن يعتدى على الآخر أو يقرب منه ، الا اذا كان لاطلاعه على كشف جديد أو مفاوضة فى الرأى ٠

لم تثبت الأرض تحت قدمي العلم لسبب بسيط جدا تقدمت به الفلسفة وأفحمته به ، فعاد متواضعا حييا كما يجب أن يكون العلم . من المعلوم أن العلم يبحث عن الحقائق الموضعية (facts of experience) والآن ، ما هذه الحقائق الموضعية الموضعية (what is a fact of experience ?) والجواب الذى نحظى به هو أن الحقيقةالموضعية هى ما نشاهده أو ما نختبره فى حياتنا ، والمشاهدة والاختبار بالطبع لا يأتيان الا عن طريق الحس ، كاللمس أو السمع أو النظر ، فكأن العلم يقول بعبارة أخرى : ان الحقيقة هى ما أتوصل اليه عن طريق واحد من أدوات الحس هذه . فاذا كان الأمر كما ذكرنا ، واذا كان كل ما نعلمه عن هذه الحقائق آتيا الينا عن طريق الحس فقط ، فهل يحسن بنا أن نأمن هذه الأدوات دون غيرها فى الوصول الى هذه الحقائق ؟ هل نستطيع أن نفعل ذلك مطمئنين ، والواقع أن أقل ما يقال فيها انها لا تقدم لنا الأشياء على حقيقتها .

والبرهان على أن الحواس لا تقدم لنا الأشياء على حقيقتها قريب منا أو هو بين أيدينا ، ونستطيع أن نأخذه من العلم نفسه فنريح أنفسنا عناء التدليل بأدلة خارجية ، أنا الآن جالس الى مكتبى أكتب هذه الكلمة ، وأمامي مكتب من الخشب الصلب القوى له طول وعرض وارتفاع ، وهو كتلة واحدة لا يتخللها فراغ بأى شكل من الأشكال ، أو على الأقل حواسى جميعها تدلنى على أن أجزاءه مرتبطة ببعضها بشكل لا تجعل بينها فراغا ، ولكن ما الرأى اذا كان العلم نفسه قد أثبت أنه مركب من الكترونات وبروتونات ، وأن

هذه وتلك طاقة كهربائية لا مادة فيها ، وأن الفراغ بينها أكثر بكثير من الشحنات الكهربائية الموجودة فيها ، وبمعنى آخر أن المكتب الذى أكتب عليه ليس هو بمادة ولا صلب ويتخلله الفراغ الكثير ، أو بعبارة أخرى أن حواسى لم تصدق ولا فى واحدة من الحقائق التى أدخلتها فى رأسى ، ومع ذلك فالعلم يعتمد فى الوصول الى الحقائق على هذه الحواس التى برهن العلم نفسه على أنها قد لا تصدق ، وقد لا تنقل الأشياء على حقيقتها ٠

هذا مثل واحد على أن الحواس التى يعتمد العلم عليها فى الكشف عن الحقائق قد تخطىء ـ بل لابد وأن تخطىء ـ ونحن نعلم بالطبع أن حياتنا كلها واختباراتنا جميعها ، من يوم أن نولد الى يوم نموت مؤسسة على هذه الحواس ، ونحن نأخذ أخبارها على أنها قضية مسلمة صادقة تتفق مع الحقائق التى تحيط بنا ، وسنتناول هذا بالشرح والتفصيل فى الأبواب التالية ٠ ويكفى هنا أن ننبه الى أن المدركات الحسية أو الصور التى تدخل أذهاننا عن الأجسام والأشياء حوالينا قد لا تتفق مع حقيقة هذه الأشياء على الاطلاق ، وأقرب مثل أمامنا هو كروية الأرض ، فكل حواسنا تؤكد لنا أنها مسطحة ، ولا يمكن الا أن تكون مسطحة ، بينما العقل أثبت بما لا يدع مجالا للشك أنها ليست كذلك ٠

تبين الآن أن من وظائف الفلسفة أنها تنبه العلم الى الحفر التى تعترض طريقه ، والتى قد يتردى فيها ان لم

يحترس لنفسه ، فكل قضاياه الكبرى التى يتمسك بها ويجدها صالحة له فى أعماله التى يضطلع بها قد تكون خطأ من أساسها ، وقد يجوز أن وسائله التى يستخدمها فى أبحاثه تعجز عن اظهار هذا الخطأ فى قضاياه ، أما الفلسفة فتقدم له هذه الخدمة فى جميع الأدوار .

الفصل الرابع

ضرورة الدراسات الفلسفية

الدراسة الفلسفية هى محاولة الانسان أن يفهم الكون حوله ، هى اعمال الفكر لفهم العوالم التى تحيط به ، وهذه العوالم ، هى عالم المادة والظواهر الطبيعية فى مجموعها ، وعالم الفكر (Ideas) وعالم القيم (Values) ، فهذه الدراسة هى فى الواقع مجهود العقل البشرى فى فهم الكون فهما كليا اجتماعيا شاملا ، فهمه كوحدة مرتبطة الأجزاء متصلة ٠

ليس هذا فقط ولكن الانسان مفطور على تقدير الأشياء ووزنها بميزان ليرى قيمتها وقدرها ، وهذه القيمة هى فى الدراسات الفلسفية عبارة عن فهم الأغراض والغايات ، ولماذا هذا ولماذا ذاك ؟ وما الحكمة في وجود جميع هذه الأشياء ؟ وهل للحياة غاية تسعى اليها ، وهل هى تستطيع أن تحقق هذه الغاية ، وهل هذه الغاية فى نفسها ملزمة ، وهل فى طبيعتها ما يرغم الأشياء على الوصول الى هذه الغاية ؟ ثم هل هذا الكون صديق للانسان ، بمعنى أنه ينوى تحقيق المثل العليا للانسان من خير ومن جمال ، أم

هو مجرد آلة صماء عمياء تدور ولا يهمها انتصار الجمال والخير على القبح والشر ؟

لا يستطيع الفرد منا أن يسير فى الطرقات العامة دون أن يشاهد بعض المظاهر الاجتماعية والطبيعية ، التى لا يتسنى للانسان معها أن يكف عن هذه الأسئلة وأمثالها ، فالخير والجمال يشاهدان فى كل آونة وأخرى ، ولا يملك الانسان الا أن يشعر حينا بأن الدنيا بخير ، وأن العالم صديق للانسان ، وأن الحياة جميلة لذيذة . وما أبدع هذا الوجود عندما يواجه الانسان الجمال والخير بين الفينة والفينة ، عندئذ يطمئن الانسان لهذا الكون ويغدق عليه جميع الصفات الطيبة ، ويشعر أن الروح المحرك له صالح وجميل . يعطف على الفرد ويعينه على تحقيق مثله العليا ، فلا يملك الانسان نفسه عن أن يتفلسف ، وعن أن يكون له معين فى الكون وفلسفة خاصة فى الوجود .

وفى يوم آخر يرى القبح والشر يملآن الأرض ، ويسدان المنافذ على الناس ، ويجعلان الحياة ثقيلة بغيضة لا تطاق . يود الفرد لو يتخلص منها فيريح نفسه من مقارفة هذا القبح وهذا الشر الذى يعج به الكون ، فلا يملك الانسان نفسه عن السؤال : « هل الشر طبيعة الكون ، وهل الكون فى الأصل قبيح شرير حتى تظهر عليه هذه الظواهر القبيحة الشريرة ؟ » هل الشر فيه هو الأصل أم هو طارىء عليه أشبه بمرض ينتابه بين الفينة والفينة ، فاذا كان الشر أو القبح هو الأصل والعنصر الأساسى فى هذا الكون ، أظلم

أن الفلسفة الأبيقورية وحدها لا تكفى لمواجهة هذا الكون ، وانما أظن الخروج منه بالموت هو السبيل الوحيد للانسان ، فمن الجبن أن نقبل هذا الحكم علينا وأن نستكين له ونسكن اليه ·

فالفلسفة فى الواقع ليست دراسات نظرية فحسب ، وليست هذه الدراسات منفصلة عن الحياة اليومية بعيدة عن الاتصال بها والتأثير فيها ، بل هى نظرة اجمالية فى الكون ، واتجاه فكرى عام نحو الحياة فى مجموعها · وهذه النظرة ، وهذا الاتجاه الفكرى يؤثران بطبيعة الحال فى تصرفاتنا اليومية ، وفى معالجتنا للحوادث التى تمر بنا ، بمقتضاهما نسير فى عملنا ، ونواجه النظم الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بنا ، ونحدد ميولنا نحوها ، وتصرفاتنا تجاهها · ولكى نبين أثر فلسفة الفرد فى حياته العادية نورد الحادثة الآتية :

كنت فى الترام يوما من الأيام ، وكان يسير ، أو آخذ يتحرك ويسير من المحطة ، وكان مزدحما ليس فيه مكان يستريح فيه الانسان ، وقبل أن يبلغ أقصى سرعته ، أقبل علينا رجل ووثب الى عربة الترام ، واعتدل فى وقفته ، بعد أن تعرض للخطر ، فأخذ أحد الركاب يحاوره حوارا لذيذا جعلنى أطبق الكتاب الذى كنت أطالع فيه وأصغى اليهما ، لأن بحثهما انتقل من تلك الحادثة المعينة الى بحث فلسفى مهم · هما انسانان عاديان أظنهما من طبقة العمال أو الباعة المتجولين ، وعلى هذ لا يمكن لانسان أن يتهمهما بدراسة الفلسفة بأية حال من الأحوال ، ومع أنهما لم

يدرساها ولم يبحثا فيها بطريقة منظمة ، فقد كان واضحا أن لكل منهما فلسفة معينة ، ورأيا فى الكون معينا ، وبمقتضى هذه الفلسفة يتصرف كل منهما فى شئون العيش والحياة • واليك ما دار بينهما من حديث ، منه تستطيع أن تعرف فلسفة كل منهما ورأيه فى الكون :

(أ) ما هذه العجلة يا أخى ، ولماذا هذا التزاحم الذى قد يعرضك للخطر ؟

(ب) جرى خير •

(أ) خير ماذا ؟ آلا تخشى أن تسقط تحت عجلات الترام فتموت ؟

(ب) كلا لا أخاف هذا ولا أخشاه •

(أ) ماهذا ؟ ألا تخاف الموت ؟

(ب) لا أخشى الموت لأن العمر مقدر فى الغيب ، ان أتت ساعتى لا يعفينى منه شىء ، وأما اذا لم تحن الساعة فلن يمسنى ضر •

(أ) ألأن العمر مقدر تعرض نفسك للترام وتقول ان كان الله يريد لى الموت مت ، أما ان لم يكن يريد لى الموت فلن أموت ؟

(ب) نعم أعرض نفسى للترام دون خوف لأنه اذا لم يكن الموت مقدرا لى ، فلن يستطيع ألف ترام مجتمعة أن تميتنى •

(أ) هذا كلام لا يقبله العقل ، لأنك تستطيع أن تودى بحياتك متى أردت ؟

(ب) كلا لا أستطيع أن أموت ان أردت ، ولا يمكن لى أن أموت الا اذا أريد لى ذلك ٠

(أ) هذا عين الجنون ٠

(ب) هذا عين العقل ٠

من هذه المحاورة البسيطة بين هذين الانسانين العاديين الأميين على ما أظن ، يتبين للقــارىء أن لكل منهما فلســفة (والفلسفة هى رأى جامع فى طبيعة الكون) ، وبمقتضى هذه الفلسفة يتصرف كل منهما فى الحياة العادية ، ويواجه الحوادث ، ويقبل على الاختبارات يساهم فيها ٠ ولا يمــكن لفرد منا أن يعيش وينشط الا متى كانت له فلسفة يســير بمقتضاها ٠

وأحد هذين الرجلين يؤمن بالفلسفة الجبرية (Determinism) وملخص هذه الفلسفة أن الكون آلة كبيرة خلقت فى يوم من الأيام ، ووضعت لها القوانين التى تسير بمقتضاها ، وهذه الخطة تتحكم فى تصرف الكون كمجموعة ، ولــكن للــكون أجزاء صغيرة هو مكون منها ، والانسان جزء بسيط من هذا الكون كباقى الأجزاء ، فاذا كان للكون طريق لا يمكن أن يحيد عنه ، ولا يمكن لجزء منه أن يحيــد عنــه ، فنحن اذن مضطرون بحكم النظام الكونى أن نفعل ما نحن فاعلون ، ليس لنا ارادة أو رأى فيه ، ليس هذا فقط ، وانما لابد وأن

يكون للكون غاية يسعى اليهـا وأنفه راغم · فهـو بطبيعة الحال مدفوع الى هذه الغاية دفعا ، ونحن كذلك واصلون الى غاية معينة ليس لنا فيها رأى ، وليس لارادتنا فيها دخل ·

فاذا كان الكون آليا ، واذا كانت الفلسفة الميكانيكية أو الآلية هي النظرة الصحيحة للكون ، أو اذا كان الكون حقيقة آليا ، فلسنا بطبيعة الحال مسئولين منطقيا أو أخلاقيا عن الشرور التي نرتكبها والآثام التى نجترحها ، ذلك لأننـــا مدفوعون اليها محمولون على أن نقترفها تبعا للنظام الكونى الذى وجدنا فيه ، ليس هذا فقط ، ولكن لنا عذرنا اذا نحن قعدنا عن الاصلاح الاجتماعي والأخـلاقي ، لأن جهـودنا هباء فى هباء لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع · ثم كل هؤلاء المصلحين الانسانيين أناس مغفلون يصرفون الحيـــاة في غير طائل ·

أنا لا أزعم أن هـذا الرجـل الذى نحن بصـدده درس فلسفته بهذا الشكل ، وتتبعها الى نتائجها القصوى ، ولـكن تبين لنا على كل حال أن له فلسفة في الحياة معينة ، وأنه يتصرف مع الناس بمقتضى هذه الفلسفة التى يؤمن بها ·

وأما فلسفة الآخر ، فهي فلسفة الحرية والاختيار التى يطلقون عليها الارادية (Indeterminism) وهي على نقيض سابقتها ، فتزعم أنه وان كان للكون نظم وقوانين وخطـة مرسومة يســير بمقتضاها الا أن في الـكون أيضـا حـرية واختيارا ، وأن لأجزائه الحرية في التصرف كيفما يحلو لها، وبمعنى آخر ليس الكون آلة كبيرة تدور تبعا لارادة خارجية عنه ، وانما للكون كما لأجزائه رأى في الموضوع ·

هذه الحرية بالطبع تنفى وجود غاية يسعى اليها الكون ، فلا يمكن أن يكون متجها الى حالة يراد له الوصول اليها ، وانما هو يسير وآلته تدور ، ولأجزائه أن تسير به الى حيث تريد ، فقد يكون العقل الذى يديره جزءا منه ، يحاول أن يسترشد فى تصرفاته بالنور الذى لديه ، وفى هذه الحالة ، اما أن الله يكون قد خلقه وأوجد فى ثناياه الأدوات التى يسير بها فيختار غايته ويتوجه اليها كما يريد وكما يبغى • واما أن يكون قد خلقه الله على هذا المنوال ، وتركه وشأنه • واما أنه يكون وجد بالمصادفة دون أن يوجده أحد ، ثم يتصرف بالمصادفة أيضا ، ويصل الى ما هو واصل اليه بالمصادفة ، وفى هذه الحالة الأخيرة لا يستطيع الانسان أن ينتظر شيئا فى هذا الكون الا ما يستطيع هو بنفسه أن يتمه •

وعلى أية حال، سواء أكان الاثنان مخطئين أم كان أحدهما مصيبا ، فالنتيجة التى وصلنا اليها هى هذه : ان لكل انسان منا فلسفة يسير بها ، ولكل منا نظرة يتجه بها فى هذه الحياة ، فبعضنا متفائل بالحياة يقبل عليها كل الاقبال ، ويثق بها كل الوثوق ، فيسير فيها فرحا نشطا مطمئنا أنه سوف يصل الى غاياته القريبة التى يسعى اليها • وبعضنا متطير من الحياة ، متبرم بها لا يثق بها ، ولا يظن أن الكون صديق للانسان بأية حال من الأحوال ، وانما غاية ما يقبله من الكون هو الحياة ذاتها يقضيها كيفما اتفق ، وكيفما كان الى أن تنقضى بأية حال •

بعضنا يؤمن أن لمجهوداتنا أثرا فى اصــلاح أحــوال الحياة وجعلها ملائمة للفرد الانسانى بشكل يجعله سـعيدا فيها ، فيسعى جهده فى محاربة الشرور الاجتماعية كالفقر والفاقة والمرض والقبح ، ويؤمن أن فى تضافر الانسانية خلاصها ، وفى أنانية الانسان هلاكها • فيدعو الى الاصلاح جهده ، ويحاول أن يحمل الناس على العمل فى سبيل اسعاد نفوسهم ، وبعضنا يظن أنه لابد أن يكون ما هو كائن ، وأن جهودنا عبث فى عبث ، وهم (بفتح الهاء وتشديد مع ضـم الميم) فى غير طائل ، وان الأفضل للانسان أن يريح نفسه ، ويستسلم للقضاء ، ويتخاذل عن النضال فى سبيل الحيـاة لأنها لا تفيد من هذا النضال بأية حال •

كل هذه النظرات للحياة موجودة متوافرة بيننا نلمسها فى الطرقات وفى البيوت ودور الأعمـال ، ولا يمـكن لفرد يرى الحياة ويتصل بها ويراقب جميع الظواهر أن ينـكر وجود هذه الاتجاهات الفكرية ، وهذه النظرات المتباينة وهذه الفلسفات المتعددة ، وأنه مهما حاولنا أن نمنع نفوسنا عن أن تكون لها هذه الفلسفات لا يجديها ذلك نفعا •

هذا من جهة ، ومن الجهة الآخرى نجد أن فى طبيعـة تركيبنا ، وفى تكوين عقولنا ذاتها ما يجعلهـا دائما أبدا مهمومة بهذه المعضلات ، فحتى ان أردنا أن نمسك أنفسـنا عن الخوض فى هذه القضـايا الـكبرى ، والتفـكير فيهـا لا نستطيع أن نفعل ؛ لأننا فى هذه الحالة نكون كمن يكلف الأشياء ضد طبيعتها ، أو كمن يحاول أن يمنع الحياة من الحركة والنشاط ، وهما من طبيعة الحيـاة أولا ، ثم هما

وسيلة للحياة ثانيا ، والغاية من الحياة ثالثا • فوسيلة الاطراد فى الحياة هو أن تنشط هذه الحياة وتتحرك ، ثم الغرض من الحياة كما نراها هو أن تصل الى درجة معها يتجه نشاطها الى الخير والجمال لتستمتع بالحياة •

فالتفلسف هو نوع من المران العقلى ، ونوع من النشاط الضرورى لنماء العقل واتساعه وشموله ، بحيث يصبح أقدر على اسعاد الكائن أو مساعدته على أن ينسجم مع الحياة فى مجموعها • والعقل لا ينمو ويتسع أفقه وتزيد كفايته الا بمعالجته لهذه المشاكل ، ومحاولته أن يستوعبها ويفهمها ويجد لها حلا معقولا يستريح اليه • ولولا أن العقل مفطور على أن يعالج هذه المشاكل ؛ لما توصلنا الى مثل هذه النتائج العلمية التى توصلنا اليها •

ومحصل القول ، أنه برغم نفور العامة من التفلسف ورميهم للفلسفة بجميع النقائص وتشككهم فيها ، ومحاولتهم أن يوقفوا الانسان عن البحث فى القضايا الكبرى هذه ، برغم هذا كله فان الناس جميعا من عامتهم الى خاصتهم يتفلسفون ، وان كان بعضهم لا يسلم أنه يتفلسف •

الباب الثاني

قضايا الفلسفة

الفصل الأول

القضايا الفلسفية

للفلسفة ثلاث قضايا كبرى تحاول أن تعالجها من قديم الزمان ولا زالت مكبة على هذا العلاج ، وهذه القضايا الكبرى هي :

١ ـ قضية الوجود .

٢ ـ قضية الخير والجمال .

٣ ـ قضية المعرفة .

فالقضية الأولى ، هي : « ما الحقيقة ؟ » والثانية : « ما الخير والجمال ! » والثالثة : « كيف نصل الى هذه الحقيقة أولا ؟ وهل نستطيع الوصول اليها ثانيا ؟ » .

والسبب في ظهور التفكير الفلسفي هو أن الانسان من فجر التاريخ لم يكن مطمئنا الى الظواهر الطبيعية ، والأحداث اليومية كما تصل اليه عن طريق الحس ، كان يشاهد تعدد الأشياء والإختبارات وتباينها بتباين الظروف

التى تحدث فيها ، وبتبـاين الأشـخاص الذين يختبرونها ويتصلون بها عن قرب ، يولد الطفل مثلا رضيعا ضعيفا • فتعتنى به أمه وتطعمه وتحميه وتدفع عنه الأخطار ، وهو فى حياته الأولى كتلة من اللحم تنفعل وتتأثر بالبيئة المحيطة به ، يمرض ويصح ، يضـحك ويصـيح ، يلعب ويتحرك ، ولكنه انسان على كل حال ، لا يعقل كما نعقل ، ولا يتصرف كما نتصرف لأنه لا يستطيع ، ولكنه انسان على كل حال •

ثم يكبر هذا الكائن الحي ويخرج الى الطرقات ويباشر نـوعا من الحيـاة لا نبـاشرها ، ويسـتجيب للبيئة بشـكل لا نستجيب به ، يبكي حيث لا نبكي ، ويضحك حيث لا يخطر على بالنا آن نضحك ، يفرح ويسر لأنه صبى صغير ، ولكنـه انسان على كل حال ، أو نزعم نحن أنه كذلك • وما يزال يكبر وتتغير نظرته للحياة ، ويتغير نشاطه فيها فيكب عـلى الدرس فتى ، ويحصل على قسط من المعارف المدرسية شابا ، ثم يزج بنفسه فى دائرة الأعمال رجلا • يتزوج وينسـل أطفالا مثله الى حد محدود ، ويعتنى بهم كما اعتنى آخرون به ، يعولهم ويربيهم ويعدهم لجميع الأدوار التى مر بها ، عالما أنهم سوف يمرون فيها كما مر هـو فيهـا ، وسـوف يختبرون كما اختبر ، ويجوزون أطوار الحياة التي جازها، ثم يشيخ صاحبنا ويموت •

كان الأقدمون يشاهدون هذه الظواهر ويستوعبونها ويجتررونها ، ثم يسألون أنفسهم : ما أصل هذا ، وما معناه وغايته ؟ أين هو الانسان في جميع هذه الأدوار ؟ هل الانسان هو الطفل أم هو الفتى ؟ أم الشاب ؟ أم الشيخ ؟ أهو الرفات

الذى يوضع فى بضع أقدام مسطحة من الأرض ؟ هل الانسان شيء من هذا ؟ أم هو جميع هذه الأشياء ؟ هل هو جسم مادى فى حيز من المكان ؟ أم هو فكرة ؟ أم هو حالة من الحالات ؟ وعلى الجملة فنحن الآن على أبواب الفلسفة ، وعلى أبواب قضية الوجود بصفة خاصة ·

ولكن قبل أن نلج هذا الباب ، يحسن بنا أولا أن نعالج قضية الخير والجمال بكلمة ؛ لأنها فى الواقع تتصل بالموضوع الذى سنبحثه اتصالا وثيقا يغرينا بالاطالة فيها ، ونحن لا نرغب فى الاطالة الآن ، وانما لا نكون مغالين اذا زعمنا أن هذه القصة فى مقدمة قضايا الفلسفة أهمية وخطرا ، والواقع أن الفلسفة الأمريكية (Pragmatic Philosophy) أو البراجماتية تضع هذه القضية فى المكان الأول من تفكيرها ، لا بل هى المحور الذى تدور عليه البراجماتية · ومع هذا كله نريد أن نعرفها الآن بكلمة بسيطة ؛ لكى نتفرغ للقضيتين الأخريين اللتين دارت حولهما النظريات الفلسفية من قديم الزمان ، ألا وهما قضية الوجود وقضية المعرفة ، وبخاصة الأخيرة منهما · ولذلك ؛ نتقدم بالكلمة البسيطة التالية عن قضية الخير والجمال (Axiology) .

نقول ان هذه الزهرة جميلة ، وان هذه المرأة جميلة ، وان هذا الضرب من الأخلاق جميل ، وان شروق الشمس جميل · وان الصبر جميل ، نقول عن هذه الأشياء وعن مثات غيرها انها جميلة ، والذى يقول هذا الكلام هم الناس بالطبع ، والناس يقولونه لأن لهم عقلا ، ولأن لهم حسا ، وبهذين الطريقين يفهم الناس الجمال مثلا أو يحسونه ، أو

يفهمونه ويحسونه معا ، فعندنا هنا طرفان أو ثلاثة أطراف في الموضوع ، وهذه الأطراف الثلاثة هي بالذات ما تعالجه الفلسفة .

قد يحتمل أولا أن هذه الأشياء التي نزعم أنها جميلة فيها خاصية أو ميزة ، أو صفة كامنة فيها لا توجد في غيرها ، وهذه الصفة هي ما يجعلنا نحس هذا الاحساس اللذيذ المحبوب ويحملنا على أن نحكم عليها هذا الحكم ، وهي أنها جميلة ، وبمعنى آخر هذا الجمال الذي نتكلم عنه كل يوم قد لا يكون شيئا سوى حالة من حالات هذه الأجسام، أو الأشياء أو الاراء ، بحيث لو انعدمت هذه الأشياء لانعدمت بالتبعية فكرة الجمال هذه ، وكأنها تشبه الطول والعرض والثقل في الأجسام بحيث لو اندثرت هذه الأجسام، اندثرت معها هذه الخواص التي تلازمها .

وقد يحتمل ثانيا أن هذا الجمال الذي نصفها به له وجود خارجي مستقل عن هذه الأشياء ، فمتى أفاض عليها من جوهره أو من نفسه ظهرت جميلة ، وان امتنع عن الباسها هذا المظهر أصبحت قبيحة ، قد يجوز أن يكون الشأن في جمال هذه الأشياء كالشأن في ألوانها ، فاللون في شيء ينتج من أن الشمس تصب ضوءها على الأجسام فتظهر الأجسام بهذه الألوان التي نشاهدها بها ، بحيث لو انعدمت الشمس أو احتجبت واحتجب ضوؤها ؛ لأصبحت هذه الأشياء بغير لون على الاطلاق كما هو الحال في الليلة الحالكة السواد .

وقد يمكن ثالثا وأخيرا أن تكون هذه الصفة أو الجمال من صنع العقل الانساني لا غير ، فلا وجود لها خارجيا على الاطلاق • ويكون فى هذه الحالة اننا عندما نقول ان هـذا الشيء جميل ، يكون الجمال ليس شيئا مستقلا قائما بذاته له وجود في نفسه ، وانما هـو وصف لاحسـاس يحس به انسان معين كالألم والظمأ • فكأني عندما أقول ان هذا الشيء جميل ، أصف احساسى أنا أو أصف الأثر الذى فى نفسى ، والذى لا علاقة له بالشيء الذى نقول عنه انه جميل • واذا كان الأمر كما ذكرنا يحتمل أن يكون الشيء الواحـد جميلا وقبيحا فى نفس الوقت ، جميلا عند انسان ، وقبيحا عنـد آخر ، أو جميلا عند انسان معين فى حالة معينة ، وقبيحا عند نفس هذا الانسان فى حالة أخرى معينة ، وفى هـذه الحالة الأخيرة يكون الجمال من وهم الانسان فقط ، بحيث لو كانت طبيعته بغير ما هى عليه الآن ، لا نعدم الجمال من الأرض ولاستوت الأشياء جميعها فى هذه الخاصية •

والفلسفة معنية بدراسة هذه الفروض الثلاثة • فمن عملها أن تبحث فى هل للجمال وجود مستقل عن باقي الأشياء؟ أو هل هو من صنع الأشياء نفسها ؟ أى فى جوهرها • فهـو حالة من حالاتها أو هو وهم وخيال مرتبط بتكوين الانسان بهذا الشكل وبهذه الكيفية ، فهـو مضـطر الى أن يستجيب للأشياء بهذا الشعور وهذا الاحساس • ان شاءت له حالتـه قال ان هذا الشيء جميل ، وان شـاءت قال عن هـذا الشيء نفسه انه قبيح •

وهكذا الحال مع الشق الثانى من هذه القضية وهو الخير • فقد يمكن أن يكون له وجود ذاتى مستقل عن الأشياء وعن شعور الانسان واحساسه ، وقد يمكن أن لا يوجد الا فى مخيلة الانسان وفى وهمه • وعلى النتيجة التى نصل اليها فى هذه القضية يتوقف الشيء الكثير فى نظريات الفلسفة أولا ، وفى الحياة الاجتماعية ونظمها ثانيا • فالبحث فى هذه الأشياء ليس نظريا فقط ، وانما له نتائج بعيدة الغور فى حياتنا اليومية كأفراد وكجماعات ، وعلى الحكم فيها يترتب الكثير من شئون الحياة والعمران •

وتظهر قيمة هذه الدراسات بالأكثر عندما نتوجه بها الى ميدان الخير ، وباب الفضائل والأخلاق منه على الخصوص، فى هذا الباب تتشعب الأساليب والطرائق والغايات بتشعب الاتجاهات الفكرية فى الباحثين ، وندرس فيما ندرس من هذا الباب تصرفات الانسان لا من حيث ماهيتها وحقيقتها . ولا من ناحيتها النظرية ، بل من ناحية أثرها وغايتها وفائدتها • وبمعنى آخر ليس من وجهتها العلمية ، وانما من الوجهة الفلسفية ، ليس من ناحيتها الوصفية كما يفعل علم النفس ، ولكن من جهة قيمتها (Its value) . .

يذكر القارىء بالطبع أنه عندما كان طفلا كان أولياء أموره ينهونه عن بعض التصرفات ، ويحبذون له بعض التصرفات ، فلابد أن يكون قد قيل له لا تكذب • ولابد أنه شعر يوما من الأيام أنه حر فى أن يكذب ، وربما قد كذب، ثم ربما يكون قد نال عقابه على هذا الكذب بشكل من الأشكال • هذا شيء يحصل كل يوم ونشاهده كل لحظة ،

فليس فيه شيء جديد • وفى الأغلب أن بعضنا قد ارتكب بعض الأغلاط الأخلاقية كالكذب والسرقة والتلفظ بالألفاظ القبيحة ، ويغلب أيضا أن نكون قد نلنا جزاءنا الحق عليها • ثم قد يحدث أن يسأل الطفل أباه فى ساعة صفو : « لماذا لا أكذب يا أبت ؟ لماذا أنا مطالب بألا أكذب؟» وهذا السؤال بالطبع هو فى صميم الفلسفة ؟ لماذا نحن مطالبون بنوع معين من السلوك ، ولماذا نحن ممنوعون من نقيض هذا الضرب من السلوك ؟

هنالك فروض متعددة لهذا السؤال ، وقد تخطر للفرد أجوبة متباينة لهذه المعضلة ، فأيها أصح ، وأيها أقرب الى الحقيقة ؟

هنالك حلول مقترحة لهذه المعضلة التى أثارها هذا الطفل :

١ ــ يرى المنفعيون (Utilitarians) ــ بنتام وميل وأصحابهما ، والأبيقوريون من قبلهما ــ أن هذا الخير ليس له وجود مستقل بعيد عن تفكير الانسان • هذا الخير هو فى الواقع من خلق العقل الانسانى ، ولذلك فليس فيه قوة ملزمة لنا ، ولسنا مطالبين أن نتبعه دون بحث أو روية ، وعلى ذلك يكون هذا الخير وسيلة أو أداة وليس غرضا، هو شيء نستعمله استعمالا وقتيا لغاية نسعى اليها ، ومن هذا ينتج أيضا أننا اذا استطعنا أن نصل الى أغراضنا عن طريق آخر غير ما اصطلح الناس على تسميته خيرا ، وجب علينا أن نفعل ذلك، ويكون هذا هو الخير فى نظرهم • فكأنه يجب علينا أن

نستعمل الشر والقبح فى الوصول الى هذه الأغراض ، التى نحن مهمومون بتحقيقها اذا اقتضت الضرورة ذلك •

فاذا كان الخـير ليس غاية ، فما الغـــاية اذن ؟ اذا كانت الفضيلة والأخلاق وسيلة لشىء آخر ، فما هذا الشىء الآخر الذى يعده المنفعيون الغـاية والغرض اللذين يجب ان نسعى اليهما ؟ هذا الشىء أو هذه الغاية هى المنفعة ، كما يستدل عليها من الكلمة التى نطلقها عـلى هـذا النوع من الفلسفة •

وأول من شرع هذه الفلسفة ، أو هـذه النظرة للكون هو آرسطبس (Aristippus) أحد تلاميذ سقراط ، وقصـد منها عندما وضعها أصلا أن تكون الغاية من الحيـاة هـــذه اللذة الجسمية أو البدنيـة ، الأكل والشرب ، والعـلاقات الجنسية ، والراحة البدنية ، وتجنب الأمراض ، وبالاختصار الاستمتاع بالحياة استمتاعا ماديا ، والتلذذ بجميع أطايبها المادية ، وتجنب جميع أخطارها ، فالغاية من الوجود هـــو الفرد الانسانى دون أى شىء آخر •

ثم أتى بعده أبيقور (Epicurus) ونقح هـذه الفكرة ، ورفع مستواها عن الأمور المـادية الحيوانيـة الى المسـائل العقلية ، فالغاية من الحياة عنده اذن هى أن يعيش الفرد عيشة عقلية راقية مهذبة ، ويوجه كل جهوده الى الاستمتاع العقلى بالجمال وبالخير وبالحق ، بعيدا عن القلق والخوف والاضـطرابات النفسـية التى تنجم عن الاهتمام بالناحيـة المادية من الحياة •

وبقيت هذه الفكرة أو هذه الفلسفة ـ فلسفةالمنفعة ـ تتقلب على أوجه كثيرة متباينة تتأرجح بين الاستمتاع المادى والاستمتاع العقلى زمنا طويلا ، ولكنهـا لم تفقـد هـذه الخاصـية ، وهي أنها ظلت تدور حول حياة الفرد ولذته ، وظل الفرد الانسانى هو الغاية من الحياة الى أن أتى بنتام وميل وحولاها الى الناحية الاجتماعية ، فأصبحت الغاية من الحياة ومن الكون ليس الفرد وانما الجماعة البشرية ، ليس سعادتي وسعادتك وسعادة فلان ، وانما سعادة المجموع أو أكبر عدد ممكن من مجموع النـاس فى كل مكان • فالخير ليس اذن ما يجلب لك أو لغيرك السعادة ، وانما ما يجلب السعادة لأكبر عدد من الناس ، وكلما كثر عدد الناس الذين يسـعدون من أى تصرف معين ، كان هـذا التصرف خـيرا وفاضلا ، وبعبارة أخرى أن الفضيلة هي الوسيلة للسعادة • وتكون أخلاق الفرد قويمة وبالغة درجة عالية من الفضائل والكمال ، متى كانت تصرفاته تؤدى الى سعادة عدد كبير من الناس ، ويجب أن نلاحظ هنا أن الغاية من الحياة ـ حيـاة الفرد وحياة الجماعة ، والغاية من الوجود أيضا ـ انما هى السعادة وليس شيئا آخر •

ولكن نظرية المنفعة فى الفلسـفة ضـاعت قيمتها ، وذهب رونقها ، وطرحت جانبا الى حد محدود ، ولم تعد هى النظرية الفلسفية الغالبة ، والشيء الذى ذهب بأهمية هذه النظرية هو علم النفس وتجاربه المتعددة والحقـائق التى اكتشفها ، فان هذا العلم قد اكتشف بما لا يدع مجالا للشك، أن الدوافع النفسية لتصرفاتنا ليست السعادة أو ما يشـبه

السعادة • نحن لا نسعى فى الأرض وننشط ونشقى للحصول على السعادة ، وانما ننشط فى الواقع للحصول على أشياء معينة ، ونرغب في أشياء معلومة ، فأنت ترغب فى سيارة ذات مقعدين مثلا ، وبعد أن تحصل عليها ، تشرع تصبو الى شىء آخر كأن تحصل على السلطة ونفاذ الكلمة ، ثم تأخذ في تكديس المال ، وهكذا تبتدىء الحياة بسلسلة من الرغبات يأخذ بعضها برقاب بعض ، لا تنال احداها حتى تضنى نفسك فى الحصول على الأخرى •

هذا من جهة الدوافع الداخلية لتصرفات الفرد ، وأما من جهة أقدار الأشياء وقيمتها ، فنحن لا نضع السعادة فى مقدمة القائمة ، لا بل نفضل عليها الاخلاص والشجاعة والتضحية والخدمة العامة ، والمواهب العقلية ، وبالاختصار ان النظرية الفلسفية فى السعادة كغاية وغرض للحياة قد أخذت تنهار من أساسها ، لأن السيكولوجية الحديثة قد اكتشفت أن الناس تتصرف بمقتضى دوافع ونوازع نفسية أخرى غير السعادة •

٢ ـ وهنالك فلسفة أخرى تزعم أن الانسان يتصرف بمقتضى القوانين الأخلاقية ، لأن التصرف المبنى على هذا الأساس قمين بأن يصل به الى تحقيق الغاية من حياته ـ أى الى النماء المتماثل ، وتفتح كل المواهب التى تكمن فى طيات النفس الانسانية وتأدية الرسالة التى وجد من أجلها الانسان ، قد لا نعلم هذه الرسالة على التحقيق ، وقد لا يكون الفرد منا شاعرا أن للحياة غاية على الاطلاق ، ولكننا نعلم شيئا واحدا كل العلم وهو أن الفرد منا ينشط ويتغير ويتطور الى حالات متباينة ، فهذا التغير هو فى الواقع

محاولات للحياة ، انها تحاول أن تصل الى شيء أو الى حالة ٠ فينا دوافع ونوازع وينابيع للحياة تحملنا معها وتسير بنا في الزمان وفي المكان أيضا ، فالى أين كل هذا ؟ لابد أن يكون لكل منا احتمالات معينة ، لابد أن يكون هناك شيء كامن يريد أن يتحقق في العالم الواقعي ، لابد أن تكون الحياة فينا مزمعة الوصول الى شيء ٠ هذا النزوع أو هذا التوجه هو الغرض من هذه الحياة ، وتحقيق الغاية التي ترمي اليها طبيعة الحياة فينا هو الغاية من الحياة ومن السعي ، وهذا ما يسمونه (Energism) (أو النشاط) ، فالخير هو في هذا النشاط الفكري والبدني ، هو في الكشف عن الحقائق العلمية ، وفي الخلق والاختراع والريادة والمخاطرات ، أو هو الاقبال على الحياة بكل جارحة فينا والانسجام معها أيضا ٠

٣ ـ وقد نكون مطالبين بنوع معين من التصرف والسلوك ليس للمنفعة ، أو لأن فينا حافزا في حيز الامكان يريد أن يتحقق في عالم الوجود ، وانما نحن نتصرف هكذا لأن عندنا نوعا من الالهام الخفي Intuitionism يريدنا على الأخلاق ٠ وهنالك في قرارة النفس مبدأ أزلي أساسي في تكويننا هو مبدأ الفضيلة ، ولسنا نجد من أنفسنا رضاء أو قبولا للشر والنقائص ، يتبين هذا الأمر في اختباراتنا اليومية ، فاننا في حياتنا العادية لا نجد صعوبة مطلقا في فهم الخير من الشر ، فالحدود بينهما واضحة ظاهرة المعالم لأول وهلة بالبديهة أو بالالهام ٠ في قرارة النفس صوت يقول : لا تكذب ، ولا تسرق ، ولا تتسبب في الحاق الضرر

بالغير ، نحن لا نصل الى هذه القضايا بالمنطق والعقل . أو بالاختبار والتجربة ، وانما نجدها فى قرارة نفوسنا، نجدها مستقرة فيها من نفسها وبحكم طبيعتها ، هى صوت الهى خلق معنا يوم خلقنا ، وتدرج معنا فى أطوار الحياة المختلفة ، ليس من صنعنا أو بارادتنا أن نسمع هذا الصوت ، ولكنه يطن فى نفوسنا من تلقاء نفسه عندما نقدم على المعاصى .

وهذه النظرية فى الفلسفة ــ نظرية الالهام (أو اللقانة) ــ لا تتكلم عن قيمة الأشياء أو أقدارها ، لا تبحث فى أفضلية التصرف الأخلاقى ، وأسباب هذا التفضيل ، لا تبحث فى لماذا كان الكذب محرما على الفرد مثلا ، وما الاضرار التى تنجم عن الكذب والتى تلحق بالفرد وبالمجموع ، ليس معنى هذا أنها تغمض عينها عن هذه المشاكل وأمثالها ، أو تتقاعد عن البحث فى الغايات والأغراض ، فهذا البحث الفلسفى يهمها وتستريح له ، لا بل تشجعه وتعين عليه ، وانما معناه أنها تزعم أن العقل الانسانى يعرف بالبديهة وبالالهام ما الخير ، وما الشر ، ففى طبيعة النفس شيء ملزم باتباع الخير ، صوت الهامى يقول لك : « لا . لا . لا ابتعد عن هذا التصرف » . وهذا الصوت (أو الضمير) لا يعرفك لماذا يجب أن تبتعد عن التصرفات البعيدة عن الأخلاق ، ولا يقدم لك الأسباب المنطقية المعقولة التى تبرر هذا الامتناع ، لأن على العقل أن يبحث فى هذه الأسباب ، وقد يصل الى غايته هذه أو لا يصل ، وانما الشيء الذى لا يأتيه الشك بأية حال هو وجود الالزام فينا وجودا أصليا ليس من عملنا أو من صنعنا .

ويرجع الفضل في أهمية هذه النظرية الفلسفية وذيوعها الى كانت (Kant) الفيلسوف الألماني الكبير ، فان فلسفته الأخلاقية مبنية على الشعور البديهي بالواجب ، والواجب عنده هو شيء أساسي في تكويننا ، لا نستطيع أن نطرحه من نفوسنا ، ونحن لا نملك الا أن نصغي الى صوت الواجب في كل حالة نزمع فيها السلوك والتصرف ، لا يني هذا الصوت يذكرنا في جميع الحالات بما يجب أن يعمل وما يجب أن يترك ، أما كيف عرفنا أن هذا ما يجب أن يعمل في هذه الحالة بالذات ، وأما هذه المعرفة ذاتها فلم تنتج عن الاختبار أو عن التفكير ، وانما نتجت عن شبه اتصال خفي بيننا وبين الحقيقة العظمى في هذا الكون ، أو ان شئت فقل انها نتجت عن حاسة سادسة فينا ، من شأنها أن تحس بالفروقات الأخلاقية ، وتوصل الينا هذه الفروقات ، شأنها في هذا كالشأن مع العين التي تحس بالفروقات الضوئية وتنبهنا اليها مع فرق مهم ، وهو أن حكمنا في المرئيات مبني على اختباراتنا الماضية ، أو على المقارنة بين ملايين المرئيات التي مرت علينا في حياتنا اليومية ، وأما الحكم في القضايا الأخلاقية (Moral issues) فمبني على الالهام ٠

ويجب أن نلاحظ هنا فرقا مهما آساسيا بين هذه النظريات الثلاث ، فالنظريتان الأوليان تبنيان حكمهما في الفضائل علىالاختبار والمشاهدة ، فهي مبنية على ما اكتسبناه في حياتنا وما تعلمناه ، وأما نظرية كانت ــ أو نظرية الالهام هذه ــ فانها لا تسلم بهذا ، بل تزعم أن المعرفة في

القضايا الأخلاقية انما تأتينا بطريق الهى غير مفهوم ، عن طريق اتصال خفى أو صوفى بيننا وبين الله • فالحقائق العلمية والمعارف العامة والقوانين الشاملة ، كل هذه تأتينا عن طريق الاختبار والدرس والحياة ، وأما القوانين الأخلاقية فلا تأتينا من اتصالنا بالعالم الخارجى ، ذلك لأنها موجودة فينا أصلا •

من هذه الكلمة البسيطة فى قضية الخير والجمال ، يتبين لنا أثر الدراسة الفلسفية فى حياتنا العملية ، وينتفى من أفهامنا ـ على ما نظن ـ الزعم بأن هذه الدراسات عبث لا طائل تحته ، أو أنها مضيعة للوقت فى غير طائل ، لأنها مثلا دراسات نظرية بحتة أو تفلسف عقيم • ظهر لنا الآن الاتصال الوثيق بين نظرة الانسان العامة فى الحياة ، وتصرفاتنا المعيبة ، ونشاطنا الفاشل ، وتبرمنا بالحياة . والخيبة والفشل اللذان كثيرا ما يحيقان بمشروعاتنا ، مرجعهما الى فلسفتنا الخاطئة فى الحياة •

وبما أن الغرض من هذا الكتاب هو شرح نظرية البراجماتية (Pragmatic Philosophy) ، يحسن بنا أن نتعرف حكم البراجماتية فى هذه القضية ، أو على أقل تقدير نشير الى موقفها من قضايا الخير والجمال بطريقة موجزة نوعا ؛ لأننا سوف نضطر أن نعود اليها بطريقة مطولة فى فصل تال•

فأولا وقبل كل شىء تعترض البراجماتية (Pragmatism) على الطريقة الخفائية ، أو على الاتصال المباشر بين الانسان والله فى المسائل الأخلاقية ، وتقول لماذا اللجوء الى البأس

الحقائق الأخلاقية لباس الخفاء والطرائق الملتوية البعيدة ؟ ألأن الأخلاق مهمة نذهب فنبحث لها عن شكل سماوى علوى نلبسها اياه ؟ لماذا لا نفترض فيها فروضا طبيعية معقولة قريبة من أفهامنا ، تتصل بحياتنا وبنشاطنا وبنظمنا الاجتماعية التى نعيش فيها ؟ لقد كان كلارك ماكسويل مصيبا كل الاصابة عندما قال : « ان من قبح الذوق العلمى أن نختار الطرائق الملتوية المعقدة لتفسير الظواهر اذا كانت الطرائق البسيطة تؤدى الغرض المطلوب » ٠

لماذا نذهب نبحث فى علاقات خفية بيننا وبين الحقيقة العظمى اذا كان الاختبار اليومى كفيلا بتفصيل قضية الأخلاق ؟ فالمعرفة الأخلاقية تأتى الينا كما تأتى جميع المعارف الأخرى عن طريق الاختبار والحياة ٠ فنحن نشاهد مثلا أن الفضيلة هى اسم يطلق على مجموعة من التصرفات والنيات والاتجاهات الفكرية عند الفرد ، وليست الفضيلة شيئا مستقلا عن حياتنا ، أو كائنا غريبا الهيا مقدسا يقطن فى أحد جوانب الكون ، وليس شيئا يعبد ويشتهى ويتأمله الانسان ويتعجب له كمثل (بضم الميم والثاء) أفلاطون ، التى لا هى بالمادية فنحسها ونتعامل معها ، ولا هى سهلة المنال فنتناولها لنستعملها فى حياتنا اليومية ، وانما هى شىء نظرى لا يقدم ولا يؤخر فى حياتنا الراهنة ٠

والواقع أنه ليس لنا فى هذا الكون الذى نعيش فيه الا هذه الحياة التى نحياها ، فكل ما يتصل بها ويؤثر فيها ويخدمها أو يعطلها هو الذى نتناوله بالبحث ، وأما تلك النظريات الفلسفية ، مثل الفكرة المطلقة (Absolute Idealism)

التى تؤله الكون ، وتفترض وجود الحقيقة الكبرى (Absolute Reality) فى مكان قصى من هذا الكون ، تشرف على الانسان من عل وتضحك من تصرفاته السخيفة ، فهذا الوضع الفلسفى للكون لا يرضى فلسفة البراجماتية ، لأن هذه الفلسفة ترى فى تنوع الحياة وتعدد الاختبارات الجواب الشافى لكل هذه المشكلات •

ففى المسائل الأخلاقية التى نبحث فيها الآن ، ترى هذه الفلسفة أن هذا الشعور العميق بالواجب ، هذا الاحساس الملزم الذى نحس به تجاه الأمور الاخلاقية ، انما هو نتيجة تقلبات الحياة • ليس هذا الشعور الموجود فينا منبعثا عن اتصال خفى أو غير خفى بيننا وبين عالم مجهول، وانما هو قد انبنى حجرا على حجر على مر السنين فى الجنس الانسانى • والواقع أن هذه النظرية لا تنطبق على الأخلاق دون سواها ، بل تنطبق كذلك على الحق نفسه ، فليس للحق وجود مستكمل منذ الأزل ، وانما هو يتكون وينبنى ، وهو فى طريق الوجود الآن ، انه ينمو ، ويترعرع •

فاذا سألت : « ما الحق ؟ » ، أجابتك الفلسفة النظرية ان هذا الحق شيء موجود مستقل عن الانسان ، وان حكم الانسان على الأشياء التى تحيط به يكون خطأ أو صوابا بمقدار انطباقه على مقاييس هذا الحق أو بعده عنه • فكأن الحق عند هؤلاء عبارة عن متر طولى ، نتناوله ونضعه بجانب الأشياء التى نريد أن نقيسها ، فاذا انطبق عليها كانت أطوال هذه الأشياء معلومة القدر ، واذا لم ينطبق عليها كنا فى جهل تام بطول هذه الأشياء ، وعلى كل حال هذا المقياس

له وجود مستقل عنا ، وهو موجود سواء استعملناه في أغراضنا أو لم نستعمله ، ثم تعجز هذه النظرية الفلسفية عن وصف هذا المقياس أو هذا الحق .

أما الفلسفة البراجماتية Pragmatism ، فتزعم أننا نحن الذين نخلق هذا المقياس باتفاقنا على قبوله كمقياس نفض به المنازعات بيننا ، أو بعبارة أخرى نحن الذين نصطنع هذا الحق بحياتنا ومعيشتنا وبتصرفاتنا في هذه الحياة ــ فكل يوم نحياه ، وكل اختبار نجوزه ، وكل نشاط نؤديه . كل هذه جميعها وآلاف العوامل الأخرى التي تعج بها هذه الحياة هي التي تخلق الحق ، وهي التي يصح أن تسمى حقا .

فالأخلاق اذن هي نتيجة لتصرف الفرد منذ القدم ، هي نتيجة لما عرف الفرد بالاختبار أنه صالح ونافع ، وأنه معين للحياة على أغراضها . أتى على الفرد حين من الزمن وجد فيه بالاختبار وبالتجربة أن بعض أنواع السلوك أفضل من البعض الآخر ، فدرج عليها وحمل الآخرين بكل ما يستطيع من قوة على أن يدرجوا عليها ، ثم قبلها جزء كبير من الناس ، وطالبوا الفرد باتباعها ، فخضع لها الفرد اما عن خوف أو عن رغبة ، وظل الحال على هذا المنوال آلافا من السنين الى أن تمكنت فينا هذه الميول وتأصلت فينا هذه الاتجاهات الفكرية ، وأصبح اتباعها واجبا يحس به الفرد وان كان لا يتبعها لأن له مصالح في عدم اتباعها ، ولكنه يحس بها في قرارة نفسه على كل حال . ومن هنا نشأت هذه الغريزة أو هذا الشعور الطبيعي ــ الشعور بالواجب ، فأتى كانت (Kant) وأصحابه

وفرضوا أنه نتج عن اتصال خفي بيننا وبين كائنات أخرى، والواقع أنه نتج عن مجمـوعة الاختبـارات التى مرت بهـا الانسانية فى هذه الأحقاب الطويلة •

هـذا من جهة مصـدرها ــ أى مصـدر هـذه الدوافع الأخلاقية فينا ــ وأما من جهة صفة الالزام التى تصاحبها ، أما من جهة خضوعنا لهذا الصوت ــ صوت الضمير مثلا ــ فهو لم ينشأ عن خاصيتها الكونية ، أو عن مصـدرها السـماوى الخارق للطبيعة ، وانما لها صفة الالزام أولا لأنهـا بعيـدة الغور فى نفوسنا ، وثانيا لأن الحياة نفسها، مجموعة الدوافع الحيوية فينا ، تتطلب منا أن نفعل أقصى ما نستطيع فعله للتقدم والاطراد والسير بالحياة الى حيث تريد أن تسـير ، فلو أخطأنا التقدير وأسأنا التصرف نعطل الحياة ونعرقلها ، لا بل قد نفسدها ونقضى عليها ، قد نخرب هذه الدنيا التى نعيش فيها اذا لم نحسن استعمالنا لهذه الحياة ، وعلى هـذا فنحن نشعر بأننا مطالبون بأن نتصرف على أحسن طريقـة ممكنة ، وننشط فى الحياة بالطريقة التى تعين هذه الحياة ، وما هذه الطريقة الا الطريقة الأخلاقية ، طريق الفضائل ، فهى الطريق الوحيد الأمين لتقدم هذا العالم •

وبالاختصار ، ففلسفة البراجماتية Pragmatism تثور على أية محاولة يراد منهـا الهروب من الحيـاة الراهنـة ، من الاختبارات الحادثة الآن ، أى من الحوادث اليومية (events) الى التعمية وتفسير مظاهر الكون بطريقـة عليهـا مسـحة الأزلية ، أو مسـحة الغرابة عن هـذه الحيـاة التى نحسبها ونشاهدها •

لا نزعم أننا قد استقصينا قضية الأخلاق . او قضية الجمال والخير الى منتهاها ، وانما كل ما أردنا أن نصنعه هنا هو أن ندل على موضع القضية وبعض الحلول المقترحة لها . ثم ننتقل الى الموضوع الأصلى لهذا الكتاب، لأننا اذا استرسلنا في البحث تشعبت أمامنا المسالك ، وأصبحنا بعيدين كل البعد عن أن نكتب في البراجماتية ٠

وعلى كل حال فالمقصود من هذا الفصل هو تبيان أبواب الفلسفة ، وهى :

١ ـ باب الوجود أو حقائق الموجودات ٠

٢ ـ باب الخير والجمال ، أو معنى الكون ٠

٣ ـ باب المعرفة ٠

والبابان الأولان مهمان كل الأهمية ، ولا يمكن للفلسفة أن تغفلهما ؛ لأنهما في الواقع موضوعا الأبحاث الفلسفية جميعها ٠

ولكننا سنغفلهما كل الاغفال فى هذا الكتاب ، لأن البراجماتية لم تأت فيهما بشىء جديد يصح أن تباهى به جميع الفلسفات ، وانما الواقع أن أهمية البراجماتية هى فى رأيها فى المعرفة وفى الحق وفى معنى الحق ، وعلى ذلك فسنقصر بحثنا فى هذا الكتاب على هذه النواحي فقط دون نظريات الوجود أو الخير والجمال ٠

نريد أن نطيل قليلا فى نظريات المعرفة ؛ لأنها هى الأصل الذى قامت عليه فلسفة البراجماتية ، فاذا لم يكن القارىء ملما بتطور التفكير الفلسفى فى قضية المعرفة ؛ يتعذر عليه أن يفهم فلسفة البراجماتية ٠

فالى قضايا المعرفة أولا ٠

الباب الثالث

قضايا المعرفة

الفصـــل الأول

نظــرية المعــرفة

Epistimology

لقد لمسنا هذه النظرية لمسا عندما تكلمنا عن الجمـــال وعن الخير فى الفصـل السابق ، عندما حاولنا أن نبحث فى ماهية الخير ، وكانت المعضلة التى تناولناها هى : ما الخـــير وما الجمال ؟ وهل لـــكل منهما وجـــود خارجى مســـتقل عن مشاعر الانسان وتفكيره ، كما توجد النجوم والكواكب مثلا، أم هما حالة من حالات العقل الانسانى كالحـــزن والـــفرح والسرور ؟ فعرضت لنا مشكلة المعرفة (Epistimology) كيف نعرف الخير والجمال · والآن نريد أن نبحثها بحثا مستقلا من حيث هى ، بغض النظر عن كونها وســـيلة للاتصـــال بشىء معين ، وبعبارة أخرى لا نبحث فى معـــرفة شىء بذاته وانما نبحث فى المعرفة اطلاقا ·

ولكى يتذوق الانسان الفلسفة ، ويساهم بتفكيره فى قضاياها ويتتبع المناقشة فيها، يحسن به أن يدقق فى مدلولات الألفاظ ، ويميز بين المعانى الدقيقة · يجب ألا يعطى لشىء معنى أكثر مما يحتمل ، وبعبارة أخرى يجب أن يعرف على

التحقيق حدود البحث والى أى شىء يرمى ، أما اذا لم يعرف بالضبط ما موضوع النزاع بين النظريات المتباينة ؛ فانه يضل الطريق ، ويشعر أن الكلام يدور حول شىء لا معنى له ، ثم تفوت عليه الفائدة من هذا البحث أصلا ٠

لقد بحثنا نظرية الجمال والخير ، ما الجمال وما الخير أولا ، ثم كيف نعرفهما ثانيا ، وهذا هو نفس التقسيم الذى سنتبعه فى الميتافيزيقا ، أو علم ما وراء الطبيعة ٠ وفى هذا كما فى الجمال والخير توجد نقطتان ، وبمعنى آخر لهذا الموضوع طرفان : الطرف الأول منهما هو كيف نعرف ، كيف تصل الينا المعلومات عن هذه الدنيا ، وهل المعارف التى نشعر أنها عندنا فى عقولنا حقيقة ، بمعنى هل هذه المعارف دقيقة مضبوطة وصحيحة ؟ نقول ان الوردة حمراء مثلا ، فهل هذا الحكم صحيح ؟ هل ينطبق على حالة الوردة ؟ هل الوسيلة التى نقلت الينا هذا الاحساس صادقة ؟ وهل العقل الذى أصدر هذا الحكم مصيب فى حكمه هذا ؟ فالبحث هنا ليس فى الوردة ، وليس فى الحقائق أو الظواهر التى تحيط بنا ، وانما فى الطريقة التى تصل الينا بها هذه الاحساسات ، والتى عليها نبنى حكمنا أن هذه الوردة حمراء ٠ ففى نظرية المعرفة لا يدور بحثنا حول الوردة ، بل يدور حول حقنا فى الحكم وصلاحيتنا له ، وحول الأسس التى نبنى عليها هذا الحكم ٠

قلنا ان الطرف الأول فى الميتافيزيقا هو كيف نعرف ، وهو ما ندعوه نظرية المعرفة Theory of knowledge or Epistimology أما الطرف الثانى فهو الوجود ذاته أو (ontology) أو الحقائق

الكونية ٠ فى هذا الباب لا نبحث فى كيف عرفنا أن الوردة حمراء ، أو كيف أن هذا الرجل أطول من ذاك ، بل نبحث فى حقيقة الرجل ذاته ، وفى حقيقة الوردة نفسها ، وهل هما موجودان بغض النظر عن معرفتنا بهما ، وهل الوردة حمراء ، وهل الرجل طويل ٠ نحن نبسط هذه المسألة حتى يعرف القارىء ما نرمى اليه ، لأن الفلسفة معنية ببحث حقيقة الموجودات فى ذاتها ؟ بغض النظر عن عقلى وعقلك الذى تتناول به هذه الموجودات ٠

قد يقول القارىء ان هذا البحث عقيم لا معنى له ، لأنى أعرف أن الرجل موجود ، وأن الوردة موجودة ، وأن الأول منهما طويل لأنى أراه طويلا ، والثانية حمراء لأنى أراها كذلك ، فما الداعى لهذه الأبحاث التى لا طائل تحتها ؟ ثم مهما قالت الفلسفة ، ومهما فعلت فانها لا تستطيع أن تقنعنى بأنالرجل والوردة اللذين أراهما أمامى غير موجودين أولا ، وأن الرجل ليس طويلا ، والوردة ليست حمراء ٠ ومهما فعلت الفلسفة وناقشت ، فانى لا أصدقها ، بل أصدق عينى ، فلترح نفسها وترحنى من عناء البحث ٠

قد يقول القارىء هذا الكلام أو شيئا يشبهه ، ولكن كل ما نطلبه منه هو أن يصبر وينتظر ويتتبع هذا الكلام ، فقد يرى بنفسه أن الأبحاث الفلسفية ليست عبثا ، أو مناقشات عقيمة ، وقد يغير رأيه بعد حين ، وانما كل ما نطلبه اليه هو أن يتبع المناقشة الى آخرها ٠

قلنا ان الميتافيزيقا (Metaphysics) تبحث فى أمرين : الأول هو حقيقة الأشياء حولنا ، وسنترك هذا

الآن . أما فى هذا الفصل ، فنحن معنيون بالأمر الثانى فقط وهو نظرية المعرفة (Epistimology) أو كيف تصل الينا المعلومات والمعارف عن الأشياء حولنا ، كيف نعرف الحقائق أو الأشياء حولنا ؟ هل فى الانسان قوة أو ملكة ، أو شىء يلقى اليه بهذه المعلومات القاء ، ويعلمها له تعليما ؟ فيقول له : هذا كلب وهذا مكتب الى آخر هذه الأحكام ؟ أو هذه حقيقة وهذا خداع من الحواس . هل فيه هذه الملكة فيرجع اليها عند ما يستعصى عليه الأمر ؟ فلنفرض مثلا أنك سائر فى مكان بعيد عن العمران ، وقابلك حيوان لم تره من قبل ، هل عندك شىء فى نفسك ترجع اليه لتسأله عن هذا الحيوان فيجيبك الجواب الشافى ؟ وبمعنى آخر ، من أين تأتينا هذه المعارف التى نحس جميعا بأننا نملكها ؟ هل العقل يقدم لنا هذه المعارف ، أم تأتينا عن طريق الاختبار فتصل الينا أول ما تصل عن طريق الحس ــ أى النظر والسمع واللمس والشم والذوق ؟ هل تأتى الينا هذه المعارف من داخلنا ، أم من الظواهر الطبيعية حولنا ؟

نقول ان هذا الحيوان فرس ، وهذه الوردة بيضاء ، وهذه شجرة ، فهل هذه الأحكام أو المعارف أتت الينا من هذه الأشياء ؟ هل هى التى ألقت فى نفوسنا هذا الحكم أو هذه الحقائق ولم نفعل نحن شيئا سوى أن رددنا ما ألقته فى نفوسنا ؟ أم عقولنا هى التى رتبت هذه الأشياء هذا الترتيب ووضعتها هذا الوضع وأصدرت عليها هذه الأحكام ؟ هذه مسألة فيها نظر ولها وجهان أو أكثر . ومما تقدم لا نستطيع أن نعطى حكما فيها ، وانما يكفى هنا أن نثير الموضوع ،

فاذا نجحنا فى اثارته فى ذهن القارىء ، نكون قد تقدمنا شوطا كبيرا ٠

على كل حال، نعلم الآن أن هذه المعلومات التى نشعر أنها فى حيازتنا قد وصلت الينا بطريقة من الطرائق ، فهى اما أن تكون وليدة العقل الانسانى ، وهو الذى يرتب المظاهر الخارجية والدنيا المحيطة به هذا الترتيب ، ويقسمها هذا التقسيم ، ويصل بينها جميعا فيوجد العلاقات بينها ، وينسبها بعضها الى بعض فيضع هذا الشىء فى مركز السبب، ويضع الشىء الآخر فى موضع النتيجة ٠ قد يكون هذا هو الواقع والحق ، أو قد يكون أن الأشياء المحيطة بنا أو حقائق الاختبار(facts of experience)أو هذه الدنيا التى تكتنفنا من كل جانب هى التى فرضت علينا وعلى عقولنا هذه الأحكام ، هى التى أرغمت عقولنا على الحكم بأنها هى ما هى عليه ، فهذه وردة ليس لأن عقولنا هى التى حكمت بأنها وردة ، وانما هى كذلك لأن الوردة نفسها تريدنا على أن نحكم عليها هذا الحكم ٠

نستميح القارىء عذرا فى الاطالة قليلا فى هذه النقطة ؛ لأنها حجر الزاوية فى نظرية المعرفة وفى حقائق الميتافيزيقا، فعلى وضوحها يتوقف كثير من الأبحاث التالية ٠ وعلى ذلك نريد هنا أن نضعها وضعا آخر يقربها للفهم فنقول : ان هذه المسألة تدور حول هذا السؤال : « هل العقل الانسانى مرآة فقط ليس لها من عمل سوى أن تعكس الحقائق الخارجية دون تصرف أو تدخل من ناحيته ؟ أم هو كالفنان الذى يتناول قطعة الحجر ويصنع منها تمثالا جميلا منظما متناسبا ؟ أم هو

لا هذا ولا ذاك ، وانما يشبه الأديب الذى يخلق الأشخاص والحوادث والبيئة المحيطة بهذين خلقا من العدم ؟ » على الاجابة على هذا السؤال يتوقف الشيء الكثير . فلو قلنا ان العقل كالمرآة كنا من أتباع فلسفة الواقعيين ، وان قلنا ان العقل كالأديب يخلق الكون خلقا وان الأشياء لا وجود لها في ذاتها ، وانما وجودها يتوقف على العقل وحده ، كنا من أتباع الفكريين Idealists الذين يزعمون أن الحقيقة هي عقل أو فكر ، وأن المادة شيء وهمي لا وجود له • وأما ان قلنا ان العقل يكيف الحقائق الخارجية (Facts of experience) كما أن الحقائق الخارجية تكيف العقل ، وأن التفاعل مستمر بينهما ، ان أخذنا بهذا الرأى فاننا نكون من أتباع فلسفة البراجماتية ، فلسفة شيلر Schiller . وديوى Dewey ، ووليام جيمس William James ، وبابينى Papini وكثيرين غيرهم •

وعلى كل حال لا يهمنا الآن أى هذه الآراء نتبع ، أو أى هذه النظريات تتفق مع مزاجنا العقلى وطريقة تفكيرنا ، انما المهم فى الموضوع هو الخلاف على السبيل الذى اتخذته هذه المعارف والمعلومات الى نفوسنا ، وكيف أصبحنا نعيها ، هل نحن الذين ابتدعناها ؟ هل عقولنا هى التى زودتنا بهذه المعارف من تلقاء نفسها ؟ أم هى فرضت على عقولنا فرضا من الأشياء التى تحيط بنا ؟ أم وردت الينا عن طريق الحس ، بالمشاهدة والسمع والذوق واللمس والشم ؟ هذه هى القضية التى تعنينا الآن •

نعرف مثلا أن ٥×٦ = ثلاثين ، وأن الأشياء التى تساوى شيئا واحدا متساوية ، وأن النار تحرق ، والماء يغرق ،

وأن الأرض كرية الشكل ، وأن لكل نتيجة سببا ، وأن على الأرض دولة اسمها الصين ، وهكذا الى آخر هذه المعلومات المتباينة المنوعة • ونشعر أن هذه المعلومات مخزونة في مكان ما في الجسم الانساني متى شاء أخرجها وتعامل بها ، ومتى شاء نسيها وتركها في مكامنها لا يحس لها وجوداً •

فمن أين أتت هذه المعلومات جميعها ؟ ما السبب فيها وكيف وصلت الى عقولنا ؟ قد تقول اننا تعلمنا بعضها من الكتب ، واختبرنا بعضا منها بأنفسنا ، قد تقول هذا وتكون مصيبا فيه ، وقد يكفي هذا التعليل من وجهة الحياة العادية من مأكل ومشرب ولعب ، وذهاب الى أمكنة الأعمال وتأديتها • قد تنفع هذه النظرية في شئون الحياة اليومية ، لكنها لا تنفع من ناحية البحوث الفلسفية • ذلك لأن الفلسفة لا تكتفي بالأمور الظاهرة أو المظاهر السطحية ، وانما تصر على أن تصل الى الجوهر واللباب •

ولنأخذ شيئا واحدا بذاته من هذه الأشياء التي ذكرناها ، وليكن الرقم الحسابي ٥×٦= ٣٠ ، ولا نريد الآن أن نتناوله من ناحية الوجود (Ontology) ، وبمعنى آخر لا نريد أن نبحث الآن فيما اذا كانت ٥×٦ = ٣٠ حقا أم لا ، وانما نريد أن نبحث الآن في هذه القضية من ناحية نظرية المعرفة (Epistimology) فقط • فنقول : كيف وصلت الينا هذه الحقيقة (هذا بفرض أنها حقيقة وليست وهما أو أو خيالا أو أي شيء آخر)؟ وكيف وجدت سبيلها الى نفوسنا ؟ لقد قلت انك عرفتها من كتاب ، هذا حسن ، ولكن هذا الكتاب لم يكتب نفسه ، ولم يوجد في هذه الدنيا من نفسه ،

انما لابد وأن يكون قد كتبه انسان مثلى ومثلك ، فمن أين لهذا الانسان معرفة هذه الحقيقة أى ٥×٦=٣٠ ؟ هل وجدها من ضمن ظواهر الطبيعة كما نجد الأشجار والحيوانات والمعادن ، فأخذها وقدمها لنا فى كتاب ؟ آم هل اخترعها من عندياته اختراعا وتخيلها تخيلا ثم وضعها لنا فى كتاب ، ثم أخذناها نحن على أنها قضية مسلمة ؟

وعلى هذه الطريقة نستطيع أن نبحث فى هذه القضايا التى أوردناها ، نستطيع آن نتساءل كيف وصلت الينا هذه المعلومات والمعارف جميعها • ومتى أخذنا نبحث فى هذا ونلح فى البحث فيه الى أقصى ما يستطيع أن يقودنا البحث ، اذا فعلنا هذا فنحن فى صميم نظرية المعرفة (Epistimology) .

قلنا ان لنظرية المعرفة طرفين ، آحدهما هذا الذى شرحنا فى الكلمات السابقة ، ألا وهو كيف وصلت الينا هذه المعارف والمعلومات التى نشعر أننا نملكها ، وأما الطرف الآخر لنظرية المعرفة فيدور حول حقيقة هذه المعارف أو صوابها ، يبحث فى هل هذه المعلومات والمعارف الموجودة فى أذهاننا صحيحة أم غير صحيحة • اننا نعتقد آنها صحيحة ومضبوطة ، ونسير فى الحياة العادية من يوم الى يوم على أنها كذلك ، لا يخالجنا فى صحتها أدنى شك ، نزعم أن هذا حصان فنركبه ونسقيه ونطعمه ونعينه على آن ينسل خيلا أصيلة ، ونجد أنه ينفع للركوب ، ويأكل ويشرب ويتكاثر نسله ، فنكتفى فى حياتنا العادية بهذا الذى نراه ، ثم نسير فى شئوننا الأخرى دون بحث أو تدقيق ، وهكذا الحال مع جميع الأشياء الأخرى نكتفى منها بالأمور العملية ،

وبالظواهر الخارجية ، ونأخذ هذه المظاهر على أنها الحقيقة في ذاتها ، الحقيقة كما هي في نفسها ، ثم نصدر أحكامنا عليها فنقول : هذا حصان ، وهذه وردة ، وهذه شجرة ·

ولكن نظرية المعرفة لا تكتفي بهذه الأحكام السطحية ، بل تبحث في هل هذه الأحكام صحيحة أم غير صحيحة ، وبعبارة أخرى هل هذه الأحكام التي تصدر من داخلنا تطابق الحقائق الخارجية ؟ هل الصورة التي في ذهننا عن الحصان تطابق الحصان في الواقع ؟ هل يتفق ما في ذهننا مع ما هو خارج عن هذا الذهن ، أم هنالك خلاف بينهما ؟ فالحصان في ذهني شيء مخالف للحصان الموجود في الزمان والمكان · فالبحث هنا ليس في كيف وصلت هذه المعلومات الى أذهاننا ، ولا هو يدور حول حقيقة وجود الأشياء حولنا ·

وبمعنى آخر نقول ، ان هذا المكتب مصنوع من مادة صلبة ، ونبني حكمنا هذا على صورة عندنا لمكتب ـ صورة في ذهننا عنه ، وهذه الصورة تجعل عقلنا يحكم أنه مصنوع من مادة صلبة وهي الخشب ، وبحثنا الآن هو في صواب حكمنا هذا ، هل هذا المكتب في نفسه ، بغض النظر عن احساسي به ، مصنوع من مادة صلبة كما قد حكم عقلي ، أم أن حكمي عليه لا يطابق الحقيقة عنه ·

الواقع في هذا المثل بالذات أن الصورة الذهنية التي عندي لهذا المكتب تختلف عن حقيقته كل الاختلاف ، وأن جميع حواسي التي قد نقلت الى هذه الصورة أخطأت كل الخطأ ، وعداها الصواب وبعدت عن الحقيقة · فحواسي قد

عجزت كل العجز عن أن تعطيني صورة حقيقية لهذا المكتب، فهو في نفسه ليس مادة ، ولا هو صلب ، وانما هو مكون من طاقات كهربائيـة ـ من الـكترونات وبروتونات ـ أو من شحنات كهربائية سالبة وموجبة ، وان تجمع هذه الشحنات بعضها الى بعض بهذه الكيفية وبهذا الوضع قد خدع جميع حواسي ، وجعلها تنقل الى صورة معينة لا تنطبق على حقيقة المـكتب في ذاته • وهـكذا الحـال مع باقي المحسوسـات ، لا نستطيع أن نوقن أن معلوماتنا عنها تنطبق على حقيقتها . فقد يحدث أن تكون الصور التي في أذهاننا عنها شـيئا ، وهي في ذاتها شيء آخر •

ولكي يستطيع القارىء أن يرى بنفسه الصعوبة التي تواجه الباحث في نظرية المعرفة ، وفي الجزء الخاص منها بالتطابق بين أحكامنا والحقيقة في ذاتها ، نطلب اليه أن يجري هذه التجربة البسيطة : يضع احدى يديه في وعاء به ماء ساخن ، والأخرى في وعاء به ماء بارد ، ثم ينقل يديه الاثنتين بسرعة من هذين الوعاءين ، ويضعهما في وعاء ثالث به ماء حرارته غير معروفة للقارىء من قبل، ان فعل القارىء هذا فسوف يحس أن هذا الماء الذي في الوعاء الثالث ساخن وبارد في نفس الوقت ، اذ تدل اليـد التي كانت في الماء الساخن أن الماء بارد والعكس • ولو سأله انسان هل هذا الماء ساخن أم بارد ، لاستعصى عليه أن يعطيه جوابا معينا •

وعلى كل حال ، نحن لا ننوي الآن أن نجيب على هـذه الأسئلة التي أثرناها في نظرية المعرفة ، وهي كيف تصـل الينا المعلومات والمعارف أولا ، ثم هل تنطبق معارفنا عـلى

الحقيقة أم لا تنطبق ، لا ننـوى هنـا أن نجيب على هـذين السؤالين ، لا ننوى أن نبين كيف آجابت عليهما الفلسفة فى أطوارها المختلفة ، لا ننوى أن نفعل هذا الآن لأننا سنتناوله بالبحث قريبا ، وانما كل ما نعنيه هنا هو أن نثير المشـكلة فى ذهن القارىء ، ونلحف فى اثارتهـا الى أن يحس بهـا ويراها ويلمسها ، فان استطعنا ذلك نكون قد نجحنا نجاحا تاما فيما أخذناه على عاتقنا .

نكتفى بهذا لأن موضـوع هـذا الكتـاب أى النظرية الفلسفية المعروفة بالبراجماتية (Pragmatism) لها رأى مهم يعتد به فى نظرية المعرفة ، أو بالحرى ان خدمتها لقضية الفلسفة عامة ـ كانت على الأكثر منصبة على كيفية المعرفة وعلى صحتها ، مع العلم بأن لهـا أثرا كبيرا فى الفلسـفة الحديثة العامة .

وقبل آن نفرغ من هذا الفصل ، يحسن بنا آن نلخص ما شرحناه فيه .

فالميتافيزيقا (Metaphysics) أو علم ما وراء الطبيعة له حدان :

الحد الأول هو قضية الوجود أو الحقيقة فى ذاتهـا أو (Ontology) .

والحـد الثـانى هـو قضية المعرفة أو (Epistimology) ولها شقان :

١ ـ كيف وصلت الينا هذه المعارف والمعلومات التى نحس أنها عندنا أو فى عقولنا ؟

٢ ـ هل هذه المعلومات الموجودة عنـدنا عن الأشـياء صحيحة ؟ هل هى تنطبق على حقيقة الأشياء فى ذاتها ؟

وفى الفصل التالى سنتناول الشـق الأول من نظـرية المعرفة ٠

الفصل الثانى

سبل المعرفة

اختلف الفلاسفة من قديم الزمان الى هذا العصر الحديث فى كيفية وصول المعرفة الينا ، وتعددت آراؤهم وتباينت مدارسهم الى آن أصبحوا فرقا متخاصمة ، كل منها تصحح رأيها وتخطىء الرأى الآخر •

١ ـ فالمدرسة الأولى هى مدرسة الصوفية فى المعرفة (Mysticism) ، وهى التى تزعم أن المعرفة تأتى الينا عن طريق خفى •

٢ ـ والمدرسة الاختبارية (Empiricism) التى تزعم أن المعرفة تأتى الينا عن طريق الاختبار أو الحس والمشاهدة ، أى بالنظر والذوق والشم والسمع اللمس •

٣ ـ وجماعة العقليين (Rationalists) يزعمون آن المعرفة تأتى الينا عن طريق العقل ، ففى العقل مبادىء عامة وقوانين شاملة خلقت فيه ، ونحن نطبق هذه القوانين والمبادىء على ما يحيط بنا •

٤ ــ والبراجماتية (Pragmatism) تثور على العقليــة من جهة وعلى الاختبارية من جهة أخرى ، تنكر أن بالعقــل مبادىء عامة وقوانين أزلية أولا ، ثم تنكر عــلى الاختبــارية زعمها أن الانسان عندما يتصل بالأشياء يكون ذلك للمعرفة. فالاختبار عندها ليس للمعرفة وانما للحياة • وما تدعوه الفلسفة الاختبارية معرفة ، تدعــوه البراجماتيــة تكيفــا وتشكلا وتغيرا فى العلاقات بين الكائن الحى وبين ما يحيط به من أشياء وحالات •

وبما أن غرضنا فى هذا الكتاب هو أن نشرح النظرية الأخيرة أو فلســفة البراجماتية ، فيجمــل بنــا أن نشرح النظريات الثلاث السابقة بعض الشىء ؛ حتى يتسنى لنا فهم البراجماتية •

فالصوفية (Mysticism) ــ وقد لمسناها لمسا فى الفصول السابقة ــ هى هذا المذهب فى نظرية المعرفة الذى يزعم أن المعارف وان كانت قد تأتى الينا عن طريق الحس أولا ثم عن طريق العقل ثانيا ، الا أن لها سبيلا آخر تسلكه الينا ، وهــذا السبيل لا يقع تحت نظــرية اختبــارية أو نظــرية العقليين • فقد تأتى الينا المعلومات بطريق الالهــام ، أو بطريق مباشر ، بطريق الاتصال الداخلى بين الانسان وبين الحقيقة الكونية ، أو الله مثلا ، أو بينه وبين عالم الأرواح • انها نوع من التخاطب والتفاهم الروحى بين الفــرد وبين الكائنات الروحية ، سواء أكانت هذه الأرواح منطلقــة من الأجسام البشرية ، أم لها وجود أزلي مستقل عن النفــوس البشرية •

والفلسفة المبنية عليها هذه النظرية فى المعرفة تزعم أن الانسان والكون فى مجموعه ـ الكون بأرواحه والقوات المنبثة فيه والتى تحيط به أيضا ـ متحدة جميعها شديدة الاتصال بعضها ببعض ، وأن الحقيقة الكبرى أيا كانت انما هى شىء واحد يضمنا جميعا الى نفسه ، فنحن منها وهى منا • والاتصال بين أجزاء هذه الحقيقة اتصال خارق للقوانين الطبيعية ، بعيد عن أن يقع فى دائرة العقل أو الحس •

فبعض المعارف التى نجدها فى قرارة نفوسنا لم تأت الينا عن طريق الحس أو طريق الاستنتاج والمنطق والعقل ، وانما صبت فى نفوسنا صبا ، أو وضعت فيها وضعا • والواضع لهذه المعارف انما هو الكون ، أو الله ، أو الأرواح التى تسكن هذا الكون أو تسكن بعيدا عنه • ولهذه القوى جميعها المقدرة على الاتصال المباشر بنفوسنا بعيدا عن العقل وبعيدا عن الحس ، فليس لنا فضل فى تمسكنا ببعض الحقائق (truths) التى نتمسك بها ونؤمن بصحتها ، وانما الفضل فى هذه هو لهذا الاتصال المباشر بيننا وبين الأرواح الكونية •

هذا الشعور الخفى بالحق (Truth) ، يقابل الخيال عند الرجل العادى ، فالخيال ينتج من التفاعل بين مجموعة الاختبارات التى جازها الفرد فى حياته اليومية ، ومن نشاطه بين أفراد نوعه ، ومن الغرائز الموروثة • هذا التفاعل بين الاختبارات والدوافع الموروثة عند الفرد هو الذى ينتج

الخيال • ومع أن النتيجة قد تكون واحدة ، الا أن الفرق بين التصوف والخيال واضح، فالأخير مبنى على العقل والاختبار، والأول مبني على القوى الخارقة للطبيعة التي تلقى بالمعارف الى الانسان القاء • الخيال انما هو قفزة يقفزها الانسان الى الأمام ، والتصوف هو الاستسلام للاتصال الخفى بين الفرد وعالم الأرواح •

ان الفرق بين الرجل العادى ذى الخيال الخصب ، والرجل الصوفي هو هذا : الأول منهما متصل بالحياة وبالاختبار وبنشاط الجسد من مشاهدة وحس بأنواعه ، وأما الصوفي ، فيلهب وجدانه الى أن يصبح فى حالة تشبه الغيبوبة ، فيها تتعطل أعمال الحس أو تكاد ، الى أن يصبح لا يشعر بالحوادث حوله ، وفى هذه الحالة من الغيبوبة يزعم الصوفي أن الحقائق تنبثق فى نفسه انبثاقا وتضيء وتومض كالبرق ، ثم يعود الى حالة الحس والشعور وفى حوزته هذه المعلومات الروحية التي انبثقت في نفسه ، يعود بهذه الحقائق (Truths) المزعومة ومعها شيء آخر لا يجب أن نغفله من حسابنا ، لأنه عظيم الاهمية والخطر ، هو الوجدان أو الشعور باللذة والغبطة والسعادة الذى يصاحب الصوفي ويلازمه فى حالات الاتصال هذه •

هذا الشعور في ذاته خطر جدا ، لأن الوجدان والحالات النفسية ــ كما هو ثابت من علم النفس الحديث ــ لا يمكن أن يبرهن على صوابها •

وعلى كل حال ، نحن لا نزمع انكار الصوفية أو تكذيبها كوسيلة في الوصول الى الحقائق (truths) ، لا بل نحن نزعم

أن الصوفية تصلح فى بعض الحالات كوسيلة للمعرفة • وكل ما نحب أن نورده هنا انما هو بعض المآخذ على هذه الوسيلة، بحيث اذا احترسنا منها أصبحت الصوفية ولها الحق فى السير مع الاختبار والعقل جنبا الى جنب ، وأصبحت المعارف التى نصل اليها عن طريق الصوفية جديرة بأن تكون صوابا وبأن يوثق بها •

والأمثلة على المعلومات والمعارف التى تأتى بالالهام كثيرة متعددة نستطيع أن نعدد منها الشىء الكثير ، فمن هذه المعارف والمعلومات ايمان الانسان بوجود الله ، وايمانه بالكتب المنزلة ، والثقة بالحياة بعد الموت أو بالخلود ، واحساسهم بوجود الله والشعور به فى قلوبهم ، وأنه يتحدث الى ضمائرهم فيحكمون على قيمة التصرفات من الوجهة الدينية الأخلاقية ، بناء على هذا الصوت الخفى فى نفوسهم •

يزعم الناس فى الأحوال العادية أن المرأة لها حاسة سادسة بها تحكم على الأشياء حكما صائبا ، وكثيرا ما يصدق حكمها على الناس دون حكم الرجال ، ذلك لأن الرجال فى هذا الرأى يحكمون عقولهم فى العلاقات بينهم وبين الناس ، وأما المرأة فلا تحكم عقلها وانما تحس بالحقيقة احساسا داخليا ، أو بعبارة أخرى ان نفسها مرهفة بشكل تستطيع معه أن تصدر حكما على نيات الناس ، دون أن تستطيع أن تقيم الحجة على هذا الحكم من الاختبار أو من العقل • فاذا قالت ان أنسانا معينا لا يؤتمن جانبه لغدره ومكره لأول نظرة تلقيها عليه ، فانما يكون ذلك لأن لها اتصالا مباشرا بالحقيقة ، اتصالا بعيدا عن المنطق أو الاختبار ، ولكنه صحيح على كل

حال • ومجمل هذا القول أن المرأة ـ بمقتضى هذا الزعم ـ تستطيع أن تعرف بالالهام •

ولنأخذ مثلا آخر على المعرفة بالالهام ، أو على الطريقة الصوفية فى المعرفة ، يتفق أن يقدم لك انسان للتعارف ، ولا يكاد صديقك يفرغ من تعريفه لك حتى تشعر للتو والساعة بشعور خفى ينفرك من هذا الانسان الجديد ، فلا تقبل عليه وانما تحترس منه ، وتتشكك فى صلاحيته للمعرفة والصداقة ، ثم قد يتبين لك فى آخر الأمر انك على حق •

هذا مثل لقطة صغيرة من الاختبار ، لحادث واحد من حوادث الحياة الموضعية • فلو عممنا هذه الطريقة ووسعنا حدودها ، واستعملناها فى الوصول الى الحقائق العظمى فى الكون ، لأصبح عندنا طريقة صوفية للمعرفة ، أو الهام يوصلنا بوثبة واحدة الى كنه الحقيقة (Reality)) دون لجوء الى المنطق أو البرهان ، ودون لجوء الى الحس أو الاختبار الحسى بجميع وسائله • وعلى هذا المنوال أصبح الايمان فى القرون الوسطى هو الطريق الوحيد لمعرفة الحقيقة(Reality) دون العقل والمنطق ، حتى أصبحت الفلسفة فى ذلك العصر خادمة لعلم اللاهوت ، وأصبحت لا عمل لها الا تبرير حقائق الالهام تبريرا منطقيا • وأصبح الايمان نوعا من الفضيلة ، فكان يتحتم على الانسان من الوجهة الأخلاقية أن يقبل حقائق الايمان (Truths) ويؤمن بها على أنها غير قابلة للشك أو البحث • فكانوا يزعمون أن حقائق (Truths) الايمان فوق مستوى العقل ، فلا يحسن بهذا الأخير أن يخضعها لمنطقه •

حقا انها لا تخالف العقل ، وانما هي فوق مستواه فلا يستطيع أن يبحثها ·

وفلسفة شوبنهور (Schopenhauer) مؤسسة في الاصل على أن الوسيلة الحقيقية للمعرفة انما هي هذا الالهام ، هذا الشعور المباشر بالحقيقة ، هذا الاحساس الخفى بوجودها ، ذلك لان العقل لا يطلعنا الا على المظاهر الخارجية للأشياء وعلاقة هذه الأشياء بعضها ببعض · فبالعقل نعجز عن آن نفهم الأشياء كما هي على حقيقتها ، وانما نفهمها منسوبة بعضها الى بعض · نفهم أوجه الشبه وأوجه الخلاف في الأشياء فقط ، وأحكامنا عليها وانما هي أحكام على علاقاتها بالأشياء الأخرى ، فهذا مثلا حيوان أبيض ذو أربع قوائم ، مرتفع قوى ، وما كل هذه الأحكام ـ كونه حيوانا أبيض الخ ـ انما هي أحكام على هذا الكائن بالنسبة الى الكائنات الأخرى التي ليست حيوانات ، وليست بيضاء أو قوية الى آخره · وملخص رأى شوبنهور في المعرفة أن هذه لا تأتي في الواقع الا عن طريق الالهام ، ولولا أن تطير شوبنهور قد غلب على النواحي الأخرى من فلسفته ؛ لأصبح يعرف بنظريته في المعرفة ·

ومن أئمة الالهاميين ، أو امامهم الأعظم في العصر الحديث هنرى برجسون (Henri Bergson) ، الذى بدأ حياته طالبا في مدرسة النورمال بباريس (Ecole Normale) على أنه من جماعة العقليين (Rationalists) ، فأراد أن يضع المبادىء الأساسية في الطبيعة وضعا عقليا ويشرحها شرحا منطقيا ، وهذه المبادىء هي الزمان والمكان ، والمادة ، والحركة ،

والقوة والطاقة • أراد أن يضع لهذه تعاريف تنطبق عـلى مبادىء العقليين فى المعرفة ، وبمعنى آخر يشرحهـا بكلام يفهمه الانسان ويقبله عقله دون حاجة الى الاحساس الداخلى أو الشعور ، ولكنه وجد أن الخاصـية الأوليـة للزمان أنه يحس ولا يقاس ، فقولك عشر سنين أو ساعات لا يعنى أن هذا الرقم هو الزمان نفسه ، وانما الزمان يحس ويشعر به بتطور الحياة فى الفرد ، وبتغير حالاتها من لحظة الى لحظة • فالزمان هو تتابع هذه الحالات •

من هذا الاكتشاف ، أى من الحقيقة الواقعة ، وهى أن الزمان الحقيقى يحس ويشعر به بطريقة مباشرة دون أن يقاس ،انقلب برجسون من جماعة العقليين الذين يؤمنون بتفرد العقل فى المقدرة على أن يعرف الحقيقة (Reality) الى جماعة الصوفيين الذين يؤمنون بالالهـام عـلى أنه خـير السبل جميعـا للمعرفة • وتقـوم أهميـة برجســون دون الصوفيين جميعا على الحقيقة الآتية وهو أنه يصف الالهـام بطريقة منطقية عقلية ، والكلام فى الواقع هو لغة العقل ، فعندما يصف انما هو يخاطب العقل • بذ برجسون الصوفيين فى أنه استطاع أن يبين للناس نوع الحقائق (Truths) ب يستطاع معرفتها عن طريق الالهام ، فالزمان لا يمكن معرفته بالحواس الخمس ، وانما يمكن أن يحسه الانسان ويشـعر به فى قرارة نفسه ، بعيدا عن عمل الحواس من نظر أو سمع أو لمس أو ذوق أو شم الى آخره •

ومحصـل القـول ، أن الصـوفية تتقدم لنا بنظرية فى المعرفة تغاير نظرية العقليين والاختبـاريين • ونظريتهـا

تتركز فى أن الالهام (Intuition) هو وسيلة من وسائل المعرفة (Knowing) • انها لا تنكر امكان المعرفة عن طريق العقل والاختبار ، وانما تضيف الى هذين طريقتها ألا وهى الالهام • بالطبع نحن نتحدث عن الصوفية الحديثة التى يحمل علمها برجسون ، لأن الصوفية قديما قد أنكرت على العقل والحواس مقدرتهما على الوصول الى الحقائق ، ولكنها فى حالتها الراهنة تسلم للعقل والحواس بأنهما يستطيعان الوصول الى الحقائق أو الى بعضها على أقل تقدير •

بعد كل هذا ، وبعد أن نسلم بأن للصوفية الحق فيما تزعم من أنها تستطيع المعرفة عن طريق الالهام ، بعد هذا نظن أنه من المستحسن أن نتقدم ببعض النقد الذى يوجه للصوفية •

وأول شىء يجب أن ننبه اليه هو أننا لا نستطيع أن نسلم بهذه الطريقة الخارقة للعادة ــ طريقة الالهام ــ قبل أن نعجز عجزا كليا عن تفسير هذه المعارف بطريقة طبيعية بحتة •

ثم ان الاحساس الداخلى بشىء ما ، لا يصلح برهانا على صحة هذا الشىء • هذا الاقتناع الداخلى المباشر بصواب رأى كثيرا ما يخطىء ويضل السبيل ، وكثيرا ما تكون المعارف التى نحصل عليها من هذه الطريق خاطئة لا أساس لها الا فى مخيلتنا ، والمثال الواضح على ذلك هو بعض حالات الجنون، فكثيرا ما يؤمن انسان بأنه نابليون أو توت عنخ آمون ، واذ تسأل من أين له هذا الايمان ؟ يجيبك بأنه يحسه احساسا

داخليا عميقا بعيدا عن أدوات الحس أو العقل• ومع ذلك ، لنترك حالات الجنون جانبا ونفحص حالات النـاس العاديين أمثالنا ، ألا نجد أن من هؤلاء من يعتقد أنه ذكى يصـلح لعمله كل الصلاح ، ويصلح لأن يكون رئيسا لمكتبه ، وانما لا يمنعه عن بلوغ الزعامة الا حسد أقرانه ، وكراهية رئيسه له ؟ هذا الاعتقاد لا ينبنى الا عن شعور داخلي واحساس مباشر بالنفس • ولكنك اذ تسأل هؤلاء الأقران وهذا الرئيس عن هـذا الانسـان الذى نحن بصدده ، يدلونك من الاختبـار والحوادث العادية اليومية أنه لا يصلح لشيء • يستطيع هؤلاء أن يجعلوك تشاهد وتلمس وتسمع ما يناقض دعـوى هـذا الانسان ، بحيث تقتنع كل الاقتنـاع بأن رأيه فى نفسـه ومعلوماته ومعارفه هذه التى وصلت اليه من الاحسـاس ، خاطئة لا أساس لها •

خذ مثلا آخـر عـلى خطأ هذا الشعور الداخلى المبـاشر بالحقائق (Realities) ، من المسيحيين شـيعة اسـمها العلماء المسيحيون (Christian Scientists) هذه الشيعة هى شيعة دينية لها كنائس ومعابد ، وليست شيعة علمية بأى معنى ، هؤلاء الناس يؤمنون فيما يؤمنون به أن الشر والألم ، والمـرض والمادة لا وجود لها على الاطلاق ، كل هذه الأشياء خداع فى خداع وليس لها وجود حقيقى ، انما هى ـ عـلى حد تعبير السيدة (Eddy) زعيمة هذه الشيعة ـ «من أخطاء هذا العقل الفانى» ثم ينسبون هذا الحكم الى الالهـام ، أو الاتصـال المباشر بين النفس الانسانية والحقيقة الكونية (Cosmic Reality) أو الله • والآن ، مهما قيل فى مقدرة هذا الاتصال المباشر على تمكيننا من المعرفة (knowing) ، فلا يمكن لنا أن نقبل هذا

الحكم على أنه صحيح ، لأن العقل والحواس جميعا لا تقبله ، فالألم مثلا موجود ، وسواء أكان خداعا حسيا ، أم له وجود حقيقي ، فهو موجود على أية حال ، وعندما أتألم من صداع مثلا لا يجديني شيئا ان أعرف أن الصداع لا وجود له على الاطلاق ، لأن الواقع والشيء الذى لا أستطيع أن أنكره هو أنى أتألم ٠

مما اعترض به على هذه النظرية ، أنها لا ثمرة لها ولا نفع منها فمن وجهة الحياة العادية والنشاط اليومى لا تقدم ولا تؤخر فى حياتنا كما بينت البراجماتية بشكل قاطع ، لأن الألم مثلا والاحساس به شيء واحد ، فسواء أكان موجودا أم غير موجود فأنا أحس به ، وهذا الاحساس هو الشيء المهم فى هذه القضية ٠ ومن وجهة نظرى الألم له وجود لا ينكر مادام الاحساس بالألم موجودا عندى ، ثم اذا كان الشر والأمراض والآلام ليس لها وجود حقيقى ، فما الداعى لمحاربة الشر (Evil) ومقاومة الأمراض ؟ لماذا تكون الهيئات والجمعيات للاصلاح ومحاربة الشرور (Evils) لا داعى لهذا على الاطلاق ، لأن ما نزمع محاربته والتغلب عليه ليس موجودا فى الأصل ٠

ولهذه النظرية ــ النظرية الصوفية فى المعرفة ــ نتائج أخرى كثيرة قد تملأ كتابا كاملا لو أردنا الاطالة والشرح ، وليس لدينا متسع ، فاننا نريد أن نفرغ لبحث نظرية البراجماتية ، ولكننا نزمع أن نجمل بعض النتائج التى تترتب عليها ، تاركين للقراء البحث عنها فى كتب الفلسفة ان أرادوا ذلك ٠

ومن هذه النتائج انكار وجود المحسوسات وعدها خداعا من الحواس ، دون أن يكون لها أثر حقيقي في الوجود مستقل عن النفس الانسانية • فالحقيقة التى لا شك فى وجودها عند هذه النظرية هى الحقائق التى تتصل بالنفس مباشرة دون واسطة ما ، هى الحقائق الروحية التى تتلقاها النفس البشرية من الله مباشرة بعيدا عن الحواس والعقل ، أو بعيدا عن الاختبار والمنطق • وبعبارة أخرى ، تنكر هذه النظرية الوجود المادى أصلا ، ولا تقبل الا الحقائق الروحية • فالروح موجود وهو الأصل في جميع الموجودات ، بدونه لا توجد مادة أو حركة أو طاقة ، الروح (Spirit) هو الجوهر وغيره العرض والمظاهر ، الروح هو مادة الكون الأصلية ، والمادة ثوب هذا الجوهر ، أو صور هذا الجوهر وأشكاله •

ومعظم هؤلاء الصوفيين الذين ينكرون العالم ـ عالم الأشياء والأجسام ـ ويعدونه غير حقيقي أو غير موجود فى الواقع يذهبون الى أنه شرير ردىء تجب مقاومته ، وبغض النظر عن التناقض فى هذا الزعم ـ لأنه اذا لم يكن موجودا فى الواقع فلا يمكن أن يكون شريرا ـ فان لهذا الزعم آثارا فى الحياة وفلسفة تنبنى عليه عقليا ، فهم يعتقدون أن الشر (Evil) مرتبط بالحواس ومرتبط بالحياة المادية ، ولذلك فهم مطالبون بمقاومة الحواس أو الحياة الحاسية ، مطالبون بقهر المادة ، وقهر الجسد ، والتغلب على نزوعه ورغباته • وكلما أمعن الفرد منهم فى قهر هذا الجسد ، اقترب من جوهر الوجود أو الروح أو الله ، ومن هنا نشأت الرهبانية بأنواعها

المختلفة ودرجاتها المتباينة من تقشف الهنود وزهدهم فى لذائذ الحياة ورياضتهم للجسم على أنواع الشقاء ، الى انقطاع بعض المسيحيين عن الاتصال بالعالم انقطاعا تاما فى الأديرة وفى الصوامع ٠

الفصل الثالث

الطريقة العقليـة
Rationalism

من الصعب أن يكتب الانسـان عن طـريق العقليـة في المعرفة بشكل مبسط مفهوم لأسباب كثيرة ، فمن الصعوبات التي تعترضنا ان هذه النظرية لا تفهم (بضم التاء) تمام الفهم دون مقابلتها بنظرية أخرى هي النظرية الاختبـارية في المعرفة أي (Empiricism) • ومن أطلع عـلى الفلسـفة في مصادرها الأولية ، يعرف أن معظم هذه المصادر تعـالج النظرية العقلية والنظرية الاختبـارية في نفس الـوقت ، تعالج الواحدة منهما تجاه الأخـرى ، كأن الاثنين توضعان على مكان مرتفع وينظر الى الواحدة منهما ثم ينظر للأخرى ؛ حتى يستطيع المشاهد أن يتبين الخـلاف بينهما ، أو يقارن بينهما فتظهر أوجه الخلاف على صحتها •

والـواقع أن النظريتين متضادتان تهـدم احـداهما ما تبني الأخرى ، وترفض الواحدة منهما ما تقبله الأخرى ، هذه تزعم أن المعرفة تأتينا عن طريق معين ليس غير ، فتنبرى لها الأخرى مكذبة مناقضة لهذا الزعم ، فتهدمه من أساسه .

وتقدم لنا نظريات أخرى مغايرة لنظريات الأولى • والغريب في الأمر أن النزاع بينهما ليس نزاعا عـلى نقط معينـة ، ولا هو اختلاف فى وجهات النظر بينهما ، وانما هو نزاع أساسى ، نزاع على الوجود ذاته ، فاذا صدقت احداهما كذبت الأخرى ، واذا قبلت احداهما رفضت الأخرى ، ومن وجهـة نظرهما لا يوجد مكان فى الدنيا لهما جميعـا ، والنضـال بينهما نضال على الحياة فى صميمها ، فكل منهما تنوى الشر للأخرى •

من هذه الوجهة يصعب علينا أن نعالج كلا منهما مستقلة عن الأخرى ، فان استطعنا ذلك ، وسنحاوله جهدنا ، فلا يتم الفهم وتستقيم الأمور للقارىء الا متى بحث فيهما جنبا الى جنب ، وقارنهما ببعضهما عن قرب ، ولذلك نزمع أن نعالج كلا منهما مستقلة عن الأخـرى بقدر المسـتطاع ، ثم نعود فنجمعهما مع بعضهما فى بعض الفصول الأخرى ، وبذا تتم الفائدة المرجوة من هذه السلسلة •

يذكر القارىء أننا قسمنا الميتافيزيقيا الى قسـمين : قسم يختص بالوجود أو حقيقة الموجودات (Ontology) ثم أرجأنا هذا القسم الى فرصة أخرى ، وقسم يختص بطرائق المعرفة (Epistimology or Theory of Knowledge) أو وسائلها ، أو كيف تصل الينا المعلومات • ثم شرعنا فى هذا الباب نشرح هذه الطرائق •

والآن ، نقول ان البراجماتية والعقلية والاختبـارية ليست تدخل تحت باب القسم الثاني أو (Epistimology)

فقط ، وانما تدخل أيضا وفي الوقت نفســه تحت القسـم ا:ول وهو (Ontology) ، وبمعنى آخر هذه النظريات الثلاث هى نظريات فى الميتافيزيقا ، وعلى ذلك نجد صعوبة كبرى فى الكلام عنها من وجهة نظر المعرفة فقط • وسوف يجد القارىء نفسه مكبا على قضايا الميتافيزيقا الى حد محدود قبل الأوان ، فنرجو من القارىء أن يجعل نصب عينيه هذا التقسيم بين نظريات المعرفة ونظريات حقائق الوجود ، نرجو أن يتنبه الى الفرق بينهما حتى يستطيع أن يقرأ الفصـول التاليـة فى سهولة ويسر • وسوف نحرص جهـدنا عـلى الابتعـاد عن نظريات الوجود (Theories of Reality) ما استطعنا الى ذلك سبيلا • وسوف لا نمسها الا مضطرين مرغمين • بعد هـذه المقدمة نعود الى النظرية العقلية فى المعرفة (Rationalism) ونظن أن الأمثلة الكثيرة فى هذه النظرية تساعد على فهمها دون عناء كبير ، وعلى ذلك سنحاول أن نصل الى حقيقتها عن طريق الأمثلة متى سمح المجال لنا بعد ذلك •

من المعلوم لدارسى تاريخ الفلسفة الحديثة أنها ابتدأت بالنظرية العقلية على يدى ديكارت (Descartes) فى أواخـر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، وبمعنى آخر أن مطلع الفلسفة الحديثـة كان عـلى يدى النظرية العقليـة (Rationalism) فى الميتافيزيقـا ، وأعلام هـذه النظرية هم ديكارت (Descartes) وسبينوزا (Spinoza) وليبنز (Leibniz) وكما قلنا سابقا ان هذه النظرية تستند الى المنطق ، نقول الآن انها تستند أيضا الى الرياضيات : الحساب والهندسـة والجبر ، وان هؤلاء الثلاثة من أعلام العلوم الرياضية ، ولهم فيها نظريات مشهورة معروفة عند الرياضيين •

فى نهاية القرون الوسطى وعند مفتتح العهد الحديث ، كان القول الفصل فى المعارف والمعلومات للتقاليد الدينية ، فكانت الحقيقة هى ما زعمت الكنيسة والسلطات الدينية أنها الحقيقة ، ما تقبله الكنيسة وتلك السلطات هو الحق دون بحث أو تنقيب ، وما ترفضه هو الباطل الذى ليس له وجود حقيقي فى هذا النظام الكونى ، تزعم الكنيسة أو السلطات أن الأرض محور الكون ، هى المركز الذى نضدت حوله الأفلاك جميعا ، وما خلقت هذه جميعا الا خدمة لأرضنا ، الشمس تدور حولها من الشرق الى الغرب والكواكب الأخرى تختط لنفسها مدارات كل منها للجهة التى تريد ، ولكنها كلها تتكأكأ حول الأرض ، تزعم السلطات هذا الزعم فيكون هو الحق دون بحث أو تنقيب ، وكل رأى مخالف له خطأ من أساسه ولا محل لمحاولة البرهنة عليه ، لأن ايراد البراهين على رأى يخالف هذا الرأى تعنت من الشيطان يستحق غضب الأرض والسماء •

اذن كانت للمعرفة وسيلة معينة ، تعين الانسان على أن يعرف الحقيقة ، وكانت المعرفة (knowledge) ممكنة ، والسلطات ـ أيا كانت ـ هى السبيل اليها ، أو على أقل تقدير هى أهم سبيل اليها وقد ربى ديكارت ونشأ على هذا الزعم ، وقبل كما قبل غيره السلطة (authority) على أنها باب للمعرفة ، فنستطيع أن نعرف الحقيقة لأن الحقيقة تقال لنا وتقدم الينا ، فلا يحسن بنا أن نستعمل عقولنا لمعرفة الحقيقة ؛ لأن العقول لا تستعمل لمثل هذه الشئون العليا : شئون المعرفة وشئون الحقائق الأساسية (fundemental Realities) • حقا ، اننا لا ننكر أن العقل يستعمل فى الشئون الصغرى ـ شئون

الحياة العادية ، والعلاقات بين الناس ، وفى بعض الأمور العلمية ، وأما فيما فوق ذلك أو بعد ذلك فلا ٠

ولكن العقل لا يستطيع أن يقف عند حد محدود لا يتعداه ٠ لا يستطيع انسان أن يمنعه من أن يبحث فى أكبر المشاكل الكونية متى أراد أن يفعل ذلك ومتى استطاع ، وما دمت قد تركت له مجالا يعمل فيه فلابد أن يوسع فى هذا المجال ويمده لليمين وللشمال والى أعلى والى أسفل ، الى أن يصل ان استطاع الى أدق الشئون وأعظمها خطرا ، قد يخاف الانسان نتيجة هذه الأبحاث ويمسك العقل عن أن يتمادى فيها ، ولكن العقل القوى الوثاب لا يبالى الخطر ولا يقيم له وزنا ، بل يجمح بصاحبه ويغوص على هذه الحقائق الكبرى ٠

وأول شيء صنعه العقل هو أنه رفض السلطة (authority) وعدها وسيلة غير صالحة للمعرفة ، ذلك لأن الكثير من حقائقها المزعومة لا تستقيم له ، ولا يستطيع أن يستسيغها ، ثم انه قد أفلس فى ايجاد المبررات لمزاعم السلطات ـ تلك المزاعم التى قد لا تتفق فى كثير من الأحيان مع أبسط قواعد المنطق ، أو مع البداهة التى لا يستطيع العقل بحال أن يشك فى حقيقتها أو فى صحتها ، ثم أخذ يشعر أنه هو وسيلة بديعة للمعرفة ويستطيع أن يصل الى كثير من الحقائق بنفسه بعيدا عن السلطات المختلفة ، فأخذ يجرب حظه فى هذا الميدان ، فاستطاع أن يصل الى جميع حقائق العلوم الرياضية والمنطقية دون عون من السلطات ، والمنطق والحقائق الرياضية انما هى فى الواقع أدوات العقل فى الكشف عن الحقائق ، فكل ما يجده عن هذا الطريق لا يأتيه الشك من بين يديه ، وليس

أدل على ذلك من آن حقائق الرياضـيات انما هى حقـائق مطلقة ، لا تتغير بتغير الظروف والأحوال ٠

أخذ العقل يرفض هذه السلطة ـ وهى الكنيسة ـ فى المسائل الدينية والحقائق الكونية ، وأرسطو وتلاميذه فى الفلسـفة والعلوم الطبيعيـة ، وجـد آن هاتين السـلطتين تتمسـكان بنظريات لا يستطيع قبولهـا الى ما لا نهـاية ، ولا يستطيع أن ينتحل لها المعاذير والبراهين الى الأبد ، وأنه قد يستطيع أن يبحث لنفسه ، وأن يتحقق من صـحة هـذه النظريات بنفسه ، لقد آمن وصدق عهدا طويلا والآن يجوز له أن ينقد ويناقض ٠

نستطيع أن نقدم الأمثلة العديدة عـلى ما كانت تزعمه السلطات حقائق ، بينما هـو ليس من الحقـائق فى شيء ، ولكننا نكتفى هنا ببعضها ، فمنها أن انسـانا فى القـرون الوسطى أقام الدليل من الكتب المقدسة عـلى استحالة وجود قارة استراليا ، وآخر قد استند الى الكتب المنزلة للتدليل على وجود محيط فوق الأرض ٠

هذا من جهة السلطات الدينية ، وأما من جهة السلطات العلمية فقد كان أرسطو مسيطرا عـلى التفـكير العلمى الى أواخر القرون الوسطى ، وكل القضايا العلمية التى وضعها كانت تقبل على علاتها وان كانت المشاهدة والخبرة تناقضها كل المناقضة ، لقد كان أرسطو يعتقد أن بعض الحيـوانات تستطيع أن تسير وسـط اللهب دن أن تحترق ، لا بل ذهب الى أكثر من ذلك فزعم أن بعضها اذا سار فى لهيب أطفأه ، وكان يظن أن جرو الدب يولد من غير عينين أو أنف أو أى

معالم أخرى ، فتلحسه أمه الى أن تنبت فيه العينان والأنف الى آخره ٠

ومن أروع ما ورد فى تاريخ العلوم قصة أرسطو وجاليليو مع ما بينهما من قرون ، لقد ورد فى أحد كتب أرسطو أنه اذا ألقي بجسمين من مكان مرتفع فان أثقلهما يبلغ الأرض قبل الآخر ، لقد قال أرسطو هذا القول مرة ثم مات ، واذا بالعالم يقبله منه على عهدته ويأخذه قضية مسلمة لمدة ١٩٤٠ عاما ، دون أن يجرؤ انسان على اجراء هذه التجربة عمليا واختبار صحتها من عدمها ، وكيف يستطيع الانسان أن يشك فى صحة كلام أرسطو وهو من السلطات المعترف بها ؟ الا أن شابا معلما فى جامعة بيزا ، تسلق برجها وهو يحمل معه جسمين أحدهما يزن رطلا والآخر يزن عشرة أرطال ، وألقى بهذين الجسمين أمام حشد كبير من أساتذة الجامعة وأقطاب بلدة بيزا ، واذا بهما يصلان الى الأرض فى وقت واحد ٠

ثم رجع الأساتذة الى مكتباتهم ، وأخذ كل منهم يبحث عما كتبه أرسطو فوجدوا جميعا أنه قال ان هذين الجسمين لا يصلان الى الأرض فى وقت واحد ، فعادوا على جاليليو باللوم والتعنيف وبأكثر من اللوم والتعنيف ؛ لأنه تجرأ أن يشك فى كلام أرسطو وأراد أن يحتكم الى التجربة والاختبار ، وقد كان فى غنى عن التجربة والاختبار لأن أرسطو قد سبق وأعطانا القول الفصل ، والقول ما قال أرسطو ٠

هذه أمثلة قليلة مما كانت السلطات تقدمه للناس كمعارف يجب أن يقبلوها على أنها حقيقة موثوق بها ، وكل

عقل لا يقبلها يكون مصابا بمرض ما، وتجب معالجته بطرائق العلاج المتوافرة لهم في ذلك الزمان ، هذا ما كان على العقل أن يقبله دون بحث أو نقد ، ولا يقبله فقط بل يحاول أن يجد البراهين العقلية على صدقه ·

في هذا الجو ولدت النظرية العقلية في المعرفة ، وفي مثل هذا الزمن بدأ ديكارت يطبق قضايا العقل على جميع المعلومات والمعارف التي كانت تتوافر له في زمنه ، وعلى هذا النوع من سبيل المعرفة ثارت النظرية العقلية ، ثم شقت لها طريقا وافتتحت لنفسها عصرا جديدا يعرف بعصر العقل أو (Age of Reason) ووجدت أن سبل المعرفة المفتوحة أمامها اثنتان ، احداهما سبيل السلطة ، من دينية وعلمية وفلسفية. وهذه لا تستقيم للعقل ، فطرحها جانبا ، وأما السبيل الأخرى فهي سبيل الحس والنظر والسمع والذوق واللمس والشم ·

ليس من شك أن هذا الباب ، باب الحس هو أحد النوافذ المعترف بها التي منها تنفذ المعارف الى نفس الانسان ، بل لا يكاد الانسان العادي يعترف بوسيلة للمعرفة غير هذه ، وكل معلوماته ومعارفه مبنية على ما رآه وسمعه ولمسه بنفسه ، فالدنيا الموضوعية ، الدنيا الخارجية التي تحيط به، والحقائق (Truths) التي يؤمن بها ويتصرف بمقتضاها انما هي تلك التي تقع تحت حسه ، ومعظم حقائقه انما هي مدركات حسية ·

أما الفيلسوف ، فيبدأ بوقائع الحس(facts of sense) ، يرى كما يرى غيره ، ويستخدم جميع حواسه كما يستخدمها

الآخرون سواء بسواء ، ويأخذ وقائع الحس على أنها حقائق (Truths) في حياته العملية ، فهذا مقعد لأن عينه تزعم له أنه معقد فيجلس عليه دون تردد ، ويستعمله في جميع الأغراض التي تستعمل فيها المقاعد ٠

والواقع أن مشكلة الفيلسوف ليست في الاستعمال العادى للأشياء التي تقع تحت حسه ٠ انما الخلاف بينهما هو في أن الرجل العادى ، يؤمن بأشياء الحس على أنها الحقائق في ذاتها ، بينما يريد الفيلسوف أن يتأكد بالبراهين العقلية من صحة هذا الزعم ، فكيف السبيل الى هذا التحقيق ؟ كيف نفض هذا النزاع بين الحواس والعقل ، لأن هذا هو جوهر النزاع بين نظريتى المعرفة المعروفتين بالعقلية والاختبارية أو (Rationalism And Empericism) فالنظرية الاختبارية تكاد تكون نظرية الرجل العادى ــ رجل الشارع ــ وهى أن المعرفة تأتينا عن طريق الحواس ، وأما النظرية العقلية فتزعم أن المعرفة تأتى من العقل وحده ، ولكى تبرهن على هذا الزعم تأخذ النظرية العقلية في بحث الاحساسات (ولا نقول الحقائق) التى تأتينا عن طريق الحواس ، هل هذه الأشياء حقائق أم أوهام من صنع الحواس نفسها ، ثم هل الحقائق (facts) التى تأتينا عن طريق الحواس صحيحة مضبوطة ، أم لا صحة لها الا فى مخيلة الانسان ؟ والآن ، لنعالج هذه الحواس علنا نتوصل الى الحقيقة بشأنها ٠

دخلت اليوم منزلى فسمعت حديثا يدور فى المطبخ باللغة الانجليزية بين الطباخ وشخص آخر ، دهشت لهذا فوقفت أتأكد بنفسى من جهة الصوت ، فتخيل لى أنه على التحقيق آت

من المطبخ ، فتوجهت اليه ووجدت الطباخ بمفرده هنالك .
ولما استوضحته الأمر اجابني بأن هـذا صـوت الراديو في البيت المجاور لنا ، فقنعت بهذا التفسـير ، ولـكني تذكرت أيضا أن الطباخ نفسه كان يتحدث وأني سـمعت صـوته ، ولكنه أنكر ذلك ، وهو صادق بالطبع في انكاره ، فالحقيقة اذن هي أن أذني صدقتني في شيء وخدعتني في شيئين : في أنها نقلت الى حديثا باللغة الانجليزية ، يظهر أن الهواء حول بيتي كان يتماوج به بدليل أن الخادم أيضا سمعه ، ولكنها خدعتني أولا في الجهة التي كان الصوت يأتي منها فزعمت أنه آت من المطبخ والواقع أنه كان آتيا من الحديقة ، هـذا شيء ، والشيء الآخر أنها زعمت أن الخـادم كان يتـكلم ، والواقع أنه لم يتكلم ، فالأذن اذن تخـدع ، وتسـتطيع أن تخدعنا باستمرار ، وهكذا الحال مع بقية الحواس ، فالالوان التي نراها في الأشياء حولنا ليست في الواقع في الأشياء نفسها ، وانما عيوننا مركبـة بحيث تخلق هـذه الألـوان وتسبغها على الأجسام حولنا وتجعلنا نعتقد أنها في الأجسام.

والغريب في الأمر ، أنك لا تستطيع أن تتحقق بأي وجه من الوجوه من صحة هذه الحقائق (facts) التي تقدمها لك حواسك ، فهي تخلق المحسوسات أو تنقلها الينا من العـالم الخارجي دون أن يكون عندنا محك يجعلنا نميز بين ما تنقله وما تخلقه ، بين ما له وجود خارجي وما هو من صنع الخيال والوهم ، ولنأخذ المثل الذي ضربناه في مقدمة هذا الكلام ، فقد سمعت صوت خادمي يتكلم في المطبخ ، وقد كانت أذني خدعتني على ما يظهر ، وأقول على ما يظهر لأني لا أعرف على التحقيق اذا كانت قد خدعتني أم لم تخدعني وكل ما أعلمه

أن الخادم قال انها خدعتني ، ولكن كيف عرفت انه قال هذا القول ؟ عن طريق الأذن بالطبع ــ نفس الأذن التي نقلت الى الصوت الأول ، فاذا كانت قد خدعتني في المرة الأولى فهلا يمكن أن تكون قد خدعتني في المرة الثانية أيضا ؟ اذا كانت قد خدعتني في اثبات الصوت أولا أفليس من المعقول أنها قد تخدعني في نفيه ثانيا ؟ هي التي أثبتت الصوت ، وهي التي نفته ، فأي الأمرين أصدق ؟ أي الخبرين أصح ؟ أليس من الواضح أن الحقيقة (Truth) قد ضاعت على بين اثبات الحواس لشيء ونفيه في الوقت نفسه ؟

أنت الآن جالس تقرأ هذه الكلمات • أو تزعم لك حواسك أنك تقرؤها ، فهل هذه هي الحقيقة (Truth) هل مزاعم الحواس هذه تنطبق على الواقع ؟ أم هي خداع من الحواس ؟ قد تقول انها لا تخدعك ، فأنت ترى الكتاب بعينيك وتمسكه بيديك ، وأنك متأكد أنه موجود في الواقع وأن وجوده ليس وهما أو خيالا فاذا سئلت كيف تعتقد أن وجود الكتاب أمامك ليس وهما أو خيالا ، فلا تستطيع أن تقول شيئا سوى أن تكرر قولك السابق بأنك تراه وتلمسه ، فأنت في الواقع تدور في دائرة ، ولا برهان لديك على صدق حواسك •

ومع ذلك ، ألا يجوز أنك الآن نائم تحلم بأنك تقرأ هذا الكتاب ، وأن القراءة والكتاب جميعا وهم خيال ولا وجود لهما الا في الحلم ؟ قد تقول انك لست نائما ولا حالما ، فكيف تثبت ذلك ؟ بالطبع تقول اني أحس أني لست نائما لأني أتحرك وأغضب وأثور لكلام هذا الكاتب الذي يحاول أن يجعلني أشك في صدق الحواس ، ولكن مهلا ، ألم يحدث لك

أنك كنت تحلم أنك يقظان تفعل كذا وكذا ، وتغضب من هذا وتناقش ذاك ،. ألم يحدث أنك سألت نفسك فى الحلم ، هل هذا حلم أم حقيقة ، وكنت تجيب نفسـك بأنهـا حقيقة وليست حلما ، ثم تستيقظ من النوم ؟ ألم تمر بك أحـلام كنت تظنها حقيقة بينما أنت تحلم بها ؟ الواقع أنه فى جميع الأحلام التى تمر بالانسان يشعر الانسان أنه مستيقظ متنبه لجميع حركاته ، وبمعنى آخر لم أسمع عن حلم كان الحالم يعتقد أنه حلم أثناء العملية ذاتها ، وانما نميز الأحلام بعد أن نصحو منها ، وعلى هذا يجوز أنى لا أكتب كتابا الآن ، وانما أحلم أنى أكتبه ·

كنت أقرأ هذه الكلمات السابقة لصديق ليس له المام بالفلسفة ، فثار على وعلى الفلسفة وقال انها مربكة للعقل لأنها تشكك فى جميع حقائق الحس الثابتة التى يدرج عليها الناس جميعا ، وأنه اذا لم تفعل الفلسفة شيئا غير تشكيك الناس فى حواسهم فقط ، يكون ضررها أكثر من فائدتهـا ويكون أثرها فى ارباك العقول كبيرا ·

وجميع هذه المزاعم غـير حقيقية ، فلا يصـدق جميع الناس حواسهم ، وتستطيع أن تتحقق بنفسك من هذا اذا ما خالطت العامة من الناس ، وحديث السراب عند الفلاحين القاطنين على أبواب الصحراء معلوم ومعروف ، ليس هذا فقط ولكنك تسمعهم يقولون : « خيل لى كذا ، وظننت أنى رأيت شبحا ، وسمعت صوتا ينادينى » الى آخر هذه الأوهام والخيالات ، فالرجل العامى لا يثق بحواسه كل الثقة وان كان يعتقد أنها الباب الوحيد للمعرفة ، فخـداع الحـواس أمر

معلوم لعامة الناس ، ولم نفعـل نحن شـيئا الا أن نوضـحه ونظهره فى هذا المظهر القوى ٠

وأما أن هذا الكلام مربك للعقل فلا خوف عـلى العقـل من اثارته ، ذلك لأن الذى أثاره فى الأصل هو العقل ، وهو الذى يثيره الآن ، فوظيفته تقوم أولا على النقد ، والنقد هو استقصاء جميع الحالات الممكنة لشىء من الأشياء ، ثم ترجيح أحد أوجهها على باقي الوجوه الأخرى ، وأنت اذا ما اعترفت بصحة هذه المآخذ التى أخذتها النظرية العقلية (Rationalism) عـلى الحـواس ، فقـد اقتنعت الى حد محـدود بصحة هذه النظرية ٠ وبعبارة أخرى ، قد حكمت (بتشـديد مع فتح الكاف) عقلك فى حقيقة المحسوسات وخضعت لحكمه ٠

وبعد ، فماذا تزمع النظرية العقلية فىالمعرفة أن تصنع؟ هل تقنع بالنقد والتشكيك فى صدق الحواس ؟ هل كل عملها أن تهدم ؟ أليس لها نظرية ايجابية فى المعرفة ؟ ألا تستطيع أن تدلنا على كيف نحصل عـلى المعلومات والمعـارف أولا ، وكيف حصلنا على ما عندنا من معلومات ثانيا ٠

تعتقد النظرية العقلية فى المعرفة أن الباب الوحيـد لهذه المعرفة انما هو العقـل ، العقل هـو الأداة الصـادقة الوحيدة الموثوق بها فى الوصول الى المعـارف والمعلومات ، فكل ما تستطيع الحواس أن تفعله لنا هو أن تقدم لنا بعض الخيالات أو المظاهر التى لا نستطيع آن نتآكد من صحتهـا عن طريق الحواس نفسها ، تزعم العين مثلا أنها ترى شـيئا معينا ، ولكن جميع الحـواس مجتمعة لا تسـتطيع أن تدل

الانسان على أن ما زعمته العين صحيح أم غير صحيح ، حقيقة أم وهم وخيال . فالحواس تقدم لنا أشياء مفردة ، قطعا متناثرة مهوشة من المظاهر الطبيعية ، لا تستطيع الا أن تقدم الأشياء شيئا فشيئا ، فهذا مقعد ، وذاك مصباح ، وهذه صورة وتلك آلة التليفون ، كل واحدة من هـذه الأشياء تدخل الى أذهاننا مستقلة منفصلة ، دون أن يكون للواحدة منها علاقة بالأخرى ، فاذا رأيت انسانا مصوبا مسدسا الى انسان آخر ، فيكون كل ما تراه هو الأشياء الآتية :

١ ــ رجل واقف فى مكان معين .

٢ ــ قطعة من الحديد طولها شبر .

٣ ــ رجل آخر يمسك بقطعة الحديد هذه ، ويصوبها الى الرجل الأول .

هـذا كل ما يقع تحت حسك ، لا تتصل عن طريق حواسك الا بهذه الأشياء الثلاثة ، كل منها منفصل عن الآخر لا تربطه به رابطة .

بعد ذلك يبتدىء العقل يربط هـذه الأشـياء جميعا برباط ، ويوجد بينها علاقة ما ، هذه العلاقة وذلك الرباط لا يدخلان فى دائرة الحواس ، فانت لا تستطيع أن ترى قتيلا، ولا ترى سجنا أو محكمة ، ولا ترى دماء أو تسمع أنينا ، كل هذه أشياء علاقات يوجدها العقل ، فهو الذى يقدر أثر هذا الفعل فى قوات الحكومة التى ستتحرك لهـذا العمل ، وفى النظم الاجتماعية التى ستتأثر بهذه الفوضى ، وأثر هـذه الفوضى فى العائلة التى سيقع عليها الاعتداء ، وفى تلك التى سيقع منها الاعتداء أيضا ، كل هذه العلاقات والصـلات بين

المحسوسات يقدمها العقل ، هو الذى يقدر أثر هذه الظاهرة فى تلك ، وعلاقتها بهـذه ، هو الذى يوحد هـذه الظواهر المتباينة المختلفة التى ندعوها مدركات حسية فى نظام واحد، فيوجد من الاختلاف اتحادا ومن عالم الأشياء المنوعة عالما واحـدا مرتبطا بعضـه ببعض ، من الفـوضى يخلق نظاما متناسقا يتمم كل جزء فيه الجزء الآخر ، هو لا يهتم بالمدركات الحسية كل على حدة ، ولكنه يهتم لها منظومة فى كل واحد ، تخضع لقوانين عامة شاملة ، ينطبق كل من هـذه المدركات المفردة عـلى قاعدة عامة تصـلح فى جميع الحـالات ، فاذا ما رأينا شيئا معينا نقدمه للعقل ، وهذا يأخذ هـذا الشيء وينسبه الى مبادىء وقواعد عامة عنده ثم يصدر الحـكم فى شأنه ٠

ولنأخـذ شيئا آخر يسـاعدنا عـلى فهم هـذه النظرية ـ النظرية العقلية فى المعرفة ـ وهـذا الشيء هـو قانـون السببية أو نظام السببية ، هذا النظام لا يمكن أن يخضـع للحواس ، ولا يمكن أن يدرك بالحواس لأنه لا يقع تحتهـا بحال من الأحوال ، انسان مريض بحمى الملاريا ٠ فماذا نرى فى هـذه الحالة ؟ ما الأشياء التى تقع تحت حواسنا ، هى أولا الرجل بالطبع ، لأننا نراه ونلمسه ونسمعه اذا أردنا ، ثم حرارته المرتفعة قليلا أو كثيرا لأننا نستطيع أن نضـع مقياس الحرارة فى فمه ، فنجد أن الزئبق يرتفع عن المعتاد ، أو نستطيع أن نلمس يده فنحس بارتفاع حرارته ، ثم يأتى الطبيب ويحلل دمه فيرى (أو يشـاهد بالعين) نـوعا من الميكروبات المعينة ، ثم نستطيع أن نصغى (بأذننا) لشكاوى

الرجل وآلامه الى آخر هذه الأشياء ، عند هذه النقطة ينتهى عمل الحواس ، هذا كل ما نستطيع أن نصل اليه من المعلومات والمعارف ٠

ولكن هنالك صلة غابت عن الحواس ، لأنها لا تقع فى دائرتها ، هذه العلاقة هى السببية ، ما الذى سبب الآلام لهـذا الانسان وأخل بدرجة حرارته وبالنظام الآلى لأعضائه . السبب فى كل هذا انما هو هذه الميكروبات المعينة التى وجدناها فى الدم ، ولـكن فى هذا الدم بالذات ملايين فوق ملايين من الأحياء ، فلماذا هى الأخرى لم تسبب حمى الملاريا ؟ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك لأن العقل لا يربط بين أى من هـذه الأحياء وبين الحمى برباط السببية ، انما هـو يرى هـذه العلاقة ـ علاقة السببية بين شيئين ـ بين هـذا النوع المعين وحمى الملاريا ٠

وعلى كل حال ، سواء آكانت الملاريا قد نتجت عن هذا الميكروب أم عن سواه ، فانما هنالك حقيقة واقعة ، وهى أن العقل يستطيع من تلقاء نفسه ودون مساعدة من الحواس أن يوجد بعض العلاقات بين الأشياء ، يستطيع أن يربط بين شيئين فيـدعو أولهما فى الترتيب الزمنى سـببا وثانيهما نتيجة ، هذه العلاقة هى من خصائص العقل وحده ، أو من نظمه التى يطبقها على فوضى هذه المدركات الحسية المنوعة ، هى ضرورة عقلية (Mental Category) أو ملكة يستطيع بها أن يصل الى المعارف والمعلومات ٠

والنظرية العقلية فى المعرفة (Rationalism) تزعم أن الحقائق التى تصلنا عن طريق العقل انما هى حقائق (Truths)

فى الواقع وليست خيالات وأوهاما كالخيالات والأوهام التى تقدمها الينا الحواس على أنها حقائق ، ومن ضمن هذه الحقائق هذه السببية ، فلكل نتيجة سبب ، ولا يمكن الا أن يكون لكل نتيجة سبب هذه حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ٠

والشاهد على أن الحقائق (Truths) انما هى هذه التى نصل اليها عن طريق العقل والمنطق هو العلوم الرياضية ، الحساب والهندسة والجبر ، هذه العلوم هى حقائق عقلية وليست حسية ، وبمعنى آخر قد اكتشفها العقل دون الحواس ، فلم نشاهدها ، ولم نسمعها ، ولم نتذوقها ، وانما توصلنا اليها عن طريق العقل والمنطق ولا يخفى أن المنطق هو من أخص خصائص العقل ٠

وأية قضية رياضية تكفى لأن تثبت أن الحقائق العقلية هى حقائق وليست أوهاما أو خرافات ، ثم هى أيضا حقائق أزلية لا تتغير بتغير الظروف والأحوال ، هى حقائق هنا فى هذا العالم الأرضى وحقائق فى جميع العوالم الأخرى ، خذ مثلا هذا الرقم ٥×٩ = ٤٥ ، هذا الرقم حقيقة من الحقائق الثابتة ، فالعلاقة بين الخمسة والتسعة على هذا الوضع انما هى ٤٥ ، لم نصل الى هذه الحقيقة بالحواس ، لأن الحواس لا تستطيع أن ترى فى هذا الرقم (٥ × ٩) الموضوع بهذا الشكل الرقم ٤٥ بأية حال من الأحوال ، ولكن العقل لا يرى غير هذا الرقم أى ٤٥ يصلح كعلاقة بين ٥×٩ ، أو خذ مثلا الحقيقة الآتية وهى أن مجموع زوايا المثلث تساوى ١٨٠ درجة ، فكل مثلث ، فى أى كوكب من الكواكب وفى أية حالة

من الحالات يخضع لهذا القانون العام ، وهذه الحقيقة انما هى من مكتشفات العقل وحده ·

بعد هذا الشرح المستطيل للنظرية العقلية (Rationalism) فى المعرفة وبعد هذا التفصيل الذى نعتذر عنه ، نقول ان هذه النظرية تزعم أن العقل الانساني يخلق في هـذا الوجود وهو مزود بمعلومات ومعارف وقضاياخلقت معه(Innate ideas) وهو يطبق هذه القضايا العامة على الاختبارات الخاصة أو على المحسوسات أو موضوعات الحس ، فالأصل فى المعرفة ليس الحواس ، وليس ما تنقله من الدنيا الخارجية الينا ، وانما أصل المعرفة (knowledge) هو فى هذه القضايا العامة الموجودة فى العقل ، والعقل هو الذى يطبقها على مشاهدات الحس ، وهذه القضايا أو النظم العامة هى أمثـال الزمان والمـكان والسببية والعلاقات الرياضية وخضوع الكون لنظام عامل شامل بعيدا عن الفوضى والاضطراب ، وعندما تصـل الينا حقائق الحس ، أو الحقائق التى تكتشفها الحواس ، يأخذها العقل ليضعها فى هذا النظام الجامع الشامل الذى يوجد فيه من الأصل ، أو بعبارة أخرى يصل أشياء الحس بعضها ببعض ويوجد العلاقات بينها ، كالعلاقات المكانيـة أو الزمنية أو السببية ، فنحن لا نعرف الأشياء حـولنا كمـا هى مسـتقلة منفصلة مضطربة مشوشه ، وانما نعرفها وندركهـا لأنها تخضع لهذه النظم العقلية ، نعرفها لأن العقل يسـتطيع أن يوجد بينها علاقات وصلات من عنده ·

فالأصل فى المعرفة ــ فى رأى النظـرية العقلية ــ انما هو القضايا العامة ، والنظم الشاملة التى نستطيع أن نقيس

بها المحسوسات ، نحن نعرف بالعقل أن هنالك شيئا أو معنى اسمه استدارة ، أو عظمة أو انسانية ، أو جمال ، أو حمرة أو زرقة أو نعومة أو سواد ، أو رجل أو كلب ، نعرف هذه الأشياء لأنها قضايا عامة ، العقل يعرف بالطبع « الرجل » وكل رجل فرد في زمان معين ومكان معين يندمج تحت هذا الاصطلاح العام الشامل ، في كل رجل فرد خاصية أو ميزة ، وكل هذه الخواص والمميزات تجتمع في هذا الاصطلاح « الرجل » (Man) ، وكل فرد من الرجال انما هو قطعة من الاختبار (Object of experience) يقع تحت الحواس وأما الاصطلاح العام ، « الرجل » فلا يقع تحت الحس ،وانما هو من القضايا العقلية الكبرى ، أو من الاصطلاحات العقلية العامة التي يختص بها العقل دون سواه ، وهكذا الحال مع جميع الاصطلاحات الأخرى التي ذكرناها مثل استدارة ، وانسانية وجمال ، وحمرة ، ونعومة الى آخر هذه المدركات العقلية .

والنظرية العقلية في المعرفة تزعم أن الأصل في المعرفة الانسانية ، أو المنبع الذى تفيض منه المعلومات والمعارف عندنا انما هو هذه القضايا الكبرى ، هو هذا العقل بأنظمته التي وجدت فيه يوم أن وجد وخلقت معه يوم أن خلق ، ونحن نستطيع أن نعرف لأن عقولنا موهوبة ببعض المبادىء العامة التي نطبقها على المشاهدات الخاصة ، وأن هذه المبادىء العامة هي الأصل ، والأشياء الخاصة أو المدركات الحسية المفردة هي الفرع ، ونحن نستطيع أن نشك في وجود المدركات الحسية ، نستطيع أن نكذب الحواس كما بينا في مفتتح هذا الكلام ، ولكننا لا نستطيع بحال من الأحوال

أن نشك فى وجود المبادىء العقلية العـامة ، قد لا نصـدق العين عندما تنقل الينا صورة الرجل المريض ، وعندما تنقل الينا درجة حرارته، وعندما تنقل الينا صورة ميكروب حمى الملاريا ، قد نستطيع أن نشك فى جميع هذه المدركات الحسية من أولها الى آخرها ، ولكننا لا نستطيع بحال من الأحـوال أن نشك فى العلاقة بين السـبب والنتيجة ، ولا فى صـدق منطق العقل متى استقام منطقه ، ولا فى الحقائق الرياضية لأنها من الحقائق العقلية ، من القضـايا الـكبرى والنظـم الأساسية التى لا يرتقى اليها الشك بحال من الأحوال ٠

وملخص النظـرية العقليـة فى المعرفة أو ما يعـرف بـ (Retionalistic System of Knowledge) هـو هـذا :

١ ـ اننا لا نستطيع أن نثق بحقائق الحس ، لأنها قد لا تكون حقائق على الاطلاق ، وانما هى خيالات وأوهام ٠

٢ ـ ان الحقائق هى فقط تلك التى تأتينـا عن طـريق العقل ، أى بالمنطق ، وبالقواعد الرياضية ٠

٣ ـ ان الحقائق الموضعية ، أو حقائق الزمان والمكان، أو ما يقع تحت الحس ليس الأصل فى المعرفة ٠

٤ ـ الأصل فى المعرفة هو القضايا العامة ، أو المدركات العقلية الكبرى ، أو الكليات الشاملة ، مثل : « الانسانية » و « الاستدارة » و « الرجل » الخ ٠

وبمعنى آخر، نحن لا نعرف بالالهام ولا بالاختبار وانما نعرف بالعقل أو بالمنطق ، فمتى استقامت المقدمات وصلحت كانت النتائج حقائق ثابتة ٠

الفصل الرابع

الطريقة الاختبارية

Empericism

الطريقة الاختبارية في المعرفة (Emperical method) هي تلك التي تزعم أن المعارف والمعلومات التي تصل الى الانسان ، انما تصل اليه في الواقع ونفس الامر بطريق الحواس ، لا بطريق العقل كما تدعي النظرية العقلية ، وليس لدينا ما نتصل عن طريقه بهذه الدنيا التي تحيط بنا سوى أدوات الحس كالعين والأذن والأنف واللسان واليد ، هذه كل أدواتنا التي بها يمكننا أن نصل الى أي شيء من خواص الأشياء التي حولنا •

نحن لا ننكر أن الحواس قد تخدعنا ، لا بل نزعم أن هذا الخداع والتغرير من عناصر الحواس ، فاذا ما رأيت رجلا أمامي الآن لا يمكنني أن أجزم أن وجوده في الخارج هو الحقيقة وليس وهما أو خيالا ، لا أستطيع أن أحكم اذا كنت أحلم الآن أم في تمام يقظتي ، كل هذا حق لا ننازع فيه ، ولكن مع كل هذا ، وبرغم كل هذا فان الحواس هي أداتنا للمعرفة دون العقل ، ودون هذا الكلام الفارغ عن

الاصطلاحات العامة الشاملة ، والقوانين الأساسية والمعارف الموروثة أو الموهوبة ٠

فهذا « الرجل » الكلى الذى تزعم النظرية العقلية أنه الأصل وأن الرجال المشخصين هم الفرع ، لا وجود له على الاطلاق ، ليس هو بكائن موجود فعلا ، وانما هو تعميم ، واصطلاح عام ، أخذناه من زيد وعمرو وغيرهما ، الأصل فى وجود هذا الاصطلاح انما هم هؤلاء الأفراد الذين يمشون على الأرض ويسعون ويجاهدون لعيشهم ، هؤلاء هم الأصل ، ومنهم أخذنا الاصطلاح العام ، فهذا الأخير ليس له وجود مستقل ، وانما وجوده متوقف على الاختبار أو على موضوعات الحس ، أى على هذا الرجل الذى له وجود فى المكان والزمان ٠

فالنظرية العقلية تزعم أن معرفتنا بالكليات العامة والقوانين النظرية هو الشىء الأساسى ، أو هذه هى المعرفة الأساسية ، فاذا أردنا أن نتحقق من أن مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين ، نستطيع أن نصل الى هذه الحقيقة عن طريق النظريات الهندسية ، أو عن طريق المبادىء العامة بالبرهان المنطقى ، فالأصل هو المبادىء العامة والنظريات الهندسية ، ومن هذه نتوصل الى معرفة هذا المثلث المعين الذى نتحدث عنه ، أما النظرية الاختبارية (Empericism) فتزعم أن الأصل هو المثلث الجزئى ، المثلث الذى يقع تحت حسنا ، ونستطيع اذا أردنا أن نعرف مجموع زواياه ، أن نقيسها ، فالأصل فى المعرفة عندها هو هذه الأشياء المتباينة ، هذه الحوادث المتعددة التى تقع تحت

حسنا ، والتى نستطيع أن نختبرها عمليا ، وهــذه الكليات العامة أو القضايا الكبرى التى تزعم العقلية أنها هى المعرفة الأساسية انما هى فى الواقع مستمدة من الحوادث العادية ، من المشاهدات والمحسوسات ، من الاختبار اليومى ٠

اذا لم يكن الأمر كذلك ، اذا لم يكن الاختبار والمشاهدة هما أصل هذه النظريات العامة ، فمن أين يا ترى أتت هذه النظريات والمبادىء العامة ؟ تسأل الاختبارية هذا الســؤال وتلح فيه فتقول ، أين هو هذا « الرجل » ومن أين أتت هذه « النعومة » وأين هو ذلك « المثلث » أو تلك « الاستدارة » وكيف نستطيع أن نراها بخيالنا ؟ بينما ليس لهـا وجــود واقعى الا فى رأس العقليين (Rationalists) الذين يزعمون هذا الزعم الوهمى ؛ لأنهم شاهدوا هذه الأشياء أو هذه المبادىء العامة فى الأجسام المنثورة التى تعج بها الدنيــا حوالينا ، الواقع أننا رأينا رجالا ، وأشياء ناعمة ومستديرة ، أولا ، وقبل كل شىء ، ثم انتزعنا هذه الصفات من الأشياء المحسوسة وعممناها ، وجعلناها كليات ، فالأصل فى كل شىء هــو هذه الوقائع ، هذه الأجسام وصفاتها ، هــذه القطــع من الاختبارات اليومية وعليها انبنى هــذا الصرح المهيب الذى ندعوه الكليات ، فأنا وأنت نعرف مئات الأشياء المستديرة ، عرفناها أولا وقبل كل شىء ، ثم جردنا منها هــذه الخاصية التى هى الاستدارة ، وزعمنا أنها شىء عام أو كلى شامل ٠

أما هذه المعارف أو المبــادىء الأوليــة التى تخلق مع العقل ، والتى يرثها العقــل عنــدما يولد ، فالاختباريون ينكرونها كل الانكار ، ويزعمون أن هذه هي الأخرى تصل

الينا من الاختبار والمشاهدة ، ومن الاتصال بعالم الأشياء والحس ، ومن الحوادث (Occurences) التى تعج بها الحياة العادية ، والعقل عند المتطرفين من الاختباريين انما يولد أو يخلق كصفحة بيضاء ، أو كاللوحة السالبة فى آلة التصوير ، أو كصفحة من الشمع وعليه تنطبع صور هذه الظواهر وتترك آثارا تتجمع على مر السنين حتى تصبح مجهولة الأصل ، فيزعم العقليون أنها موروثة ، أو مخلوقة مع العقل ، أو وضعت فيه قبل أن يبرز الى عالم الموجودات ، والواقع أن الأمر بخلاف ذلك لأن هذه المعارف والمعلومات هى آثار قديمة لبعض المحسوسات ، تقادم عليها العهد الى أن صار من المتعذر أن يردها الانسان الى أصلها ٠

وبعبارة أخرى ، أن النظرية الاختبارية لا تنكر وجود الكليات مثل « الاستدارة » ولكنها تعتبرها وليدة الاختبار ، وابنة المشاهدات والحوادث ، وليست الأصل فيها كما تزعم النظرية العقلية ، ليس فى عقولنا مبدأ عام اسمه الاستدارة ، فنأخذه ونطبقه على المحسات المنوعة فنقيسها على هذا المبدأ ، وانما هى صفة لبعض المحسوسات ، جردناها وانتزعناها من هذه المحسوسات ، ثم أخذنا نلوكها بألسنتنا ، وقد نستعملها فى بعض الشئون ، ولكن لا أصل لها فى نفسها ، وانما وجودها متعلق بالمحسوسات المشاهدة حوالينا ٠

وحتى العلوم الرياضية التى تعتبرها النظرية العقلية حجر الزاوية فى نظامها ، والتى تبنى عليها القصور العوالى، هذه الأرقام الحسابية والأشكال الهندسية والحروف الأبجدية (الجبر) ليس لها فى نفسها وجود ، وليست أشياء ملزمة ،

أو قضايا واجبة النفاذ كما تزعم النظرية العقلية ، وما هذه الأرقام والأشكال والحروف فى الواقع الا أشياء وضعناها نحن ، وأردناها على أن تكون كما هى الآن ، فليس فى (٥×٩) العدد ٤٥ كما تزعم العقلية ، وانما نحن الذين أردنا هذه الحدود أن تصير كما هى ، نحن الذين فرضنا على هذا الرقم (٥×٩) أن يصير ٤٥ ، بحيث اننا لو كنا نريده أن يكون شيئا آخر لما استطاع أن يعصينا ، هذه فى الواقع مجرد حدود عرفية ، تواضعنا على أن تتفاعل مع بعضها ، بهذا الشكل وبهذا الوضع ، فليس لها هذه القدسية ، وهذا السحر الذى تفرضهما فيها النظرية العقلية ٠

والشيء الذى يوضح الفرق بين النظريتين أحسن توضيح هو مبدأ السببية الذى شرحناه فى الفصل السابق ، هذه النظرية ـ كما يذكر القراء ـ تزعم بأن السببية حقيقة عامة أو قاعدة عامة موجودة فى الكون ، وكان الفضل فى اكتشافها للعقل وليس للاختبار ، هى قضية عقلية لا تقع تحت الحس بشكل من الأشكال ، وانما اكتشفها العقل على طريقته ، أى بالاستنتاج المنطقى ، وبعد أن اكتشفها آخذ يطبقها على موضوعات الاختبار ، بحيث اننا نستطيع أن نستنتج منها ما سوف يقع فى هذا العالم قبل حدوثه ، فالأصل هو هذا المبدأ العام ، مبدأ السببية ، والاختبار هو الفرع ، الحقيقة هو هذا القانون ، والمشاهد هو الحالات الخاصة التى نطبقها على هذا القانون ونقيسها به ، فاذا انطبقت عليه ، أو اذا قيست به فهى حق ، وأما اذا اختلفت معه فليست حقا ٠

ثم تأتى النظرية الاختبارية (Empericism) وتزعم عكس هذا الكلام على خط مستقيم ، فتقول ان الأصل هو هذه

الحالات الجزئية ، هو المشاهد والاختبار ، وما هذا القانون أو المبدأ العام الا تعميم لهذه الحالات الخاصة وبدونها لا وجود له ، فأنت تعرف الكلى « رجل » مثلا من الجزئى ، من هذا الرجل وذلك الرجل ، ومن الرجال الأفراد حولك ، وما التعميم الا عادة عقلية ليس الا ، هذا العقل من عادته أن يوحد الأشياء التى تقع تحت الحس ، ويجعل منها كلا واحدا وينظمها فى نظام واحد ، ولكن يجب أن يسبق هذه العملية المشاهدة والحس والاختبار ·

ففى مسألة السببية هذه ، كيف وصلت الينا اذن ؟ ومن أين جاءت ؟ نحن لا نشاهد السببية ، ولا هى تقع تحت حسنا على الاطلاق ، نرى الشمس طالعة مثلا ، وبعد ذلك يسخن الهواء ، ثم ترتفع الشمس فى الأفق ، وتزداد السخونة فى الهواء ، فلا يقع تحت حسنا فى الواقع الا طلوع الشمس أولا ، ثم سخونة الهواء أما فعل الشمس فى الهواء ، أما عملية التسخين هذه ـ فلا تقع تحت حسنا ، أو نشعل النار، ثم نضع القدر عليها فتسخن ، وهذه العملية بالطبع ـ عملية التسخين ـ لا تقع تحت حسنا ، وكل ما يقع تحت حسنا منها هو النار ، ثم القدر ، ثم الماء داخل القدر ، ثم الاحساس بالسخونة ، وأما السبب والنتيجة ، أما هذه السببية ذاتها فلا تقع تحت حسنا ، لا نشاهد فعل السبب أو أثره فى النتيجة ، ولا نحس بالارتباط بينهما احساسا ، وانما نقدرها تقديرا ونفرضها فرضا ونؤمن بها ايمانا ·

نفرضها فرضا ونؤمن بها ايمانا ، لأن عقولنا تحب ذلك وترضاه ، فهى مغرمة أو معتادة هذا الضرب من الفهم للأشياء ،

اعتادت هذا ودرجت عليه فأصبح هو الطريقة المألوفة لديها فى فهم الظواهر الطبيعية ، فقد اعتدنا أن نشاهد الشمس أولا ، ثم نحس بالسخونة ثانيا ، أى أن طلوع الشمس يسبق السخونة فى الترتيب الزمنى واشعال النار يسبق سخونة القدر فى الترتيب الزمنى ؛ فاعتقدنا أو افترضنا أن الشمس والنار هما السبب والسخونة هى النتيجة ، وليس لدينا أى دليل أو برهان على هذا الا هذه الأسبقية الزمنية ، بحيث لو سخن الهواء أولا ثم ظهرت الشمس ، لاعتقدنا أن السخونة هى السبب وظهور الشمس هو النتيجة ، فالمسألة كلها متوقفة على الترتيب الزمنى للحوادث ، فما يسبق منها نزعم أنه السبب ، وما يتلو نزعم أنه النتيجة ، بحيث اذا عكس الوضع الزمنى للحوادث عكست طبيعة هذه الحوادث ، فيصبح المؤثر متأثرا والخالق مخلوقا ، وهذا وضع خطأ بالطبع •

قد تقول ان عكسهما مستحيل ، فالسبب يتقدم النتيجة ، الا أننا نعترض على هذا الكلام ، ونزعم أن السبب قد يتلو النتيجة ــ وقد نعود الى تفصيل هذا فى المستقبل ــ وانما كل ما تريد النظرية الاختبارية أن تزعمه هو أن هذه النظرية السببية لا تنبنى الا على الترتيب الزمنى ، وهذا وحده لا يكفى للزعم بأن السببية قانون أو مبدأ عقلى عام وجد مع العقل من يوم أن وجد ، بل تزعم على الضد من ذلك بأن الانسان شاهد بالاختبار وبالحس أن بعض الحوادث تسبق الحوادث الأخرى فقسمها جميعا ــ مستندا الى الحس وحده ــ الى أسباب ونتائج ، فالاختبار والحس والمشاهدة هى الأصل وهذا المبدأ أو القانون هو الفرع •

ولكى نزيد هذه النقطة وضوحا نضرب المثل التالى :
نشاهد فى دور السينما بعض الرياضيين يقفزون الى الماء من علو كبير ، فيطير رشاش من الماء ثم يضطرب سطحه اضطرابا كبيرا ، وبعدئذ يهدأ سطح الماء ، ثم يحدث أيضا أن المصور السينماتوغرافى يريد أن يداعب النظارة فيعكس الشريط السينماتوغرافى فماذا نشاهد ؟ نشاهد أولا سطحا هادئا من الماء ، ثم يضطرب هذا السطح اضطرابا شديدا ، يتلوه رشاش كبير ، ثم يقذف هذا الرشاش رجلا الى هذا العلو الشاهق ، بالطبع نحن لا نصدق هذه المظاهر بل نعتقد أنها خدعة ، ولكن لماذا لا نصدقها ونقبلها على أنها حقيقة ؟ لا نفعل هذا لأننا لا نرى هذه الظاهرة فى اختباراتنا اليومية، فلم يقع تحت حسنا أن ماء يضطرب ثم يقذف رجلا مسافة كبيرة ، أما اذا كانت هذه هى القاعدة فى الاختبار والمشاهدة ، أما اذا كنا قد درجنا على هذا الترتيب الزمنى ، لأصبحنا نؤمن بأن الأصل فى وجود الانسان انما هو اضطراب الماء ، يصبح الرشاش هو السبب ، والانسان هو النتيجة ، وكل هذا لأن احدى الظواهر تتلو الأخرى فى الزمن .

وعلى ذلك ، فالزعم الذى تزعمه النظرية العقلية من أن لكل نتيجة سببا كفؤا لها (Sufficient cause) — لا يتحتم أن يكون صحيحا ، ولا يتحتم أن يكون حقيقة ، بل يصح أنه يكون قد فرض على الطبيعة فرضا وان عقلنا هو الذى فرضه دون أن يكون قد اكتشفه أو وجده فى الطبيعة ، وينتج من هذا بالطبع أن مسألة السببية هذه ليست قانونا عاما شاملا، أو نظاما كونيا له وجود مستقل عن عقولنا ، وانما هى عادة اعتادها العقل عندما يفكر ، فقد شاهدنا مثلا أنه عندما

نجد الظاهرة « أ » نجد أن الظاهرة «ب» تتلوها ، ووجدنا بالاختبار أنه عندما نجد الظاهرة «ب» تظهر كلما تقدمتها « ا » فظننا أن هذا قانون عام شامل لا يمكن للكون أن يحيد عنه ، ولكن الانسان بالطبع لم يشاهد جميع مظاهر الكون ، ولم يمر بجميع اختباراته حتى يستطيع أن يحكم بأنه مبدأ عام للكون ، وبما آن العالم لم ينته بعد ، والاختبار لم ينضب معينه ، فقد نشاهد فى المستقبل ما يغير رآينا هذا ٠

وملخص القول في هذه النظرية ـ النظرية الاختبارية (Empericism) ـ ان للمعرفة سبيلا معروفا معينا ، وهو سبيل الحس ، نرى الأشياء والظواهر ونحسها ، ثم نعرفها ، وكل ما يأتينا ويصل الينا من المعارف والمعلومات انما هو مستمد من الاختبار ومن الحس ، نشاهد رجلا وآخر وثالثا ورابعا ، هؤلاء الرجال الأربعة ومثلهم كثير وغيرهم ملايين هم الحقائق ، وأما « الرجل » الكلى ، « الرجل » الذى يضم صفات هؤلاء جميعا بحيث يندمجون فيه ويختفون وراءه ، هذا « الرجل » لا وجود له ولا حقيقة له فى الكون ٠ انما هو فى الواقع تجريد للرجال الذين رأيناهم ولمسناهم فى الاختبار وفى الحياة العادية ، انما هو وهم من اختراع العقل ، ذلك العقل الذى فطر على توحيد الأشياء المنوعة المتباينة فى شىء واحد عام شامل ، والذى يحب التعميم ويبغض التخصيص ، ويحب هذا ويبغض ذاك لأنه اعتاد أن يفكر بهذه الطريقة وبهذا الوضع ٠

الفصل الخامس

النظرية اللا أدرية فى المعرفة

SCEPTICISM

بعد أن تبين أن العقـل قد يخطىء ، وأنه قد يعجز فى كثير من الحالات عن الوصول الى المعرفة ، قامت طائفـة من الفلاسفة تنـكر أمكانيـة المعرفة عـلى الاطلاق ، هؤلاء هم اللاأدريون (Scepticists) ، هؤلاء يزعمون بأن المعـرفة مستحيلة ، وأن الطبيعة أو الكون قد مكر بالانسـان وأخفى عنه المعرفة ، فأصبح الانسان عاجـزا عن أن يصـل الى شىء يستطيع أن يدعوه معرفة صائبة حقيقية ، فالقضـايا التى يزعم بعض الفلاسفة أنها قوانين عامة يخضع لها الـكون ، هى نفسها هذه القضايا التى يتشكك العقل ذاته فى صحتها، فكأن العقل يستعمل أساليبه ووسائله ــ أى المنطق ــ فى اثبات شىء ، ثم يستعمل نفس الأساليب ، ونفس الوسـائل فى نفى الشىء ذاته ٠

ومن طريف ما يذكر فى هـذا الصـدد ، المنطق الذى استعمله زينو (Zeno of Elea) ، الفيلسوف اليونانى القديم ، فى هدم المبادىء العامة فى الحركة والسكون وغيرهما ، فانه

عندما أراد أن يسخر من العقل ومن قضاياه العامة التى يريد أن يحكم بها الكون أورد متناقضاته المشهورة ، منهـا مثـل أشـيل (Achilles) والسلحفاة ، يقول زينـو انه اذا كانت السلحفاة تسبق أشيل فى المكان، فلن يستطيع أشيل أن يلحقها اذا أخذنا بمنطق العقل ، ذلك لأنه عندما يصل أشيل الى حيث كانت السلحفاة يجد أنها قد سبقته الى مكان آخر ، وعندما يصل الى هذا المكان يجدها قد انتقلت منه الى غيره ، وهـكذا الى ما لا نهاية ، والنتيجة المنطقية لهـذا أن أشيل لن يلحق بالسلحفاة ، وأوقع من هذا فى تخطئة القضايا العقلية مثله الخاص بالسهم ، يقول زينو أيضا ان السهم الطائر : اما أن يتحرك حيث هو أو يتحرك فى مكان ليس هـو فيـه ، ومن البديهى أن السهم وهو طائر لا يمكن أن يتحرك فى مكان ليس هو فيه لأن هذا مستحيل عقلا ، ثم لا يمكن أن يتحرك فى مكان هو مستقر فيه ، لأنه اذا كان مستقرا فى مكان معين فلا يمكن أن يكون متحركا ، والنتيجة أن السـهم الطـائر يستحيل عقليا أن يكون متحركا أو طائرا •

بالطبع بعض هذه المتناقضات غير صحيح ؛ لأن الفروض الأصلية فيها أو المقدمات غير صحيحة فتكون النتائج غـير صحيحة أيضا ، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة الواقعة وهو أن العقل ــ عقل فيلسوف معين ــ قد يثبت شيئا بذاته ، وقد يقبله عقـلى وعقلك وعقل بعض الفلاسـفة ، ثم قد يأتى فيلسوف آخر ويدلل على أن هذا الموجود الذى أثبته الفيلسوف الأول قد لا يتحتم وجوده ، بل يحتمل أنه غير موجود أصلا ، وقد نقبل نحن ويقبل بعض الفلاسفة هذه النتيجة ، فكأن

العقل يستطيع اثبات وجود شيء ، ثم يستطيع أن ينفي وجود هذا الشيء ذاته ٠

من هذا ظهرت هـذه النظـرية اللاأدرية التى تزعم أن المعرفة مستحيلة ، فلا يمكننا أن نعرف لا بالعقل ولا بالاختبار والحس ، والنتيجة أننا نزعم أننا نستطيع أن نعرف ، بينما من طبيعة الكون أن يضلل بنا ويخفى عنا المعرفة ، فالمعرفة أصلا (knowing) مستحيلة وكفى ٠

ولكن هذه النظرية ـ وان كانت تجد من الفلاسفة من يتمسك بها فى العصر الحديث ـ الا أنها لم تعد الفلسـفة الغالبة فى هذا العصر ، فجمهرة الفلاسفة يعتقدون أن المعرفة ممكنة ، وأن الانسان يستطيع أن يعرف ، وأن يعرف بكلا العقل والحواس ٠

والواقع أن الزعم باستحالة المعرفة هو فى نفسه معرفة، ونستطيع أن نسأل اللاأدريين هذا السؤال : « أنتم تزعمون أن المعـرفة مسـتحيلة ، فمن أين جاءكم هـذا الزعم ؟ كيف « عرفتم » أن المعرفة مستحيلة ؟ وبفرض أنكم على حق فيما تزعمون فهلا فى هذا البرهان الكافى على أن المعرفة ممكنة ؟ ألم تعرفوا أنتم طبيعة الكون؟ ألم تعرفوا أن طبيعته الأساسية (Its fundamental nature) لا تستقيم مع امكانية المعرفة ؟ » ٠ والواقع أنه سواء أصدق اللاأدريون فى زعمهم أم لم يصدقوا، فالمعرفة (knowledge) ممكنة فى الحالتين جميعا ، فان كانوا صادقين فقد عرفنا طبيعة الكون ، وان كانوا على خطأ فقـد أصبحت المعرفة ممكنة ٠

وقبل أن نفرغ من اللاأدرية ـ ونحن لا نريد الاطالة فيها لأنها لم تعد رأيا قويا فى نظرية المعرفة (Epistimology) نحب أن ننبه الى خطأ شائع ، وهو الخلط بين اللاأدرية والتشككية (Agnosticism) فالأولى منهما نظرية فى المعرفة وأما الثانية فهى نظرية فى الحقيقة أو فى الوجود ، الأولى تزعم أن المعرفة مستحيلة ، والثانية تزعم أنها لا تستطيع أن تحكم هل الحقيقة موجودة أم غير موجودة ، فالأولى تزعم أنه اذا كانت الحقيقة موجودة فنحن لا نستطيع أن نعرفها ، والثانية تزعم أنه حتى بفرض امكانية المعرفة فلا يمكن للانسان أن يصل الى حقيقة الأشياء ، وبعبارة أخرى الأولى تبحث فى المعرفة فقط ، والثانية تبحث فى الوجود (Reality) ذاته ، الأولى معنية بالحق (Truth) والثانية معنية بالحق (Reality) أو (Being) .

بعد أن بينا الفرق بين اللاأدرية والتشككية نعود الى الأولى منهما لنقول ، انها نشأت فى الأصل من الاختلاف الظاهرى بين النتائج العقلية والادراكات الحسية ، بين ما نراه ونحسه وبين ما نستنتجه بالمنطق والعقل ، هذا الاختلاف دعا الى الشك فى امكانية المعرفة اطلاقا .

ولنأخذ مسألة الحركة هذه فنقول ان أشيل (Achilles) الرجل الخرافى السريع الذى يستطيع أن يلحق بأسرع الأشياء المتحركة ، يعجز منطقيا عن ادراك أبطأ الحيوانات سرعة وهو السلحفاة ، ذلك أن المنطق يفرض أن الحركة هى سلسلة انتقالات من مكان الى مكان ، وبمعنى آخر تقسم المسافة التى يقطعها الجسم المتحرك الي عدد لا نهاية له من

المسافات الصغيرة ، ونرجو من القارىء أن يلاحظ هذا التقسيم اللانهائى للمسافة ، فمجموع هذه الأقسام اللانهائية للمسافة ينتج منطقيا مسافة لا نهائية ، وعلى هذا لا يستطيع أشيل أن يقطع مسافة لا نهائية فى زمن مخدود معين، ونخرج من هذا بأن الحركة أصلا مستحيلة ، وهذا هو منطق العقل ، فكأن النظرية العقلية للمعرفة (Rationalism in knowledge) تزعم أنه ليس للحركة وجود مستقل ، وجود فى ذاتها ، وانما هى وهم وخيال .

ولكن الحواس جميعها تثبت الحركة وتؤكدها فى هذه الدنيا التى تحيط بنا ، وليس أثبت عند الانسان العادى ، ولا أدعى للتصديق من هذه الحركة التى يبرهن العقل على أنها محض وهم وخيال ، وليس بخاف أن النظرية الاختبارية لا تقيم وزنا لهذا المنطق ، وانما تعده حديث خرافة ، وتتفق معها فى هذا الزعم البراجماتية ، التى تؤكد لنا بأنه فى كل خلاف بين المنطق والحس يجب أن نصدق الحس ونغفل المنطق، ومع أن هنرى برجسون (Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسى المعاصر ليس من جماعة البراجماتية ، الا أنه يزعم أن هذا هو المعقول ، ففى كل مرة يتعارض المتطق والحس ، يجب أن نصدق الحس لا المنطق .

من هذا بالطبع نبتت نظرية اللاأدريين الذين يحلون المشكل بأسهل الطرائق ، أى بانكار امكانية المعرفة أصلا ، ولكن أسهل الطرائق ليست فى الحقيقة أصدقها أو أقربها للصواب ، فحل الاشكال عن طريق نفى امكانية المعرفة هروب من الاشكال ، لا يجوز ولا نقبله لأنه لا يستقيم مع طبيعتنا

أولا ، ولأن رأى اللاأدريين لا يمكن الدفاع عنه بالقضـايا العقلية كما بينا فيما سبق ، فعندما يزعم اللاأدريون أن المعرفة غير ممكنة ، يزعمون ضمنا أنهم (عرفوا) أن المعرفة غير ممكنة ، وهذا تناقض لا يستقيم لعقل أو لمنطق ٠

ومن جهة أخرى ، فان دعوة اللاأدريين الى هـذا الرأى معناه فى الواقع التردد والهزيمة والكسل ، ولا يقبل مثـل هذه الدعوة أناس فيهـم حيـوية ولهم عزيمة ، فاذا كانت المعرفة غير ممكنة فليقيموا البراهين القاطعة على صحة هذه الدعوى ، أما هذا الموقف السلبى فلا يحل اشكالا ولا يؤدى الى نتيجة تنفع فى الحياة ٠

الباب الرابع

فلسفة البراجماتية

الفصل الأول

كلمة تمهيدية فى البراجماتية
Pragmatism

أول من صاغ هذا الاصطلاح هو بيرس (Charles Pierce) وذلك فى عدد يناير سنة ١٨٧٨ من مجلة البوبيولار ساينس مونثلى (Popular Science Monthly) ومعناه عملى أو صالح لغرض معين أو يؤدى الى الغرض المطلوب ، ثم تناوله ويليام جيمس وفصله فى نظام فلسفى ، ونشره حتى أصبحت هذه الفلسفة تعرف بوليام جيمس ويعرف هو بها ٠

وعندما يبحث الانسان فى هذه البراجماتية يقابل صعوبات جمة ليس من السهل التغلب عليها ، منها أن القارىء يجب أن يكون ملما بتطورات الآراء الفلسفية من عصورها الأولى الى عصرنا هذا ، وهذا بالطبع ما دعانا فى هذا الكتاب الى أن نحاول شرح النظريات الفلسفية شرحا مستطيلا نوعا ما ٠

ومن الصعوبات التى تواجه الكاتب فى البراجماتية ، هذا النظام الذى فرضناه على أنفسنا فى وضع هذا الكتاب ،

فقد يذكر القارىء أننا قسمنا الميتافيزيقا أو علم ما وراء الطبيعة الى قسمين أحدهما نظريات المعرفة والآخر نظريات الوجود ، وأردنا أن نبحث كل واحد منهما على حدة مع ما فى هذا من المشقة والعنت ، وقد كان أيسر علينا أن نتناول النظريات الفلسفية المهمة ونبين وجهات نظرها فى هاتين القضيتين جميعا في نفس الوقت ، كان أيسر لنا لو أنا مثلا تناولنا النظرية العقلية (Rationalism) وفصلنا رأيها فى المعرفة ورأيها في الوجود في الوقت الواحد ، فلو كنا قد أخذنا بهذا النظام لكنا قد أرحنا أنفسنا من العنت الذى نلقاه فى الطريقة التى نتبعها الآن ، وقد يذكر القارىء أننا نوهنا بهذه الصعوبة عندما تناولنا النظريتين العقلية والاختبارية فى الفصلين السابقين ٠

وصعوبة ثالثة تواجهنا فى هذا الطريق الشائك ، وهى أننا كنا قد قسمنا نظريات المعرفة الى شقين ، أحدهما خاص بطرائق المعرفة ووسائلها ، والآخر يعالج حقيقة المعرفة ، هل هذه المعارف والمعلومات التى تصلنا عن طريق الالهام أو التجربة أو المنطق صادقة حقيقية ، وبمعنى آخر هل تنطبق أحكامنا على الأشياء الموجودة حوالينا ، وهل عندما نحكم أن الوردة حمراء ، هل هذا الحكم صائب ، وهل الوردة حمراء حقا في ذاتها دون أن يكون هذا الاحمرار من صنع أجهزتنا البصرية أو المخية ، ثم قد يذكر القارىء أننا أرجأنا بحث هذا الشق الثانى فلم نتناوله بالكلام فيما سبق من الفصول ٠

أما الآن ، ونحن نعالج البراجماتية ، فلا يمكننا ارجاء هذه النقطة ، بل يجب أن نتناولها بالشرح أثناء الكلام على

هذه النظرية الفلسفية . وذلك لأن البراجماتية معنية قبل كل شيء وفوق كل شيء بصواب الأحكام التي نجريها على الأشياء حولنا ، فهي تقوم في الأصل على الشق الثاني من نظرية المعرفة ، وهو هل أحكامنا على الأشياء صائبة . ثم كيف نتحقق من صوابها ، ففي كل دقيقة أو لحظة من لحظات الحياة ، وفي كل حركة من حركات الانسان أو همسة من همساته أو خالجة من خوالجه ، لا يمكن الانسان نفسه أن يحكم على الأشياء والحوادث ، ثم يتصرف في حياته على الزعم أن أحكامه في هذه الأشياء والحوادث صائبة . فهل هذه الأحكام صائبة حقا ، وكيف نتحقق من صوابها . أو ما الدليل القاطع على أنها صائبة ؟

يذكر القارىء طبعا الصعوبات الجمة التي اعترضتنا عندما اعتمدنا على الحواس في الحصول على الحقائق ، فقد تبين لنا بما لا يدع مجالا للشك بأنه لن يمكننا التحقق من صحة المعلومات التي تأتينا عن طريق الحواس ، لأنها كثيرا ما تكون خادعة أو مخدوعة ، فكثيرا ما تخلط الحقائق بالأوهام والخيالات ، فنضل الطريق ولا نعود نستطيع أن نميز بين الحقيقة والوهم ، ثم يذكر أيضا أن المعارف والمعلومات العقلية التي تنبني على فروض ومقدمات منطقية كثيرا ما تكون خاطئة بعيدة عن الصواب لا تنطبق على الحقائق الموضعية (Objective facts) المستقلة ، تبين لنا هذا الاشكال في الفصول السابقة ، وكان لكل من النظريتين رأى في حله ، فالاختبارية تسلم بأن الحواس تخدعنا أو قد تخدعنا في نقل صور الأشياء الى أذهاننا ، ولكنها تزعم في الوقت نفسه أنه برغم هذا الخداع والتغرير ، فان الحواس

هى الطريقة الوحيدة للمعرفة ، لأنه اذا تعذر علينا أن نجد وسيلة أخرى للتحقق من صحة المعلومات التى تصلنا ، فأحرى بنا أن نثق بالحواس ، وأما اذا لم نقبل هذا فكيف الخلاص من هذا الاشكال ، وماذا نصدق اذن ؟ لأنه مع التسليم بكل مزاعم النظرية العقلية فانها تغفل الأشياء والأجسام حوالينا ، فكل موضوعاتها نظرية عقلية أو منطقيـة ، ولا يسـتطيع العقل أن يتصل مباشرة بما يحيط به من أشياء مادية ، فهذه لا تدرك الا بالحواس • حقا أننا لا نستطيع أن نتحقق من صحة الحواس بأى شكل من الأشكال ، ومع ذلك فهى الوسيلة الوحيدة عندنا للاتصال بالأشياء المادية التى تحيط بنا •

ثم تأتى البراجماتية وتوجه كل جهودها الى حل هـذا الاشكال دون غـيره ، نعم انهـا تمس الميتـافيزيقا بجميع نواحيها ــ الخير والجمال ثم المعرفة ثم الوجود ــ ولكنها تمس هذه جميعا ؛ لأنهـا تحاول أن تحل اشـكال حقيقة المعارف والمعلومات التى تصل الينا ، انها تعنى بهذا الموضوع اكثر مما تعنى بأى شىء آخر ، وفى سبيل هذه العناية تمس جميع موضوعات الفلسفة ، فتلقى كلمة هنـا وكلمـة هنـالك ، وتبدى رأيا فى هذه القضية وآخر فى تلك ، ولكنها انما تشغل كل هذا لأنها توغل فى قضية الحكم على الأشياء ، أو التوافق بين أحكامنا التى نجريها على الأشياء وطبيعة الأشياء نفسها ، أو ما يدعونه صحة الحكم (The truth of Judgement) فكلامها على نظرية المعرفة منصب فى الواقع على الشق الثانى منها ، وهو صواب هذه المعرفة أو صدق هذه المعارف •

وقبل أن نعالج نظرية البراجماتية ، ننبه القارىء الى نقطـة مهمـة لا يجب أن نغفلهـا من حسـابنا ، وهى أن البراجماتيـة هى قبـل كل شىء طريقـة فى الفلسـفة . ـ (Method) ـ طريقة لبحث القضايا الفلسفية التى تناولتها النظريات التاريخية المشهورة قبل أن تكون نظرية فلسفية ، أو بمعنى آخر أن البراجماتية هى وسيلة لمعالجة القضـايا الفلسفية قبل أن تكون هى نفسها قضية ، أو حـلا لبعض المشاكل الفلسفية ، فليست أهميتها فى الواقع فى الحقائق الميتافيزيقية التى تتوصل اليها ـ وان كانت هذه الحقائق فى ذاتها مهمة ـ ولكنها أيضا فى الطريقة التى تعالج بهـا حقائق الكون ، فى النهج الذى تنتهجه عنـدما تعـالج هذه الحقائق ، فكأننا فى الواقع أمام رأى فى الوجود وفى المعرفة أولا ، ثم أمام طريقة نستطيع أن نسلكها فى البحث فى هذه القضايا الكبرى، أو كما يقول بابينى (Papini) مثل البراجماتية بين النظريات الفلسفية المتعددة ، كمثـل الممشى فى نزل يوصل بين جميع حجراته ، ففى احدى الحجرات رجل يكتب كتابا فى الالحاد ، وفى غرفة آخرى رجل آخر يسجد لااله طالبا منه أن يثبت ايمانه ، وفى ثالثة كيماوى يبحث فى خصائص بعض المواد ، بينما فى آخرى فيلسوف يبحث فى الفلسفة النظرية (Idealism) ، وفى آخرى واحد من اللاأدريين يدلل على استحالة المعرفة أصـلا ، وجميع هـؤلاء النـاس يستعملون ممشى النزل فى الخروج من حجراتهم والدخول اليها ، وجميعهم من هذه الوجهة يتبعون فلسفة البراجماتية وهم بعيدون كل البعـد عن النظـريات العقيمة ، فكل منهم يسير فى هذا الطريق لقضاء شئونه الخاصة والعامة ·

وهذا ما نقصد بقولنا ان البراجماتية طريقة قبل كل شيء ، وانه يجوز لكل أنواع الفلسفة أن تستعمل هذه الطريقة دون أن تكون هي نفسها براجماتية ، والواقع أننا قد استعملنا هذه الطريقة بالذات في هذا الكتاب من أوله ، في شرح جميع نظريات المعرفة التي شرحناها ، ذلك لأننا التزمنا الأمور العملية والأشياء القريبة منا التي تتصل بحياتنا من يوم الى يوم ، والتي نمارسها من لحظة الى لحظة ، دون أن نتطوح في قضايا عميقة يصعب فهمها على القارىء العادى ، بينما هذا القارىء العادى هو بالذات الذى نعنيه في هذا الكتاب .

الفصل الثاني

قصـة البراجماتية

كتب تشارلس بيرس (Charles Pierce) في سنة ١٨٧٨ مقالا في بوبيولار ساينس مونثلي (Popular Science Monthly) موضوعه « كيف نوضح تفكيرنا » ، وفي هـذا المقـال وضع بيرس أساس فلسفة البراجماتية ، وبذا وجه التفكير الفلسفى الحديث الى جهة غير التى كان يسير فيهـا ، فقـد فتح أمامه طريقا مغلقة لم يكن يدرى لها وجودا قبل الآن ، واذا بهذه الطريق تقود الى حقـائق فلسـفية مهمـة ، كانت تغيب عن الفلاسفة في منعطفات الطرق القديمة التى كانوا يسـيرون فيهـا .

كان سبنسر (Spencer) يقول ، ان معظم معتقداتنا التى نؤمن بها ليس لها صور حسية نسـتطيع أن نردها اليهـا ، فالحرية أو الاختيار مثلا لا يمكن للذهن أن يجد لها صـورة أو شكلا ذهنيا ، نستطيع أن نوضحها به ، وبعبارة أخـرى لا معنى لهذا الاصطلاح فى حياتنا التى نحياها من يوم الى يوم ومن ساعة الى أخرى ، وعلى هذا نستطيع أن نوفر عـلى أنفسنا عناء البحث في وجود هذه الأشياء ، هل هى عنصر من

عناصر الموجودات أو الكون ، هل لها وجود في الخارج ، أم هي خيال ووهم ، نستطيع أن نعفي أنفسنا من عناء البحث في هذا لأن هذه المصطلحات كالحرية ، والقوة ، لا معنى لها ولا صورة أو شكل يستطيع الذهن البشري أن يتعامل معها او يقارنها بغيرها فينصبها بجانب الصور والأشكال الأخـرى ، وينضـدها في نظام الموجـودات كما يفهمها هـذا الذهن • والعقل كما لا يخفي يتعامل مع الموجودات جميعها على هذا الأساس • أساس مقارنة الأشكال والصور الذهنيـة بعضها ببعض • فعندما نقول حديقة مثلا ، تبرز في ذهننا صـورة معينة لهذا الاصطلاح ، صورة لها خصائص ومميزات وحدود واضحة المعالم ، فنستطيع أن نتعامل بهذه الصورة ونستطيع عندما نشاهد شيئا بذاته أن نحكم سـواء أكان هـذا الشيء بستانا أم شيئا آخر لا يمت اليه بسبب •

فاذا لم يكن لهذه المصطلحات صـور وأشـكال ذهنيـة يستطيع العقل أن يتعامل بها ، نستطيع أن نزعم آمنين الخطأ أن هذه المصطلحات ليس لها وجود ذاتي مستقل في الكون ، أو نستطيع أن نزعم أنها حديث خرافة ونسـتطيع أن نلقي بها في سلة المهملات ، أما المصطلحات التي لها معنى أو تصل بنا الى أشياء وحقائق نشاهدها في حياتنا اليومية ، فهـذه المصطلحات لها مدلولات حقيقية أو لهـا معنى حقيقي حتى وان كنا لا نستطيع أن نجد لها صورا وأشكالا ذهنية عندنا ، فالكهرباء مثلا لا صورة ذهنية لها عندنا ، ولا شكل نستطيع أن نراه بعين العقل أو نتخيله ، ومع ذلك فمدلوله ـ أي الشيء

الذى يدل عليه هذا الاصطلاح ـ له وجود ذاتي مستقل في هذا النظام الموضوعي للكون ، وبعبـارة أخـرى فالكهرباء موجود حقيقي حتى وان كان الذهن لا يستطيع ان يتخيلها. ذلك لأننا نشاهد آثارها وعملها في الحياة اليومية . ونستطيع أن نتنبأ بتصرفاتها في الظروف المختلفـة المتباينـة ، ليس للكهرباء اية صورة أو شكل ذهني ، ولـكن لها عملا تؤديه ، فالـكهرباء انما هي ما تسـتطيع أن تؤديه من الأعمـال ، وما تستطيع أن تنتجه من الآثار سـواء أكانت هـذه الآثار والأعمال مفيدة للانسان أم مضرة •

ثم أتى تشارلس بيرس بعد هذا ، وعمم هـذا المبدأ ، فجعله يتسع ويشمل جميع المصطلحات التي ليس لها صور حسية في أذهاننا ، وبذا وضع أساس فلسفة البراجماتية ، دعا بيرس الى تعميم هذا المبدأ وهو أن معنى كل اصطلاح أو فكرة ليس لها صورة حسية ، انما هو في أثر هذه الفكرة أو الاصطلاح في المحسوسات أى في الاختبار والمشاهدة ، كان الفلاسفة عندما يبحثون في اصطلاح معين كالثقل أو القوة مثلا ، يحاولون بطرائق المنطق أن يتوصلوا الى القـوة في ذاتها ، الى جوهر القوة ـ أى الى ماهيتهـا في نفسـها ، الى كنهها ، على أية هيئة توجد بغض النظر عن الأشياء الحسية التي تلبسها هذه القوة ، ثم يتطوحون في البحث في هـذه القضـايا الميتافيزيقية في غير طائل ، ما الثقـل نفسـه (Weight) بغض النظر عن الشيء الثقيـل ، أو ما القـوة بغض النظر عن الأشياء أو الحيوانات القوية ، وهذه الأبحاث لا تغني شـيئا ولا تؤدى الى نتيجة يسـتطيع الانسـان أن يستريح اليها •

نحن نعيش في دنيا مادية ونفسية وكل شيء يؤدى الى تغيرات في هذه الدنيا ، وينتج فيها آثارا واضـحة نلمسـها ونحس بها ونشاهدها في هذه الدنيا ، فلهذا الشيء وجـود حقيقي . والاصطلاح الذى نطلقه عـلى هـذا الشيء صحيح وحق ، فالقوة شيء له وجود حقيقي ، وهـذا الاصـطلاح أو اللفظة « قوة » لها معنى ومدلول ولمدلولها وجـود حقيقي ، ومعناها انما هو في هذه الآثار التي تخلفها فيما نشاهد في الموجودات حولنا ، وبمعنى آخر لا نذلل عـلى الموجـودات بالمنطق أو بالقضايا العقلية من مقدمات ونتائج ضرورية تستتبع تلك المقدمات ، وانما نتوصـل الى اثبات وجـودها بالآثار الحسية التي تنتجها هذه الموجودات في الدنيا التي نعيش فيها ، ونرجو من القـارىء أن يميز بين الاصـطلاح والمدلول ، فالاصطلاح هو الاسـم الذى يعـرف به الشيء ، والمدلول هو الشيء ذاته ، الأول منهما حق عنـدما يكـون لمدلوله وجود حقيقي ، الأول حق (true) والثـاني حقيقي (Real) ويحسن أن نتنبه الى الفرق بين الأثنين .

وعلى ذلك يزعم بيرس أن كل اصطلاح حق (true) اذا كان له مدلول (object) ، والمدلول له وجود حقيقي (Real) اذا كان ينتج بعض النتائج في هذه الدنيا التي نشاهدها ، والا فلا معنى للاصطلاح ولا وجـود للمدلول أو الشيء ، فكل شيء يؤدى عملا معينا في هذه الدنيا له وجود حقيقي ، وللاسم أو الاصطلاح الذى يطلق عليه معنى في عالم المعاني ، اذا جعلنا هذا الحكم مقياسا للحق (truth) وللحقـائق أيضـا ، (Realities) ، أرحنا أنفسنا من كثير من الكلام والألفاظ التي تضللنا في عالم الفكر ، في الحياة اليومية .

والواقع أن كثيرا من الأفكار (ideas) التي لها حظ من الصور المحسوسة ان هي الا دلائل للعمل ، أو اتجاهات الى النشاط ، وقد ننسى صورها أو أشكالها ولا يبقى منها شيء الا قدرتها على حفز النشاط ، أو قدرتها على التوجيه العملي في الحياة • ففي محطة السكة الحديدية مثلا رنين الأجراس لا يعنى عددا معينا من أمواج الهواء ، أو قدرا معلوما من ذبذبات طبلة الأذن عند العالم الطبيعي الرياضي، وانما يكون معناها عنده القطار وموعد سفره والباخرة وأوربا ، فالمعنى الذى يؤدى الى العمل أو الى تغيير في البيئة التي تحيط بالانسان ، أو الى تكيف الانسان لنفسه ولنشاطه حتى يتلاءم مع البيئة ، هذا المعنى هو الحق ، وهو الصواب، والاصطلاح الذى نطلقه على هذا المعنى حق ، اذا ما حفزنا الى الاستجابات المعينة التى يتطلبها الاصطلاح •

فالفكرة (idea) عند تشارلس بيرس ، او عند البراجماتية انما هى مشروع ، أو خطة للعمل والنشاط ، وليست حقيقة في ذاتها ، فعندى مثلا فكرة عن نفير السيارة التي تسير في الشارع ، ولا معنى لأن أبحث في حقيقة هذه الفكرة ، أصلها ومنشئها ، هل هي حقيقة أم من خلق العقل، وهل هي من عمل الأذن والجهاز العصبى ، أم هى من عمل النفير أو السيارة أو غيرهما ، وانما يجب أن يكون معناها الانحراف يمينا أو يسارا وافساح الطريق للسيارة ولراكبها، معناها أن أشرع في تغيير خطة سيرى ، والتوجه الى جهة غير التى كنت أسير فيها ، ومن هذا تزعم البراجماتية أن الفكرة هى مشروع للعمل ، أو خطة للتأثير في البيئة ، هى خطوة في سبيل العمل ، لها ما بعدها ، فالجاذبية مثلا تعرف أولا

بما تفعل فى الأجسـام ، وفكرتى عنها (My idea about it) هى دعوة لى لكى آتناول الأشياء بطريقـة معينـة ، أرفعهـا بشكل ، وأضعها بشكل آخر ، وأحملها بطريقة أخرى ، ثم معنى « الفكرة » عن الجاذبية أن أسير بشـكل مخصوص ، وأتجنب قمم الجبال وأطراف الأشـجار وسـطوح المنـازل والحوائط ، معنى هـذه الفـكرة انما هـو مشروع لعملى وتصرفاتى مع الأشياء وخطة لتصرفى مع نفسى ٠

هذه هى الخطوة الأولى فى البراجماتيـة كمـا وضـع أسـاسها ـ وهى أن البراجماتيـة نظام فلسـفى لتفسـير معنى الفكرة أو العقيدة ، فالفكرة انما هى مشروع للعمل وليست حقيقة فى ذاتها كما تزعم الفلسفة العقلية ، ثم يتلو هذه الخطوة خطوة أخرى اتخذها ويليام جيمس (William James) فيلسوف البراجماتية وحامل لوائها فى هذا العصر الحـديث الى مطلع القرن العشرين ٠

زعم بيرس فى مفتتح البراجماتية آن الفكرة هى خطوة تمهيدية للعمل ، ولاحداث النتائج فى هذا العالم المحسوس ، ثم أتى بعده جيمس وزاد على هـذا أن كل عقيدة تؤدى الى نتيجة مرضية أو حسنة ، انما هى عقيدة حقيقية ، فليست الفكرة مشروعا للعمل فقط ، وانما العمل أو النتائج هى الدليل على صحة الفكرة ، وبذا أخرجنا من معنى الفكرة أو مدلولها الى عالم الحقائق ، فأصبح العمل ، أو النتائج التى ستترتب على الفكرة برهانا على صحة الفكرة بعد آن كان معنى لها ٠

فليس معنى رنين الأجراس فى محطة مصر مثلا قيام القطار والسفر الى الاسكندرية فقط ، كما يزعم بيرس ، وانما تحرك القطار هو الدليل على حقيقة رنين الأجراس ، فهذه الفكرة هي حقيقة واقعية (Reality) لأنه قد انبنى عليها تغيرات متعددة في البيئة ، وأعمال وآثار في دنيا المحسوسات، وأصبح من اللغو وحشو الكلام أن نتساءل : هل يوجد فى العالم الخارجي أجراس ؟ وهل لهذه الأجراس رنين مستقل عن آذاننا ، وهل ما نسمع من صنع الأذن أم من صنع الأشياء (objects) حولنا ؟ كل هذا مجادلات منطقية عقيمة لا ينهمك فيها الفلاسفة العقليون (Rationalists) • وبالطبع ، فى محطة القاهرة جرس له وجود ذاتي مستقل ، ولهذا الجرس رنين له هو الآخر وجود مستقل عن آذاننا ، والدليل على وجود هذه الأشياء الحقيقي (Real) المستقل ، انما هو هذه التغيرات التى حدثت فى محطة القاهرة •

فقيمة الفكرة ليست فى الصور والأشكال التى تثيرها فى الذهن ، وليست فى انطباقها على حقائق الموجودات ، وانما فى الأعمال التى تؤدى اليها هذه الفكرة ، وفي التغيرات التى تنتجها فى الدنيا المحيطة بنا ، ولا يهم فى هذه الحالة حقائق الأشياء في ذاتها ، لأننا نستطيع أن نفرض هذه الحقائق كيفما اتفق ، فما جميع هذه الاحساسات (sense perceptions) الا علامات ومعالم تقود العقل الى التصرف والسلوك •

قد يجوز أن الدنيا فى ذاتها ، الأشياء والأجسام كما هى لا تتفق بحال من الأحوال مع الصورة التى عند العقل عنها ، قد يجوز أن هذه الصورة الذهنية التى عندنا عن

الاشياء لا تتفق مع حقيقة الأشياء ذاتها ، ولكن هذا لا يقدم ولا يؤخر عند الفلسفة التي نبحثها الآن أى البراجماتية ، لآن هذه الصور التى تدخل الى الذهن عن المحسوسات تكفى لأن تجعل هذا الذهن يتصرف بجسم الانسان تصرفا يؤدى به الى بعض النتائج المرضية ، حتى وان كانت هـذه الصور ليست مطابقة للأشياء التى تحيط بنا ·

فالبراجماتية تزعم آن في محطة القاهرة جرسا ، وأن لهذا الجرس رنينا ، تزعم أن لهذه الاشياء وجودا مستقلا ، أو تزعم أنها موجـودة في ذاتها ، والبرهان عـلى حقيقـة وجودها هو تحرك القطار وسفر الركاب الى الاسـكندرية . فاذا كانت الفلسفة العقلية (Rationalism) تزعم أن هـذا حديث خرافة ، وأن حواسـنا خدعتنـا ، فليس فى المحطة جرس ، أو ليس هنالك رنين ، فلهـا شـأنها الذى لا يخص أحدا سواها ، وانما البرهان عند البراجماتيـة عـلى وجود هذه الأشياء يقوم على النتائج العملية التى انبنت عليهـا ·

هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى ـ اذا كانت الفلسفة العقلية تحاول أن تصل الى حقيقة الجـرس ، والى حقيقـة الصوت أو الى كنههما في نفسهما بغض النظر عن احساسنا بهما فلهـا أن تفعـل ذلك ، وانما تكـون كمن يبحث وراء السراب ، فلتجادل ولتستخدم المنطق كما يحلو لها في الكشف عن حقيقة هذه الأشياء بذاتها بغض النظر عن احساسنا بها، وما حقيقتها عند البراجماتية الا فى الأعمال التى تؤديهـا هذه الأشياء ، وفى النتـائج التى تترتب عليهـا ، فمعنى الجرس فى ذاته ، والأصوات فى نفسها انما هو فى تحرك القطارات وسفر الناس ·

ولـكى نوضح هـذا النزاع بين النظريتين ـ العقليـة والبراجماتية ـ نضرب مثلا واضحا يجلو هذه النقطة ويبين الحدود بينهما بشكل ظاهر ، وليكن هذا المثل فكرتنا عن الله ، معظم الناس يؤمنون بالله ، وهذه الفكرة (idea) اما أن تكون خطأ أو صوابا فى حكم المنطق ، فالنظرية العقلية تقول ان الله موجود حقا اذا تبين منطقيا وجوده ٠

أما البراجماتية فتعالج هذه المسألة من ناحية أخـرى ، وتقربها بشكل آخر ، ففى رأيها أن صـواب هـذه الفـكرة لا يتوقف على الضرورات المنطقية ، وانما يتوقف على صلاحية هذه الفكرة فى حياتنا الراهنة ، وفى تصرفاتنـا اليوميـة ، وفى اختباراتنا ، فاذا كانت هذه الفـكرة تؤدى الى نتـائج مرضية فى الحياة فهى صحيحة وصائبة ، وبذلك يكـون الله موجودا ، بغير هذه الطريقة لا نستطيع أن نحكم عـلى هـذه الفكرة أولا ، ثم لا نستطيع أن نثق من حكمنا ثانيا ٠

عند النظرية العقلية الفـكرة صـائبة وحق اذا كانت الضرورات المنطقية تحتم صوابها ، وأما عند البراجماتيـة فالفكرة صائبة اذا كانت تؤدى الى بعض النتائج الواقعيـة فى حياتنا هذه التى نعيشها الآن على كوكبنا هذا ، وبعبارة أخرى تتناول البراجماتية الفكرة من ناحية وظيفتها ، لا من ناحية موضوعها (object) كما تفعـل النظـرية العقليـة ، فالموضوع موجود اذا كان للفكرة وظيفة تؤديهـا فى نظام الكون كما نتعامل معه ونتصل به ، والفكرة صـائبة وحق (true) اذا كانت تنفع أو تصلح لما وضعت له ، ومتى كان الأمر كما ذكرنا ، يجوز لنا أن نؤمن بوجود مدلولها ٠

فالحق (Truth) خادم للتطور أولا وللحياة المثلى ثانيا ، هو وسيلة لرقي الحياة ولبلوغها أو لاتجاهها الى المثل الأعلى الذى تتوجه اليه الحياة ·

قلنا ان بيرس أخذ بمبدأ أن معنى الاصطلاح انما هو فيما يؤدى اليه من الأعمال ، ثم زاد ويليام جيمس على هذا أن ما يؤدى اليه الاصطلاح من الأعمال انما هو البرهان الحق على صدق هذا الاصطلاح (the Truth of an idea) وتمسك بالبراجماتية الى هذه الناحية ، ثم تبعهما جون ديوى (John Dewey) الفيلسوف المعاصر بنظريته فى البراجماتية التى سماها الآلية أو (Instrumentalism) ؛ وبذا خطا بهذه الفلسفة الخطوة الحاسمة التى قلبت النظم الفلسفية رأسا على عقب وحولت مجراها الى ناحية تختلف كل الاختلاف عن النظم الفلسفية التقليدية ، وجون ديوى فيلسوف قوى الحجة مستقيم المنطق ، والحجة والمنطق هما سلاح النظرية العقلية الوحيد وأداتها الفريدة فى الوصول الى الحقائق ، أخذ ديوى هذا السلاح واستعمله بمهارة ولباقة فى مقتل النظرية العقلية ، فتناول نظرياتها فى المعرفة (Epistimology) وحللها تحليلا منطقيا محكما ، وخرج من كل هذا بنظريته هذه ــ الآلية (Instrumentalism) .

درج العقليون من عهد الاغريق الى القرون الحديثة ، من أفلاطون وأرسطو الى ديكارت وسبينوزا ولايبنتز وهيجل على الزعم بأن العقل انما هو أداة للمعرفة ، وهو وحده الذى يستطيع الوصول الى الحقائق فى ذاتها ، أو يستطيع أن ينفذ من الظواهر الطبيعية الى الحقائق فى ذاتها ، أو يستطيع أن

ينفذ من الظواهر الطبيعية الى الحقائق التى تكمن وراءها ، الحواس تصل الى المظاهر فقط ، وتتعامل بالظـواهر فقط وأما اللباب ، وجوهر الوجود ، أو الحقيقة فى ذاتها فلا نصل اليها الا عن طريق العقل أى بالمنطق وحده ، والعقل هو أداة المعرفة ، والمعارف التى تصلنا عن طريقه معارف صائبة حقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا يفســدها علينا خـداع الحواس أو ما أشبه ذلك ٠

ثم ظهرت نظرية البراجماتية ، فزعمت أن الدليل على حقيقة أى شىء انما هو أثر هذا الشىء وعمله ووظيفتـه ، ولكنها تركت العقل كما هو ـ أداة للمعرفة ، فانما وجد لكى يعرف ، ولكن ديوى تخطى هذه الهوة بقفزة واحدة ، فزعم أن العقل فى الواقع ليس أداة للمعرفة (organ of knowledge) وانما هــو أداة لتطور الحيــاة وتنميتها (Instrument for promoting life) فليس من وظيفة العقل أن يعرف ، وليس من عمل الحقائق (Truths) أن تظهر للعقل بشكل يستطيع معه أن يعرفها ، وانما عمل العقل هو خدمة الحياة وتيســير السبل لها ؛ لكى تنمو وتطرد ٠

كان العقل فى الفلســفة التقليدية يشبه رجلا مبصرا يجلس فى احدى المقاهى بجانب رجل أعمى ، والمبصر هــو العقل ، والأعمى هو الانسان الحى الذى يعيش فى هذه الدنيا ويتعامل معها ، فكانت الفلسفة التقليدية ـ أى النظـرية العقلية ـ تقول ان عمل المبصر هو أن ينقل الكون (Truths) الى الأعمى لمجرد العلم بهذه الحقائق فقط ، فكان يقول له مثلا هذا ترام شبرا راجعا الى العتبة الخضراء ، وهذا بائع

ترمس ، وذاك حانوت بدال • وهذا كلب يعدو من الشمال الى الجنوب ، وهذه ورقة فى مهب الريح ، وهذه سماء وتلك أرض ، وذلك مصباح وهذا قلم ، وبعبارة أخرى لا عمل لهذا الرجل المبصر الا أن ينقل الحقائق الموضعية (facts) ـ الحقائق الخارجية الى ذهن الأعمى ، وليس له وظيفة أخرى أو عمل آخر على الاطلاق ، كل ما ينقله الى الأعمى صحيح ، ولكنــه لا عمل له الا المعرفة ــ المعــرفة التى لا غاية لهــا الا تقرير الحقائق كما هى من غير تحريف أو تبديل •

وأما البراجماتية ، فتزعم أن وظيفة هذا المبصر ليست فى نقل الحقائق على أصلها ، لأنه لو فعل هــذا لمــا كان له ضرورة الى جانب الأعمى ، فليس يهم الأعمى أن هذا كلب أو ذاك رجل ، الا متى أراد أن يتعامل معهما ، ووظيفة المبصر فى الواقع هى فى أن يصل بين الحوادث وبين الأعمى ، بحيث يستطيع هــذا الأخير أن يتصرف تصرفا يبعــده عن الأخطار فيحفظ له حياته أولا ، ثم يصل بينه وبين العناصر الضرورية للحياة من مأكل ومشرب ، وبعبارة أخرى لا تعود على الأعمى فائدة من أن ترام شبرا يذهب الى العتبة أو يرجع منهــا ، وكل ما يهمــه من الأمر أن لا يقع فى طريقــه حــين يروح وحين يغدو ، وعلى المبصر أن يباعد بين الأعمى وبين الترام ، ويقرب بينه وبين العناصر الضرورية للحياة ، وكل ما ذكره هذا المبصر للأعمى لا يقدم ولا يؤخر فى حياة هذا الأخير ، مادام لا يوجد أمامه مجال للتعامل مع هذه الأشياء •

ومثل العقل فى هذه الحالة كمثل أى عضو آخر فى جسم الانسان ، كالعين أو الذراع ، فالعين لم تخلق فى الانســان

لتنقل اليه ألوان قوس قزح ، وانما خلقت فيه لتدله على مواضع الخطر تحت قدميه ، فتجنبه المهالك أولا ، ثم خلقت له حتى يميز بها بين التمر والجمر فلا يعود يتبلغ بالجمر ، فالعين أداة للحياة وكذلك العقل سواء بسواء ، ومن هنا سميت هذه النظرية بالآلية أى أن العقل آلة يستخدمها الانسان فى المحافظة على الحياة أولا وفى تنميتها واضطرادها ثانيا ٠

ثم تلت هذه الخطوة من جون ديوى خطوة أخرى، اتخذها شيلر الانجليزى (Schiller) وهى البشرية أو (Humanism) وهذه أيضا فصيلة من البراجماتية ، وهى تزعم أن أى حق (Truth) من وجهة نظر الانسان يجب أن يخدم مصلحة هذا الانسان دون غيره ، فمقياس الحقائق (Truths) عند شيلر ليس فى التطابق بين الاصطلاح أو الحكم وبين الأشياء الخارجية ، وانما مقياس الحق هو فى خدمة الجنس البشرى ، فكل ما من شأنه أن يخدم الانسانية فى النهاية ، وكل ما من شأنه أن يأخذ بيدها الى الحياة المثلى انما هو حق دون أى اعتبار آخر ، ودون التفات الى ما يزعمه العقليون من أن الحكم على وجود الشيء صواب متى كانت الضرورة المنطقية تتطلب وجوده ، وبمعنى آخر اذا زعمنا بأن الجنة لها وجود، فان هذا الحكم حق (true) اذا كان العقل يرى بالمنطق أن وجودها ضرورى ، هذا الكلام لا يرضى النظرية البشرية (Humanism) لأن هذه تزعم أنه اذا كان من فكرة الجنة نفع للانسانية ، فهى موجودة حقا ٠

وتتلخص قصة البراجماتية فى الخطوات التالية :

١ ــ زعم هربرت سبنسر بأن الفكرة التى لا صورة لها فى الذهن ، تكون فكرة لا معنى لها فى الواقع ٠

٢ ــ ثم أتى بعده بيرس فزعم أن الفكرة التى تقود الى العمل تكون فكرة صالحة وحقيقية ٠

٣ ــ وتبعه ويليام جيمس فزعم أن هــذا العمل الذى تؤدى اليه الفكرة انما هو البرهان القاطع على صحتها ٠

٤ ــ ثم خرج ديوى بنظريته من أن الأصل فى الفكر أو العقل ليس المعرفة ، فليس العقل أداة للمعرفة وانما أداة للحياة ٠

هذه كلمة اجمالية عن البراجماتية وسيتلوها التفصيل فى الفصول التالية ٠

الفصل الثالث

قصــة الحواس

قصة الحواس قصــة طريفــة لذيذة ، فيها عبرة كبيرة ودروس متباينة يصح أن نتناولها بالشرح ؛ لأنها تستطيع أن تلقى ضوءا كبيرا على ما نتناوله من أبحاث فلسفية ·

لقد كان العقل آخر الوافدين الى هذه الأرض ، وآخــر حلقة فى التطور الانسانى الحديث ، لم يقف التطور عنــد العقل ، ولا نظن أن الكون سينتهى الى هذه النهاية فلا يتقلقل عنها أو يسير الى ما بعدها ، وانما نظن أن فى طيات الطبيعة مفاجآت أخرى لا نعرف على التحقيق كيف تكون ولا ما هى ، وانما نستطيع أن نتكهن بالاتجاه العام لهذه الحركة الكونية تكهنا قد يكون قريبا من الصواب وبعيدا عن الخطأ الى حــد محدود ، ولكننــا لا نزمع أن نتــكهن هنا ، فليس لنا شــأن بمستقبل الحياة والعقل والحقيقة (Reality) ، وانما نزمع أن نقتفى آثر العقل من عهد أن وفد على هذه الأرض ، الى حين ادعائه بأنه هو الحكم الوحيد فى مسألة الحقيقة والمعرفة ·

ولا نريد أن يفهم من كلامنا هنا أن العقل وافد غريب على هذا الكون ، لا نزعم أنه حل فيه من مكان مجهــول ، أو كان معدوما من الكون فأصبح موجودا فيه ، أو أنه خلق في عصر معين من عصور الحياة على الأرض ، لا نزعم شيئا من هذا فليس لنا بهذا شأن الآن ، وانما كل ما نريد أن نقوله انه أتى على هذه الأرض حقبة من الدهر لم يكن العقل فيها واضحا ظاهرا يصرف أمور الحياة كيفما أراد ، أتى زمن كانت الأحياء عامة ـ والانسان خاصة ـ يناضل عن حيــاته بالغريزة وحدها ، أى أنه لم يكن للانسان عقل يستعمله فى الكفاح للحياة ، كان يسمع الحركة بين الأغصان فتثور فى نفسه الداخلية عوامل ونــوازع لا يدرى كنههــا ، ولا يقف ليفكر فيما عسى أن يكون أصل هذه الحركة لأن لا عقــل له يفكر به ، فما كان له الا أن يستجيب لهذه الدوافع النفسية الخفية ويهرب ، وقد يكون هروبه لغير سبب وجيه يستحق الهروب ، ولأن العقل لم يكن قد ظهر فيه بعد ، لم يكن من شأنه أن يبحث وراء العلة والسبب لهذه الدوافع الخفية التى تريد أن تحمله على الهروب ، كان اذن يهرب وكفى ، وكان يكتفى من نظام الكون كله بالهروب ، ثم ينسى الحادث ويعود الى طلب القوت ·

كان جهازه يتأثر من الحوادث بطريقة آلية ميكانيكية لا دخل فيها للفكر أو للذاكرة ، فكان اذا ما جدت حالة أو طرأ حادث ، أو ظهر في البيئة شيء لم يكن موجودا فيها في اللحظة الماضية استجاب جهازه للحادث استجابة عجلى، استجاب لها بطريقة آلية ، شأنه فى هذا شأن كفة الميزان تهبط اذا ما وضع فيها ثقل ، وتشيل اذا ما رفع عنها بطريقة ميكانيكية

محضة دون أن تكون للميزان ارادة أو رأى ، هكذا الحال مع الانسان قبل بزوغ العقل فيه ـ العقل بجميع عناصره من تذكر الى موازنة الى تخيل وغير هذه العناصر ، كان فى هذه الحالة بعيدا كل البعد عن أن يكون فكرة ، أو يحمل صورة ذهنية معه يسير بها أنى سار ويستعملها عندما يريد ٠

وبعبارة أخرى، كان الانسان يتصرف بطريقة آلية محضة عندما يحدث له حدث ، وعندما تظهر فى الكون احدى ظواهره ، ولنفرض أن هذا الحدث أو هذه الظاهرة انما هى حيوان من حيوانات الغاب ، فى هذه الحالة يتطلب جهاز الانسان ـ أى غريزته ـ عملا سريعا حاسما دون أى اعتبار آخر ، فاما أن تظهر فى داخل الانسان عوامل الخوف فيهرب ، أو تظهر فيه عوامل الجوع والنضال فيناضل ليأكل، ثم يدور الدولاب ، ويتغير الوضع وتبدو ظواهر أخرى للكون ، فتنمحى هذه اللوحة من وعى الانسان ، لا يبقى لها أثر من الآثار يدل عليها ، فلا يعود الانسان مستطيعا أن يسترجع فى ذهنه هذه اللوحة ، أو هذه الصورة أو تلك الظاهرة ، لقد اختفى الحيوان عن عين الانسان فانعدم وجوده انعداما ، وانتهى الأمر على هذا الوضع ٠

شأن الانسان الأول فى هذا كشأن الطفل الرضيع : يمسك بيده لعبة يقلبها كيف يشاء ويضرب بها الهواء أو الأجسام حوله ، يضرب أمه أو ساقه أو أى شىء اتفق وجوده بقرب هذه اللعبة ، ثم تسقط هذه اللعبة من يده ، لقد غابت عن عينيه ، ونحن نعرف بالطبع أنها موجودة على الأرض تنتظر من يلتقطها ، نعرف هذا حتى وان كنا لا نرى اللعبة

نفسها ، وانما نوقن آنها موجودة فى المـكان والزمان ، ثم نحمل لها فى آذهاننا صورة معينة وشكلا بذاته نستطيع أن نتعامل به عندما نريد ومتى شئنا ، نستطيع مثلا أن نصفها وصفا دقيقا لأى انسان ، وصفا يستطيع معه هذا الانســان أن يخلق لها صورة وشكلا فى ذهنه حتى وان كان لم ير فى حياته مثلا لها ، ونستطيع آيضــا أن نذهب بهــذه الصــورة الذهنية الى السوق ، ونبحث فى جميع الســلع التى تعــرض علينا ، ونرفضها لأنها ليست هى اللعبة المقصودة كما هى فى ذهننا ، فكأننا استعضنا عن اللعبة بالصورة الذهنية لها فى جميع معاملاتنا ٠

أما الطفل الذى مر بنا ذكره ، فلا صورة ذهنية للعبــة عنده ، ولا شكل فى عقله يستطيع آن يتناوله ويستعيض عن الجسم ذاته بهذه الصورة ، ليست هــذه الصــورة الذهنيــة للأشياء موجودة عند هذا الطفل ، ولذلك فعندما تسقط منه اللعبة ، لا تغيب عنه فقط ، لا تستبدل مكانا بمكان أو زمانا بزمان وانما تنعدم أصلا ، فلا يعود لها وجود فى هذا النظام الـكونى الذى يعيش فيــه ، فاما أن الشىء فى يده وتحت بصره ، واما لا وجود له على الاطلاق ٠

هكذا الحال مع الانسان الأول ، اما أن تكون الحوادث تحت بصره وسمعه ، وبين يديه تعركه ويعركها ، أو لا وجود لها بالمرة فى فكره أو مخيلته آو عقله ، وبالتــالى لا وجــود موضوعيا (Objective Existence) لها فى هذه الدنيا ، وبمعنى آخر لا وجود لها فى ذاتها ، وجودا خارجيا مستقلا فى الزمان والمكان ، ومن ثم كان الانسان فيما بينه وبين نفسه ، فى

أعماق الليل لا يحمل معه في نفسه صورة أو شكلا لحدث من الحوادث (Events) ، سواء آكان هذا الحدث ، حدوثا بالمعنى المألوف، أم حدثا بالمعنى الفلسفي ، أى جسما أو مادة أو شيئا من الأشياء (object) ، وبعبارة أخرى كانت حواسه تقدم له الحوادث (Events) ، سواء أكانت أجساما أو أشياء ، أم حدوثا زمنيا ، فكان يتناول هذه ويتعامل معها فى الحال ، يتصرف تجاهها ، كأن يعمل عملا أو يمتنع عن عمـــل ، ثم ينتهى الحدث ، وبانتهائه ينمحى من الوجود وينعدم انعداما، ثم ينمحى أيضا من جهازه العصبى وينعدم انعداما مطلقا ، وتعود الحياة الى مجراها الطبيعى •

من هذا يتبين للقارىء أن الانسان فى فجر الانســانية كان يتعامل مع ظواهر الــكون ، مع موضــوعات الحــواس (objects of senses) فقط ، كل ما يقع تحت حسه فهذا يعالجه وأما ما لا يقع تحت الحس فهذا ما لا شأن له به ، فاذا ما كنا نأخذ برأى النظرية العقلية فى المعرفة (Rationalism) ،س ،ب، كنا نزعم كما تزعم هذه النظرية أن موضوعات الحس ظواهر الكون لا حقائقه ، وأن الحقـــائق فقط هى تلك التى نصـــل اليها بالعقل وحده ، فيكون هذا الانسان بعيدا كل البعد عن أن يتصل بالحقائق أى اتصال ، بعيدا عن أن يتعامل بها بأى شكل من الأشكال ، والانسان بالطبع لم يكن معنيـــا بمعنى الظواهر أو الحقائق ، أو بأيها حقائق وأيها ظــواهر حسية خادعة ، وانما كان معنيا بما هــو أمامه بما يقع فى دائرة اختباره ، وفى دنياه وبيئته التى يعيش فيهـــا ، معنيا بدفع ما يكره وبجلب ما يحب ، بدفع ما يخشـــــاه أو يتــوهم أنه يخشاه ، وبالحصول على ما يريده أو يظن أنه يريده •

كانت الحياة عنده هى الغاية من النضال أو الغاية من العيش والحياة والنشاط ، فى سبيلها يهرب ويختبىء ، وفى سبيلها يقدم ويظهر ، كانت كل قواه النفسية من غرائز ونوازع وأجهزة عصبية موجهة الى هذه الغاية دون سواها ، بحيث انه اذا ما لم يشعر أنه معرض لخطر ، أو مدفوع الى جلب شىء أو تغيير حالة كانت جميع الأشياء تستوى لديه ، وجودها وعدمها سواء لديه ، ولتبق اذا شاءت أو لتذهب ان أرادت ٠

ثم كانت هذه الحياة نفسها هى وسيلته فى الدفاع عنها وحمايتها والقيام على مطالبها مهما طلب اليه من ثمن ، كان يرد الماء اذا ألم به العطش الشديد ، يرد هذا الماء ولو كانت تحرسه الشياطين والأبالسة ، ويناضل هذه الوحوش دون الماء مقدما حياته ، أو بالأحرى مستعدا لتقديمها ضحية لهذه الحياة نفسها التى يجعلها الغاية من هذا النضال ، وبعبارة أخـرى كانت الحياة عنده وسيلة وغاية فى الـوقت الواحـد ، هى الوسيلة فى دفع الضر وجلب الخير ، وهى الغاية من الدفع والجلب فى الوقت الواحد ٠

وكانت الحـواس ، سـمع وبصر ولمس الى آخره ، هى الوسائل المباشرة لهذا الاتقاء ولهذا الجلب ، كان ينظر الى الأشياء لا ليفهمها أو يدركها ، أو ينقل الى ذهنه صورة أو شكلا عنها ، كان لا ينظر اليها على أنها أجسام يصح أن يفهم كنهها ويراقب حركاتها لمجرد المعرفة (knowledge) وبعبـارة أخرى ، كانت الحياة عنده وسيلة وغاية فى الوقت الواحد ، تناولا من جوهره المعرفة والفهم والادراك ، أو من جـوهره

الوصول الى ما تخفيه وراءها من حقائق ثابتة (Realities) لم تكن هذه النظرة ، أو هذه الحواس في مجموعها أدوات لتجريد الأشياء من ظواهرها الخادعة . وعناصرها الخيالية الزائلة • والوصول الى جوهر الشيء وحقيقته أى (Its essence and Reality) ، وانما كانت أدوات تحذير وتنبيه ، أدوات استعداد للعمل والتصرف، كانت الحواس آلات الغرض منها اشعار الانسان بأنه مطلوب منه أن يحزم أمره ، ويجمع عناصر نفسه من أجهزة عضلية وعصبية ليعمل أمرا، أو ليفعل شيئا به يغير من نفسه أو من البيئة التى تحيط به ، لم تكن وظيفة عينه عندما تنقل اليه الاحساس بطلوع الشمس أن تنبهه الى هذا الطلوع على أنه حقيقة موضوعية (objective fact) لمجرد المعرفة ، أو تنقله اليه على أنه ظاهرة من الظواهر الكونية التى تحيط به ، حقيقة من حقائقه يحسن به أن يتأملها ليفهمها أو يأخذ بها علما ، وانما كانت تنقل اليه هذه الظاهرة أو الحقيقة على أنها ايذان بالعمل والسعى والنشاط • تنقلها اليه على أنها شيء يتطلب منه عملا ، كأن يسعى الى قوته أو يتقى حرارتها ، أو ايذانا بانقضاء زمن الراحة والسكون •

شأن الحواس فى هذه الحالة كشأن حارس المعسكر ينفخ فى نفيره ، لا لينقل الى من بداخل المعسكر فكرة أو رأيا أو صورة عما يجرى خارج هذا المعسكر ، وانما ينفخ فى النفير ايذانا بالاستعداد للقتال ، فالغرض مما يعمل هذا الحارس ليس هو المعرفة ، أو ايصال المعلومات الى الجيش ، لمجرد ايصال المعلومات ولمجرد المعرفة فى ذاتها ، وانما عمله فى الواقع هو دعوة الى العمل ، أو الى عدم العمل ، وفى هذه

الحالة الأخيرة يكون العمل سلبيا وهو السكون والكمون والانتظار ، وكل هذه أعمال سلبية بمعنى وايجابية بمعنى آخر ، أو سلبية من ناحية وايجابية من ناحية آخرى ·

وبعبارة أخرى ، فان صاحبنا الانسان الأول لم يكن يستعمل حواسه للمعرفة ، لأن الحواس لم تخلق فيه لهذا الغرض ، وانما كان استعمالها عنده هو فى الواقع أول خطوات العمل ، هو العمل الأولى المبدئى الأساسى الذى تنبنى عليه الأعمال اللاحقة ، فكان اذا ما نقلت اليه عينه شبح شىء مقبل ، أو نقلت اليه أذنه حركة أو صوتا ، لم يكن عملها من قبيل فتح الباب للمعرفة أو للفهم ، لم يكن الغرض من هذا الاحساس هو فهم الشىء القادم ، هل هو حقيقة أم خيال ، هل هو ظاهرة حسية خادعة أم غير خادعة ،..لم يكن يسأل نفسه عن حقيقة الشىء وعن قدرة عينه على أداء الحوادث والتعبير عنها ، وعن قيمة ما تنقله العين من وجهة الحقائق ، لم يكن عمل العين فاتحة للفهم والادراك ، أو ايذانا بالتأمل ، ومحاولة التعبير عن حقائق الكون ، وبمعنى آخر لم يكن عمل الحواس مجرد رياضة المقصود منها نقل الموجودات الى الجهاز العصبى ، ليتسلى بها ويرتاض بهذه الصور التى تنقل اليه ، أو يتفكه بها ويحاول أن يصل الى ما وراءها من حقائق الكون والوجود ، لم تكن كل هذه وسائل للاتصال بين الانسان وما يحيط به اتصالا من شأنه التعبير عن الحقائق، وانما كان الاتصال لما يتلو هذا الاتصال من خطى ، ولما يستتبعه من أعمال ، فكأن الحواس ووظيفتها فى الواقع انما هى خطوة أولية في العمل · والتعرف

والنشاط ، وأداء الحواس للأشياء انما هو عمل صامت ، عمل في داخل الانسان، في جهازه وفي عضلاته مقدمة للعمل الواضح الظاهر الذى يقصد منه تغيير البيئة •

أما هل هذا الحيوان الذى يراه الانسان هو حقيقة أم خيال ، هل هو من فصيلة القط أم من فصيلة الكلب ، هل له مخلب أحد من مخلب الأسد أم أضعف منه ، وهل فروته أغزر صوفا من فروة الشاة أم أخف منها ، وهل يسير على أربع أم على اثنتين ، وهل له جهاز نفسى أو عصبى كما للانسان أم ليس له ، وهل ينظر للأشياء كما ينظر الانسان اليها أم ينظر الى الأشياء بشكل آخر وبطريقة أخرى ، وهل الأصل فيه العقل ، أم المادة ، وهل حقيقته الفكرة أم الذرة ، وهل له ارادة وقوة على الاختيار أم هو مسير كما تسير جميع الأشياء ، وهل سلك الطريق الذى يسلكه الآن بناء على رغبة منه ، أم نظام الكون وآليته هى التى دفعت به الى سلوك هذا السبيل ، وهل تستطيع العين والأذن وبقية الحواس أن تنقل عنه صورة حقيقية أم كل ما تنقله عنه الحواس خيال فى خيال ، وهل اذا عجزت الحواس عن الالمام بحقيقته يستطيع العقل والمنطق والنظم الفكرية أن تصل الى حقيقته أم لا تصل ؟ كل هذه الأشياء وأمثالها كثير ، وكل هذه القضايا التى تثيرها نظرية المعرفة (Epistimology) لم يكن لها وجود أو ظل وجود • ولم تكن الحواس تعنى بها قليلا أو كثيرا ، ولم يكن من شأنها أن تعنى بهذه القضايا •

وانما كل ما يعنيها من هذا الشىء أو الجسم ، هو أن تدعو الانسان الى أن يعمل ويتصرف ، تشعره بأنه مطلوب

منه أمر من الأمور يؤديه ، لخيره ولحفظ الحياة فيه ، ولتنمية هذه الحياة •

كان الاحمرار فى التفاح والاصفرار فى الموز دعوة له للأكل ، وملء البطن ، كانت هذه علامات بمقتضاها يسير فى شئون الحياة ومعالم للسير فيها ، فاحمرار التفاح يثير فيـه الشهية ويسيل منه اللعاب ، فيقدم ويقتطف ويأكل ويشبع ، ثم بعد ذلك لا معنى لاحمرار التفاح أو اصفراره ، ليـكن هذا التفاح باللون الذى يريد ، وبالشكل الذى يرغب فيه ، وكان احساسه بحرارة الشمس ليس للمعرفة بأن الشـمس أصل الحرارة ، ورؤيته لأشعة الشمس ليس مدعاة للفهم بأن الضوء يأتى عـلى أمواج أو يأتى فى وحـدات من الذرات ، وانما كان عمل العين هو اشارة للانسـان لـكى ينحرف عن حرارة الشمس ، ودعوة له أن يظل عينيه من الضوء الشديد، بعد ذلك يترامى النظر فى الفضاء يتناول الموجودات بالتقليب والبحث ، عله يجد شيئا يسـتطيع أن يعمله ويحسن به أن يعمله ، أو يجد شيئا من مصلحته أن يتجنبه •

كل هذه الحقائق لم تستطع الفلسفة التقليدية أن تصل اليها ، والفضل فى معرفتها والوصـول اليهـا عائد الى علم الانسان (Anthropology) وعلم النفس وعلـم الحيـاة (Biology) ، فهذه العلوم وحدها هى التى استطاعت أن توجه الميتافيزيقا الى الوجهة العملية أو وجهة البراجماتية ، والفضل فى تطبيق هذه العلوم على قضايا الميتافيزيقا أو قضايا المعرفة (Epistimology) عـلى الخصوص ، راجع الى

البراجماتية ، ولكننا سنعود لتفصيل هذا فى الفصول التالية ، ولذلك سنترك الحديث فيه الآن ٠

وانما ما يعنينا هنا هو أن القضايا التى أثارتها نظرية المعرفة قد اتخذت وجهة جديدة بعد البراجماتية ، وأصبح بحث الميتافيزيقيا فى أيهما أصلح للمعرفة العقل أم الحواس ، وأى الحقائق (facts) حقائق صحيحة (Realities) وأيها ظواهر تخفى وراءها أشياء ربما كانت هى الحقائق ، أصبح هذا البحث نقلا للقضية من وضعها الصحيح ، فقد رأينا أن الأصل فى الحواس ليست المعرفة ، وانما الحياة نفسها من تصرف وسلوك ونشاط ٠

تزعم الميتافيزيقا أن الحواس لا تصل بنا الى حقائق الأشياء وجوهرها ، وانما تعطينا المظاهر والظواهر الخادعة فقط ، وأن جوهر الشيء ، أو الشيء فى ذاته بغض النظر عن الصورة التى تصل الى ذهن الانسان عن طريق الحواس ، هذا الجوهر أو حقيقة الشيء نفسه بعيدة عن أن تنقلها الينا الحواس ، هذا الزعم الذى تزعمه الميتافيزيقا بعيد عن لب الموضوع لسببين :

أولا : أن وظيفة الحواس ليست هى نقل الحقائق كما وضحنا فى الكلام السابق ، ليس من عملها أن تصل فيما بين الانسان والحقائق ، وانما وظيفتها كما تبين لنا انما هى فى اعداد جهاز الكائن للعمل والتصرف ، وحتى لو فرض أن وراء هذه الأشياء التى تدعوها الميتافيزيقا ظواهر ، لو كان وراءها حقائق تختلف عن هذا الذى تنقله الحواس ، لما كان

من شأن الحواس أن تنقل هذه الحقائق ، ليس من عملها أن تنقل الحقائق لأنها خادمة للانسان ، قيمة عليه ، تؤدى له وظيفة القائد للأعمى ، تأخذ بيده عندما يحار في سيره . وتسـير به بين الأجسـام دون أن ترتطم قدماه ، أو تنزلق فيهوى الى قاع الهوة ، والانسان في حالته هذه ، وفي حياته المادية هذه ، هنا وعلى ظهر هذه الأرض يحتاج الى من يجنبه الارتطام بالأجسام ، والاصطدام بالأحياء ، يحتـاج الى ما يبعده عن كل ما يجب أن يبتعد عنه مهما كان مظهـر هـذا الشيء ، ومهما كانت حقيقته وجوهره ، لا يحتاج الانسـان بالطبع الى قواعد النظر وقوانين الضوء في حالته البدائيـة الأولى ، حتى يستطيع أن يجرد الأجسام من ألوانها ، لا بل لا يحتاج أصلا الى تجريدها من هـذه الألـوان حتى يعرف حقيقتها وماهيتها وجوهرها ، وانما ما يحتاج اليه هـو المظهر الذى تظهر به ، والشكل الذى تتشكل به ، يحتـاج الى هذا الغرض دون الجوهر ؛ حتى يباعد ما بينه وبينها اذا كانت مما يحسن الابتعاد عنه ، أو الاقبال عليها اذا كانت مما يستحب الاقبال عليها .

فالأمر هنـا واضـح كل الوضـوح ، فحقائق الأشـياء لا تدخل في حساب الحواس ، وليست الحواس قد خلقت لهذه الحقائق ، وليست هي أدوات الحقائق بحال من الأحوال ، وانما هي أدوات العمل والحياة .

ثانيا : لماذا تصر الميتافيزيقا على اعتبار هذه الظواهر أو الأشكال التى تظهر بها الأشياء مجرد ظواهر بعيدة عن الحقيقة ؟ لماذا لا يكون تعدد الظواهر من عناصر الحقيقة ،

وتعدد الأشكال والمظاهر ذاته هو الحقيقة أو نوعا منها ، لماذا تلح الميتافيزيقا في رد جميع الأشياء الى شيء واحد ، تدعوه الحقيقة (Reality) وتدعو ما عداه خداعا ومظاهر لا أصل لها ، من أين لها أن اللون ، وهو شيء تعده ثانويا بالنسبة للحقيقة ، ليس حادثا (Event) في مجرى الاختبار العادى كالأشياء سواء بسواء ، أليس يمارسه الانسان كما يمارس جميع الحوادث ، أليس يعالجه وينفعل به ويستجيب له كما يستجيب لجميع المؤثرات الأخرى من مادية ونفسية وفكرية ٠

الواقع أن الميتافيزيقا ، في سبيل غرامها بتوحيد الأشياء في نظام واحد شامل ، نظام آلى محكم يخضع جميع الموجودات له ويجعلها كلبنات في هيكل واحد ونظام واحد ، هذه الميتافيزيقا التي تكره التعدد والتباين ، والاختلاف ، وتغرم بالتوحيد والتنظيم وربط الحوادث بعضها ببعض ، هي التي تكره أن ترى أن لموضوعات الحس أصلا أو تجد فيها حقائق (Realities) ؛ ذلك لأن موضوعات الحس كثيرة يعترض بعضها بعضا ، ويناقض بعضها البعض الآخر ، لا تبقى منها حالة على حالتها ، ولا يدوم فيها وضع على أصله ، وانما هي دائمة التغير والتبدل ، لكل شيء منها زمانه ومكانه الخاصان ، فهذا حيوان في مكان معين، ويشاهد في لحظة معينة ، ثم اذا به يرى في مكان آخر وزمان آخر ، والميتافيزيقا تكره هذا التغير والتبدل في الأشياء ، وفي الزمان والمكان ٠

موضوعات الحس كثيرة متعددة لا تنتهي ، ولكل منها طرافته وجدته ، ولكل منها شخصيته وذاتيته ، فكأن كلا منها قائم بذاته ، مستقل منفصل عن سواه ، ولكل منها وجود مستقل عن غيره ، ثم ان جميع موضوعات الحس متقلبة متغيرة تظهر وتختفي ، توجد وتنعدم ، وهذا من الأسباب القوية التي جعلت الميتافيزيقا تنكر على الحس وصوله الى الحقائق بشكل من الأشكال ، وهذا ما دعاها الى أن تعتبر جميع موضوعاته وهما وخيالا وخداعا يبعد عن حقيقة الأشياء كل البعد .

أما اذا كانت الميتافيزيقا (Rationalism) لا تكره في الأشياء هذا التعدد ، ولا تكره منها التغير والتبدل ؛ فقد كانت تسلم للحس بحقيقة ما يمارس من الأشياء .

ولكننا لا نريد أن نوغل في هذا الآن ، لأننا سنعود اليه في موضعه ، وانما يكفي هنا أن ننبه الى الأمور الآتية :

١ ـ ان الحس أدوات للحياة والعيش ولتنمية هذه الحياة وتوفير سبل العيش لها ، وليست أبوابا للمعرفة ، وعلى هذا فمعالجة الحواس على أنها أداة للمعرفة خطأ من النظريتين اللتين بحثناهما في أول هذا الكتاب، وهما النظرية العقلية (Rationalism) والنظرية الاختبارية (Empiricism) .

٢ ـ ان الفضل في رد هاتين النظريتين عن هذا الخطأ انما يعود للبراجماتية ـ تلك النظرية التي نجحت الى حد كبير في اعطاء الذوق العادي (Common sense) حقه الذي يجب

له فى مسائل المعرفه وقضاياها أولا ، وفي الكشف عن وظيفة الحواس الأساسية ثانيا .ثم فى وضع العمل فى المكان اللائق به ، بعد آن كانت الميتافيزيقا قد أولته المكان الثانى بعد المعرفة ٠

٣ ــ توكيد تعدد الحوادث والأشياء والحقائق ، بغض النظر عن ميول الميتافيزيقا للتوحيد ، وزعمها بأن الحقيقة واحدة وليست متعددة ٠

الفصل الرابع

قصـــة العقـــل

كان الانســـان الأول يتعـــامل مع الحـــوادث فى زمانها ومكانها المعينين ، فقد كان الحدث (event) ــ سواء أكان حادثا أم جسما ــ يظهر فى لحظة من اللحظات وفى ركن من المـــكان فيتعامل معه الانسان ، يراه ويحس وجوده ، ثم يختفى الحدث من الوجود اذا ما تحول عن زمانه ومكانه ، وبعبارة أخـــرى كان هذا الحدث خارجا عن منطقة حـــواس الانســـان ، فكان بالتالى لا وجود له على الاطلاق ، معدوما ، بعيدا عن أن يكون عنصرا من عناصر الحقيقة في هذا الكون ، ثم يقفز فى زمان ومكان معينين الى مركز الاحساس فى الانسان ، أى يقع تحت حسه فى أفق نظره أو على مسمع أو ملمس منـــه ، فيعـــالجه بالطرائق المألوفة لديه ، سواء أكان هذا العلاج نضـــالا أم هروبا أم غير هذا من الأعمال والنشاط ، ثم يختفى الحدث بشكل من الأشكال ، يخرج عن منطقة الحس، يتحول عن الزمان والمكان ، فينعدم وجوده أصلا عند هذا الانسان ، ولا نقصد من هذا أنه نسيه ، أو غاب عن ذاكرته ، أو اندس فى ثنايا عقله ، وانما نقصد المعنى الحرفى من الانعدام ، وهو أنه

أصبح غير موجود في الكون أصلا ، من وجهة نظر هـذا الانسان ·

وبعبارة أخرى ، كان الزمان والمكان مجزءين عند هذا الانسان الى قطع صغيرة ، كل منها تلبس جسما او تلازم شيئا ، تذهب معه اذا ذهب وتجيء معه اذا جاء ، لم يكن الزمن الفلسفي ، الزمن الواحد الكبير اللانهائي موجودا في مخيلة هذا الانسان ، لأنه لا مخيلة له أصلا، وانما كان الزمن أزمانا صغيرة ، والمكان أمكنة متعددة ، وكل جزء من هـذين يصحب الحواس في ذعلها وعملها ، فكانت العين تنظر مثلا فترى أسدا ، وتنظر فترى أن لهذا الأسد زمانا يظهر فيه ومكانا يحتويه ، وعندما يختفي الأسد أو يسير الى شئونه ، يختفي معه زمانه ومكانه أيضا ، وبالطبع متى انعدم الزمان والمكان انعدمت الحقيقة أو الجسم الذي يوجد فيه ·

ولكي نوضح هذه النقطة نضرب مثلا ، أنا الآن جالس الى مكتبي في القاهرة أكتب هذا الكتاب ، وعندي الآن في مخيلتي صورة لسفينة من سفن المحيطات الكبيرة ، بقمراتها وأبراجها وسارياتها ومداخنها ، هذه الصورة ، أو بالأحرى هذه السفينة خالدة ما دمت حيا ، وما دمت مالكا لقواي العقلية ، لهذه السفينة وجود حقيقي مستديم ، حقا أنها قد تختفي من بؤرة الذاكرة ، أو تنحرف عن مركز المخيلة ، ولكنها موجودة في ثنايا الذاكرة أستطيع أن أتناولها متى أردت ، وأستحضرها ان شئت ، والسبب في خلود هذه السفينة أنها خارجة عن حيز الزمان والمكان ــ زمان الحس ومكانه ــ الزمان الذي يقاس بالدقائق والمكان الذي يقاس

بالاقدام ، هذا الزمان والمكان اللذان يقعان تحت حس الناس في كل لحظة وفي كل لفتة ، ولكن هذه السفينة خالدة باقية لأنها موجودة في الزمان والمكان اللانهائيين ، الزمان والمكان الفلسفيين ، الذين لا يحدان بحدين أى بالبداية والنهاية ، وبعبارة أخرى هذه السفينة خالدة لأنها تجردت عن زمان الحس ومكانه ، لأنهــا اذا لم تتجرد عنهما لابــد أن تنتهى بانتهاء زمانها وتغيب اذا ما انحرف الانسان من مكانه ، أو انحرفت هى من مكانها .

كانت الحوادث (Events) اذن تختفى من عالم (Universe) الانسان الأول؛ لأنه كان لا يستطيع أن يجردها من مكانها ومن زمانها ، ولا يستطيع أن يضــعها فى الزمان اللانهــائى ، وفى المكان غير المحدود بالأجسام وبالأشياء ، كان يعجز عن تجريدها من صفاتها الزمنية والمكانية ، أو كانت المكانيــة والزمنيــة العنصر الأولى والأســاسى فى حقــائق الاختبــار (facts of Experience) وبالطبع عندما يدور الفلك ، ويتحول المكان ، تتحول معهما الحوادث ، وتصبح عدما ، وكل شيء عنصره الأساسى الزمان والمكان مصيره الزوال والعدم .

ولنأخذ مثلا آخر يوضح هذه النقطة ؛ لأنهــا جوهرية تستدعى الاطالة والشرح ، لنفرض أني طالب صغير في الحول الثاني عشر ، أتلقى علومى الابتدائية فى مدرسة فى سوهاج مثلا ولى زميل وصديق اسمه فهمى فى سنى وفى فرقتى ، أنا أعرف فهمى هذا ، وأعرفه فى سوهاج وفى عام ١٩١٥ مثلا ، أعرفه وهذا المكان وذلك الزمان جزء منه ، فالشارع الذى يقطن فيه والبيت الذى يسكنه ، والمدرسة التى يتعلم

فيها والسنة الميلادية التي يعيش فيها ، كل هذه العناصر الزمانية والمكانية تدخل في تكوين هذا الشخص ، ففهمي هذا كما نشاهده ونلمسه ونسمعه لا يمكن أن يوجد خارج مكانه أو بعيدا عن زمانه .

ثم فرغنا من دراستنا الابتدائية ، ورجعت أنا الى القاهرة مثلا ، وذهب فهمي الى حيث أراد أن يذهب . ولكنني لم أعد للقاهرة وحدي ، وانما عدت بصحبة فهمي هذا ، مع فارق بسيط وهو أن فهمي في هذه الحالة ، فهمي الذي عاد معي الى القاهرة ، تجرد من الزمان والمكان المحدودين ، خرج من هذا الاطار ، ونظم في الزمان اللانهائي والمكان غير المحدود ، انتظم في عالم الفكر ، عالم العقل ، والنظم الكونية ، والعلاقات المنطقية فأصبح خالدا واستطاع أن يعود معي الى القاهرة بينما هو في الصعيد ، ذلك لأن فهمي هذا قد تجرد عن الزمان والعلاقات الزمانية والمكانية ، وأستطيع أن أتعامل معه : أصله بالأشياء والحوادث فيتصل ، وأمنعه عنها فيمتنع ، أقارنه مع أصدقائي فيفوز عليهم في بعض الميادين ويفشل في بعض الميادين الأخرى ، وهكذا .

ثم افرض أننا تقابلنا في القاهرة بعد عشرين سنة من هذا التاريخ ، وبعد أن تصافحنا وحدق أحدنا في الآخر جلسنا نتحدث ونستعيد الذكريات ، ونسأل عن عمل كل منا ، فماذا تظنني فاعلا ، ماذا تظنني أفكر أو ماذا تظنه هو يفكر ، بالطبع أجد نفسي أتعامل مع فهميين لا فهمي واحد وأتحدث الى شخصين لا شخص واحد ، أحدهما فهمي هذا ، فهمي القاهرة وسنة ١٩٣٥ ، هذا الشخص الذي أجد أن

الزمان والمكان عنصران مهمان فى تكوينه ، ثم أجد شخصا آخر وهو فهمي الذى تجرد من الزمان والمكان ، الذى أصبح خالدا غير متغير أو متحول ، لا يكهل أو يشيب أو يتقوس ظهره ، لا يسمن أو ينحف أو يمرض ، فهمي المبتسم أبدا اذا كان من عادته أن يبتسم ، المرح أبدا اذا كان مرحا ، ثم فهمي هذا الذى أتعامل معه فى هذه اللحظة وذلك المكان ، والاثنان بالطبع بعيدان عن بعضهما كل البعد قريبان كل القرب ، فبينهما شيء مشترك ، مجرد عن الزمان والمكان خالد يصل فهمي سوهاج بفهمي القاهرة ، وبينهما اختلاف كبير وتغيرات متعددة أتى بها الزمان والمكان ، أو بعبارة أخرى من فعل الأزمنة والأمكنة .

أما صاحبنا الانسان الأول فلم يكن يستطيع أن يجرد الحوادث (Events) من أزمنتها وأمكنتها ، فكان لكل شيء منها زمانه الخاص ومكانه الخاص ، وعلى ذلك كانت الأشياء زائلة لا دوام لها عنده ، بحيث لو كان قابل فهمي فى سوهاج ؛ لانعدم فهمي هذا بعد أن غادر صاحبنا سوهاج أو قبل ذلك ، أو بالحرى لكان فهمي ينعدم فى كل لحظة يغيب فيها عن نظر صاحبنا ، ويخلق من جديد وبحالة جديدة وشخصية جديدة ، وبالاختصار يكون شخصا يختلف كل الاختلاف عن فهمي الأول فى كل لحظة يظهر فيها ، وبعبارة أخرى كان صاحبنا يشاهد حدثا (Event) أسدا مثلا أو حريقا أو فيضانا ، فيأخذ به علما وتستعد أجهزته النفسية للتصرف فيه بطريقة معلومة ، ثم ينحرف صاحبنا من مكانه ، أو ينحرف الحدث من مكانه فيشاهد نفس الشيء مرة أخرى ، ولكنه فى نظره ورأيه ليس هو نفس الشيء ، وانما شيء آخر

يختلف عن الأول كل الاختلاف ، فالأسد عنده في شمال الغاب غيره في جنوبها ، والنمر في الساعة العاشرة غيره في الساعة العاشرة والنصف ، فلم يكن صاحبنا يستطيع أن يجرد الحوادث من صفاتها الزمانية والمكانية ويحملها معه أني سار ٠

وهكذا الحال مع الأعداد والأرقام ، فأربع بقرات عنده معناها هذه البقرة وتلك والأخرى وغيرها ، ليست أربعا ، وانما هذه وهذه وهذه وهذه ، ثم يسير في شئونه ، فيجد أربع نعاج مثلا ، فلم تكن هذه النعاج الأربع مساوية عنده للبقرات الأربع في العدد ، وانما كانت هي الأخرى هذه النعجة ، وهذه وهذه وهذه ، لم يكن يحمل معه صفات الأشياء العددية بأى شكل من الأشكال ، لم تكن المقارنة بين الأشياء عن طريق الأعداد معلومة لديه ، أولا لأنه لم يكن يستطيع أن ينقل صور الأشياء معه حينما سار ليتعامل بها عند الاقتضاء ، وثانيا لأن جمع المشاهد الحسية الى بعضها في نظام عددى لم يكن معلوما لديه ٠

لم تكن كل هذه معلومة لديه لسبب بسيط جدا ، وهو أنه كان يعتمد على الحس وحده في معاملته للأشياء والحس من عادته أن ينقل الأشياء منفصلة مبعثرة في المكان ، خليطا لا يستطاع تمييزه ، ينقل كل ما يقع تحته من الأجسام في زمان معين ومكان معلوم ، ينقلها دفعة واحدة كلوحة التصوير ، ثم من عادة هذا الحس أن يحيط بشيء واحد احاطة قوية ، وبمعنى آخر لا يقع في بؤرة الحس الا شيء بذاته ، وأما باقي الأشياء فتكون على حواشي هذه البؤرة ،

يحسها الانسان احساسا ضعيفا نوعا ما . بخلاف هذا الشيء الذى يقع فى مركز الحس أو فى بؤرته ·

فعندما كان ينظر الانسان الى الأشياء التى من صفاتها العدد ، أو بمعنى آخر الى أشياء كثيرة متعددة ، لا يستطيع أن يدرك هذه الصفة بالذات ، أى الصفة العددية ، كان كل معناها عنده أنها أشياء وأشياء وغيرها ، وليس معنـاها أن تجمع تحت اصطلاح واحد يجمعها كلها فى نظام فكرى واحد، وانما كان يحس كل واحدة منها على حدة ، أو يشاهد كل شيء بذاته ، ثم ينتقل ببصره الى الحدث أو الشيء الآخر ، وهكذا الى أن يأتى عليها جميعا واحدة فواحدة ، أو بعبارة أخرى كان كما قلنا لا يستطيع أن يجرد هـذه الأشـياء عن زمانها ومكانها اللذين توجد فيهما ، واذ يتعذر عليه هـذا التجريد يتعذر عليه العدد أيضا ، لأن العـدد علاقة معنـوية تقوم بين الأشياء بعيدا عن الحس والمشاهدة ·

لم يكن يستطيع الادراك العددى أو العلاقات العددية ، لأن هذه لا تدرك بالحواس وانما تدرك بالعقل ، فالانسـان منا لا يرى أربع سيارات ، أو عشرة رجال أو اثنتى عشرة عمارة شـاهقة ، لا يرى هـذه العـلاقة العـددية بالعين ، ولا يشاهدها أو يصل اليها عن طريق الحس ، وكل ما يصل اليه عن طريق الحس انما هو الأشياء شيئا شيئا ، الأشـياء كوحدات قائمة بنفسها موزعة فى المكان ·

والصعوبة هنا بالطبع آتية من الزمان ــ زمان الحس والمشاهدة ، أو اللحظة الزمنية التى فيهـا يؤثر الشيء فى

حواس الانسان ويشعره بوجوده الذاتى ، وجود هذا الزمن الموضعى ، اللحظات المستقلة فى الاحساس ، وفى الأشياء المحسوسة هو الذى يخلط على الانسان الأول أو الطفل فى عصرنا الحديث صفات الأشياء العددية ويضيعها تضييعا . فالطفل مثلا يشاهد شيئا واحدا من جملة أشياء فى لحظة ، ثم ينتقل بصره الى الشيء الثانى فى اللحظة التى تتلو هذه ، فكأن دخول هذا الزمن ـ أى تتابع هذه اللحظات فى الاحساس أو المشاهدة هو الذى يفكك العلاقات الفكرية والعددية بين الأشياء ، ويمنعها من أن تندمج فى نظام عددى واحد ، فتصبح خاضعة لهذا النظام يشملها فى المعاملات ويتكلم باسمها فى جميع الأحوال ، ذلك لأن ما يجمع قطيعا من الغنم عندما نتعامل بها بعقولنا ، انما هو عددها ، أى عشرون أو سبعون الى آخره ، ولا يمكن لقطيع من الغنم أن يقع تحت حسنا بالمشاهدة مثلا ، مادام عنصر الزمن يدخل فى الاحساس عندما نتناول كل واحدة بذاتها .

والنتيجة من كل هذا أن العلاقات العددية ، أو العدد كصفة من صفات الأشياء ، لم يكن يدخل فى معاملات الانسان الأول ، كما أنه لا يدخل فى معاملات الطفل الرضيع الآن .

ليس هذا فقط ، وانما تجريد الصفات من الأجسام أو جمع خصائص الأشياء العامة ، ووضعها فى نظام عقلى شامل لجميع الأشياء التى تشترك فى هذه الصفات غير موجود عند الطفل ، ولم يكن موجودا عند الطفل ، ولم يكن موجودا عند الانسان الأول، فالفرق واضح بالطبع بين هذين الاصطلاحين « انسان » و « هذا الانسان » فالثانى منهما كائن حى ،

موجود في لحظة معينة من الزمان ، وموضـــع محـــدود من المكان ، يمشي على رجليه ، له عينان وأذنان وأنف ، يلبس لباســا من لون معين ، له مميزات خاصـــة تميزه عن جميع الناس ، له اسم نستطيع أن نتعامل به في الحديث ، وعنـــد ذكر هذا الاسم ، تقفز الى أذهاننا صورة واضحة لهذا الكائن نفسه دون سواه ، في الدنيا ملايين مثله يشبهونه ، ويتراوح الشبه بينه وبين غيره قربا وبعدا طبقا لاشتراكه مع غيره في الصفات والمميزات ، ولكنه على كل حال واحد من كائنات أخرى كثيرة تشبهه نوعا وتختلف عنه نوعا ٠

أما تجريد « هــذا الانســان » ، وجمع هــذه الصفات المشتركة بينه وبين غيره من الناس فى نظام عقلى واحد ، أما هذا العمل فهو من عمل العقل دون الحواس ، ومجموع هذه الصفات المشـتركة التى نطلق عليهــا « انســان » هى من المدركات العقلية دون الحسية ٠ « فانسان » هذه كائن عقلى واحد لا شبيه له ، عقلى عام شامل ، أو نظام فكرى ثابت غير متغير ، ليس للزمان أو المكان دخل فيه ، لا طول له ولا عرض ، ولا له شكل خاص يميزه عن غيره من الأشياء ؛ لأنه لا يوجد فى عالم العقل « انسان » سواه ، انه فريد فى نوعه ليس له شبيه أو مثيل ، ونستطيع أن نعتبره مثالا لجميع النــاس ، لهذا الانسان وذاك ، لنطبق الأشياء أو الأجسام المادية عليه ، فان انطبقت فهى قريبة من حقيقة هذه الأشياء التى ندعوها أناسا ٠ وان لم تنطبق هذه الموجودات على هذا القانون العام ، فهى بعيدة عن أن تكون أناسا ٠ وبمعنى آخــر ، أن تجريد الصفات من الأشياء ، ووضع هــذه الصفات فى نظام فكرى

يمكن تطبيقه في جميع الحالات لا يقع في دائرة الحس ٠ وبشكل أوضح ، أن المعاني مجردة عن لباسها المادي٠ المعاني مستقلة عن المادة التي تقع تحت حسنا ٠ هذه المعاني هي من صنع العقل وحده ، أو ان لم تكن من صنعه ، وكانت حقائق لها وجود مستقل ، فانما لا تدرك الا بالعقل ٠

واعتماد الطفل ، والانسان الأول على الحواس وحدها يحرمه ميزة أخرى وهي ميزة تحديد العلاقات بين الأشياء ، فكأنه يترك الأشياء مفككة أو مبعثرة في الزمان والمكان دون أن يكون هنالك شيء معنوي يربطها بعضها بالبعض الآخر ، فالقلم والمحبرة (متى كان القلم مغموسا في المحبرة) هما واحد من أمرين ، اما أنهما في نظر الطفل شيء واحد لا انفصال بينهما ولا ارتباط ، وانما هما كل واحد لا يجزأ كقطعة الحجر سواء بسواء، أو هما شيئان مستقلان لا يربطهما ببعضهما رباط معنوي أو فكري ، فالقلم ينغمس في المحبرة متى شاء ويخرج منها متى أراد أو متى أريد له ، وأما معنى هذا الارتباط بينهما ، أو معنى هذه الحركة ـ دخول القلم الى المحبرة وخروجه منها ـ كل هذا يغيب عن الطفل وعن الانسان الأول ، وعن كل انسان لم ير قلما ومحبرة في حياته ، ولم يسمع بهما، هذا المعنى الذي يربط هذين الشيئين انما هو من خلق العقل وحده ، أو هو نظام عقلي محض لا دخل للحواس فيه ٠

- لا ، بل نزعم أن الحواس لا يمكنها أن تربط بين القلم والمحبرة والحبر الذي يترك آثارا على هذا القرطاس، حقا أن كلا من هذه الأشياء الثلاثة ـ المحبرة والقلم والحبر على

القرطاس ــ يدرك بالحواس ، تستطيع الحواس بالطبع أن تتعامل بهذه الأشياء جميعا كما يحلو لها ، ومادامت الحواس سليمة ومادام لا يحال بينها وبين هذه الأشياء ، فانها لابد وأن تنقل هــذه الأشــياء الى جهاز الانســان ، ولابد وأن تجعله يحس وجودها ، هذا حق لا مرية فيه ، وانما حق أيضــا أن نزعم أن الارتباط بين جميع هذه الأشياء لا يمكن أن يقع تحت الحس بحال من الأحوال ، وبعبارة أخرى أن معنى هذه الأشياء مجتمعة ، معناها وهي تتفاعل مع بعضها هذا المعنى لا يمكن أن يدرك بالحواس ، وانما مرجعه الى العقل وحده فهو الذى يفهم هذا الارتباط أو هذه العلاقات بين الأشياء جميعا ، هو وحــده الذى يمــكنه أن يدركها متى أتيحت له الفرصة لذلك ٠

والدليل على ما تقدم ، هو هذه الأشياء التى تقع تحت حسنا في كل لحظة من لحظات الحياة ، هذه الآلات والعــدد التى تملأ علينا فراغ الحياة في كل ركن من أركان المكان ، فآلة الراديو في نظرى مثلا هي في مظهرها الخارجى كتلة من المادة تستطيع أن تخرج الأصوات من جوفها ، وفيها من النور ما يكفى لاضاءة جزء من وجهها ، هذا كل ما يقع منها تحت حسى ، ثم اذا فككتها فاني واجد بداخلهــا قطعــا من الزجاج ، والأسلاك والمعادن ، وكل واحــدة من هــذه لهــا وجودها المستقل، وأستطيع أن أتناولها وأخضعها لجميع أنواع الحس ، أما العلاقات بين جميع هذه الأجزاء فلا يمكننى أن أدركها بالحس ، لا أستطيع أن أدرك معناها الا بالعقــل ، ومعناها هنا انما هو أثر كل جزء فى الجزء الآخر ، وفعل الأجزاء ببعضها ، كيف يتصرف هذا اذا وضع بشكل معلوم

مع الجزء الآخر ؟ وبعبارة أخرى ، أنى لا أستطيع أن أركب هذه الأجزاء بحيث يصبح هذا الراديو صالحا للاستعمال كغيره ، لا أستطيع ذلك لأن هنالك بين الأجزاء وبعضها علاقات لا تقع تحت بصرى أو سمعى أو أنفى ، وانما يدركها عقلى اذا ما تعلمت صناعة الراديو ، ومن يزعم خلاف هذا لا يكون مصيبا ، لأن معنى هذا الزعم فى هذه الحالة أن أى فلاح فى أية قرية مصرية يستطيع أن يركب أجهزة الراديو ويجعلها صالحة للاستعمال الذى جعلت له ، وهذا زعم لا يستقيم للفهم بطبيعة الحال ٠

يتبين من هذا أن العلاقات بين الأشياء انما هى حقائق عقلية وليست مدركات حسية ، فموضوع الحس انما هو الأشياء المادية : الأجسام والأحجار والأشجار ، وأما موضوع العقل فهو المعانى ، والعلاقات بين هذه الأشياء المادية ٠ وعلى هذا فالانسان الأول ـ قبل بزوغ الفكر والعقل فيه ـ لم يكن يفهم علاقات الأشياء بعضها ببعض ٠ وانما كان يدرك كلا منها مستقلا عن غيره ٠ وعلاوة على ذلك ، لم يكن يصل الا الى الادراكات الحسية للأشياء ٠

من هذه العلاقات بين الأشياء العلاقة السببية ، علاقة الفاعل بالمفعول ، أو علاقة السبب بالنتيجة ، أيها سبب وأيها نتيجة ، ولماذا هنالك أسباب ونتائج أصلا ؟ فكل شيء من هذه الأشياء ، أو كل حدث (Event) فى هذا الكون قائم بنفسه فى نظر الانسان الأول يتصرف تبعا لهواه ، فالجرة مثلا تنكسر من نفسها وبمحض ارادتها ، حتى وان كان قد دفعها الى السقوط جسم آخر ، هذه العلاقة السببية بين

الجسم الدافع (انسانا كان أم حيوانا) والجسم المدفوع لا تستبين لهذا الانسان الأول ؛ لأنه لا يمكن أن يدركها بالحواس كما قدمنا وانما لا يستطاع ادراكها الا بالعقل ، وهذا بالطبع لم يكن قد ظهر فى الانسان الذى نتحدث عنه ·

ولكى نوضح هذه العلاقات السببية نضرب مثلا ، افرض أنك جالس الى منضدة عليها كوب ماء ، ويجلس الى جانبك على مقعد مقابل لك طفلك البالغ من العمر الحول الأول ، ثم افرض انك ــ لسبب من الأسباب ــ سواء عن قصد أو غير قصد ــ دفعت كوب الماء بيدك فسقط من على المنضدة وتهشم ، وافرض أن طفلك كان يراقب كل شيء فرأى ما رأيت وسمع ما سمعت من صوت التكسير · فالفرق بينك وبينه انما هو فى هذا : أنت تعرف لماذا كسر القدح ، وتعرف أيضا أن السبب هو قوة الدفع ، والنتيجة هو تكسر القدح ، أما الطفل فلا يربط بين الدفع والتكسير ، حقا أنه شاهد القدح صحيحا وشاهده مكسورا ، لقد رآه على المنضدة صحيحا ثم رآه على الأرض مكسورا ، ثم شاهد الحركة التى تحركتها يدك ، وسمع صوت التكسير ، وجميع هذه الظواهر هى مدركات حسية ، يستطيع من له حواس ومن هو قادر على استعمال هذه الحواس أن يشاهدها ، ولكن الأمر يقف عند هذا الحد ، لأن الطفل لا يستطيع أن يدرك العلاقة السببية بين حركة يدك وتكسير القدح ·

أظن أن الفرق بين الحس والعقل أصبح واضحا جدا ، وأن معنى العقل قد تحدد وفهم على حقيقته · فكل المعانى والعلاقات ، انما هى من المدركات العقلية · كذلك المنطق والرياضيات والاستنتاج ، انما هى من آسلحة العقل · كما أن

العين والاذن والأنف هي من أدوات الحس · أصبح مفهوما أن هذه الاصطلاحات مثل الشجاعة والجبن والمروءة والخسة، والكبر والصغر ، والاحمرار والاخضرار ، والاستدارة ، والانسانية والرجولة والأنوثة ، والضعف والقوة ، والزمان والمكان ، والحسن والقبح · الى آخر هذه المعاني ، انما هى آشياء عقلية (objects of reason) قد يكون العقل هو الذى خلقها وآوجدها ، وقد يكون لها وجود ذاتي مستقل · فلم يفعل العقل شيئا سوى أن أحاط بها أو آخذ بها علما ، أو اكتشفها ، أو عرفها كما يحيط الحس بالأشياء والأجسام ويكتشفها ، ويأخذ بها علما أو يعرفها · بالطبع نحن لا نبحث الآن فى أيهما الأصوب ، هل خلق العقل هذه الأشياء خلقا ؟ أم كانت موجودة قبل العقل وما فعل هذا الأخير شيئا سوى أنه علم بها · لا نبحث فى هذا أو فى أية هاتين النظريتين أحرى بالاتباع والتصديق ، لأن لهذا البحث مكانه وزمانه ، وانما كل ما يعنينا الآن هو هذا ، ان جميع هذه العلاقات ، والمصطلحات والمعانى والقضايا انما هى مدركات عقلية ·

ثم أظنه قد اتضح الآن معنى التنازع بين نظريتى المعرفة اللتين قد بحثناهما فى الباب الأول ، وهما النظرية الاختبارية (Empiricism) والنظرية العقلية (Rationalism) وكيف أن الأولى منهما تزعم أن الحواس هى الأدوات الوحيدة للمعرفة ، وأن موضوعاتها أو الأشياء المادية ــ الأنهار والأشجار والأحجار ــ هى الحقيقة (Realities) التى لها وجود مستقل فى ذاتها ، وأن هذه المعانى والقضايا والمصطلحات انما هى خيالات وأوهام من صنع العقل ولا حقيقة لها فى

الوجود الخارجي، ثم كيف أن النظرية العقلية كانت تناقضها في هذا الزعم ، وكانت تقول ان المـدركات الحسـية (أى الأجسام والأشياء) انما هى خيالات وأوهام لا ظل لهـا من الحقيقة ، انما الحقائق حقا (true realities) هى فى المدركات العقلية ــ هى فى هذه المعاني والمصطلحات والعـلاقات التى يستطيع العقل أن يعرفها ويدركها •

ومجمل القول فى قصة العقل هو هذا :

١ ــ ان الحس يدرك الأشياء بزمانهـا ومكانها اللذين توجـد فيهما • وأما الأشـياء المجـردة عن زمانها ومكانهـا المحدودين فهى من المدركات العقلية •

٢ ــ ثم اذا اعتمدنا على الحس وحده ــ كما يفعل الطفل والانسان البدائي ــ فان الأشياء تدرك اذا كانت فى زمان ومكان معينين ، ثم تنعـدم انعـداما اذا ما تغير زمانهـا أو انحرفت عن مكانها •

٣ ــ الأشياء الحسية خاضعة للتبديل والتغير ، ولـكن المدركات العقلية عليها مسحة البقاء والخلود •

٤ ــ لا يمكن ادراك الصفات العددية للأشياء عن طريق الحس ، فهى من المدركات العقلية •

٥ ــ المعاني المجردة عن الأشـياء والقوانين والقضـايا العامة ، هى الأخرى من المدركات العقلية فقط وليست من المدركات الحسية •

٦ ــ والقضية السببية ــ العلاقة بين السبب والنتيجة ، ومعنى السببية فى شىء بذاته ومعنى النتيجة فى شىء آخر ، انما هذه أيضا من المدركات العقلية ·

٧ ــ هذا البحث ألقى ضوءا كبيرا على نظريتى المعرفة (Epistimology) ، اللتين بحثناهما فى الباب الأول من هــذا الكتاب ·

الفصل الخامس

قصـة العقل أيضـا

نشأت الفلسفة التقليدية وترعرعت فى فراغ ، كانت جميع العلوم فرعا منهـا تسـتعمل طرائقهـا ووسـائلها ، ولا تستطيع أن تصل الا الى النتائج التى تصل اليها ، وكانت وسائل الفلسفة وطرائقها هى الأقيسة العقلية ، والعلاقات والمعانى بعيدة عن الاختبار والتجربة ، فلو تبين عقليا أن الحديد أخف من الماء لقبلت هـذه النتيجة عـلى علاتها دون ردها للاختبار وتحرى حقيقتها أو صحتها ، فلم يكن هنالك للعلم اذن نتائج يحسن بالفلسفة أن تتنبـه لها ولا تغفلهـا وتمعن فى تطوحها فى الميتافيزيقا دون التفـات الى هـذه النتائج ، وانما كانت الفلسـفة هى الوحيـدة فى الميـدان تصول فيه وتجول ، وقولها هو الفصل دون أن يكون هنالك محك لهذا القول ، فاذا زعمت أن للانسـان ثلاث أرواح ، واحدة فى قلبه وواحدة فى بطنه وثالثة فى رأسه ، وزعمت أن للمرأة روحين فقط واحدة فى قلبها والأخرى فى بطنها ، اذا زعمت هذا فليس من يردها عن هذا الزعم مستندا الى علم من العلوم ، أو تجربة أجريت ، أو حادثة شوهدت ، ومن

هنا نزعم أن هـذه الفلسفة قد نشأت وترعزعت فى فـراغ
(in a Vacuum)
.

وبعد أن نشأت وترعرعت عـلى هذه الحال ، اصبح من الصعب جدا آن تتحلل من كثير من مزاعمها حتى وان كان لا يوجد شيء تستند اليه هذه المزاعم ، فالعـرف والعـادة والتقـاليد والأمر الـواقع كل هـذه دعائم تسـند الأفكار والنظريات ، كمـا تسـند المؤسسـات والمنشـآت والنظـم الاجتماعية ، حتى وان ثبت بجميع الطـرائق آنها لم تعـد تصلح للزمن الذى توجد فيه ، فكثير من القضايا الفلسفية ثبت عـلى الدهر فقط ؛ لأنها آمعنت فى القدم ومر عليهـا عصور كثيرة حتى كادت تكتسب صـفة الخلود والتقـديس لمجرد مرور الزمن عليها .

ومن هنا نشأت الصعوبات الكثيرة التى تواجهها الفلسفة فى عصرنا الحديث ، بعد آن آصبح للعلم المكـانة والقدرة والصوت المسموع ، وبعد أن صـارت نتائجه مما لا يمكن لانسان آن يمارى فيها ، وبعد آن آصبح من المتعذر على المفكر والفيلسوف أن يبنى نظرياته الفلسفية فى فراغ كما كان الفلاسفة الأوائل يفعلون ، وآقرب مثـال على وجود هـذه الصعوبات هو نظرية المعرفة كما كانت تتمسك بها الفلسفة التقليدية ، فقد كان التناحر بين نظريات المعرفة هو في كيف تصل الينا هذه المعارف ، وأيها أصدق وأيها أجدر بالقبول ، وظلت النظريتـان ـ الاختبـارية والعقليـة ـ فى تطاحن مستديم ، وتناحر مستمر دون أن يخطر لاحداهما أن تخرج من هذا الفراغ الى العلم والتجربة والتطبيق .

لم تخرجا للتجـربة والتطبيق : لأن العلوم لم تكن قد استقلت عنهما ، ولم تكن قد اتخذت لها طريقـا فى البحث تغاير طرائق الفلسفة ، وبالتالى لم تكن قد تمكنت بعـد من الوصول الى حقائق يصح للفلسـفة أن تسـتفيد منهـا فى أبحاثها عن المعرفة وعن غير المعرفة من المشاكل ، ثم بعد أن استقلت هذه العلوم وكشفت بطرائقها الحديثـة عن كثير من الحقائق ظلت الفلسفة تتعامى عن هـذه الحقـائق ، وظلت تقتتل وتتناحر في فراغ كما تعودت أن تفعل ، وهنا أصـل الداء ومنبت البلاء .

ولا يسع الفلسفة الحديثة أن تنسج على منوال الفلسفة التقليدية ، فانها ان فعلت تقع فى نفس الأخطاء التى لازمت الفلسفة التقليدية ، وتمسى تدور فى حلقة مفرغة كما كانت تـدور تلك ، ولا تسـتطيع أن تتحلل من المشـاكل التى اعترضتها ، وأفسدت عليها عملها من قديم الزمان ، بل يجب على الفلسفة الحديثة ــ لكى تتوصل الى نتائج يصح الأخـذ بها ، وتستطيع أن تحمل فى داخلها عناصر الحق والصدق ــ اذا أرادت الفلسفة أن تفعل هذا يجب عليها أن لا تدور فى فراغ ، وبمعنى آخر يجب عليها أن تستمع لنتائج الأبحاث العلمية ، كأبحاث الأنثروبولوجيا (علم الانسان) وعلم النفس وعلم الحياة ، فماذا يا ترى تقول هذه العلوم فى العقـل ؟ ما قصة العقل ، كما تراها هذه العلوم الحديثة ؟ هـذا هـو الحكم الفصـل بين فلسـفة البراجماتيـة ، والفلسـفات التقليدية .

نستطيع أن نفهم قصة العقل اذا ما تتبعنا حياة الكائن الحي من عهده الأول ، الى أن أصبح انسانا يرى بعقله ويستطيع أن يحكم على الأشياء ، يمكننا أن نفهم هل العقل للمعرفة أم لشيء آخر اذا ما اقتفينا أثره ، وتبينا عمله وفعله من يوم أن نشأ أولا وكيف نشأ ، كيف تطور الكائن الحي الى أن أصبح يرى ويسمع ويفهم ويدرك العلاقات بين الأشياء ٠

أول شيء نجده بالطبع هو هذا الكائن الحي نفسه ، هذا الجسم الذى يملك من الخصائص ما يميزه عن الجمادات ، فأجزاؤه متصلة ببعضها اتصالا عضويا وليس التصاق جوار، أو التصاقا مكانيا فقط ، كل جزء منه يعتبر حيويا له ، وبغير بعض هذه الأجزاء تتغير طبيعته تغيرا كليا ، ويصبح شيئا آخر مغايرا لحالته الأولى ، وبمعنى آخر لا تبقى له خصائصه اذا ما فصلنا هذه الأجزاء بعضها عن بعض ، بخلاف الأجسام المادية كالأحجار والمعادن والعناصر الكيماوية ، فاننا اذا ما فصلنا ذرات الحجر بعضها عن البعض الآخر لما تغير جوهريا ، بل يحمل كل جزء منها خصائص الجسم الأكبر جميعها ، فيبقى الحجر حجرا والمعدن معدنا كما كان ، وبمعنى آخر يجوز على المواد التقسيم دون أن تتغير طبيعتها، وأما الكائن الحي فوحدة اما أن تبقى كما هى دون تجزئة ، أو تتغير مميزاتها وطبيعتها ٠

أول ما يجابهنا هو الكائن الحي نفسه ، ثم نجد شيئا آخر وهو البيئة الطبيعية ، المواد والأشياء المبعثرة فى المكان التي تحيط بهذا الكائن ، نجد الأحجار والأمطار ، والثرى

والماء والأشجار ، والأرض التي يستريح عليها هذا الكائن، ثم نجد الضــوء والأصــوات والروائح الحســنة والقبيحة ، ونجد ألوف الأشياء الأخرى التي تحيط بهذا الكائن وتكتنفه من كل جانب ، وتصدمه وتلامسه وتنقله من مكانه ، وتبلله وتلقى عليه الأشعة كما تلقى على جميع الأشياء الأخرى وكما تفعل بكل شيء آخر ٠

أو بعبارة أخرى نجد بعد الكائن وبيئته ، هذا الاتصال المستمر بين الأشياء وبعضها ، وبالتالى بينهــا وبين هـــذا الكائن ، فهنالك أولا علاقات الجوار ، أو العلاقة المكانية ، ثم علاقة الوجود التاريخي أو العلاقة الزمنية ، ثم نجد غير هذه العلاقات علاقات أخرى كالدفع والجذب ، وكالتفاعلات الكيماوية ، والضغط والحمل الى آخــر هــذه التفــاعلات الطبيعية ٠

وأول شيء يصل الى هذا الكائن الحي بعد أن أصــبح كائنا حيا ، هو احساسه وشعوره بوجوده وبوجود بعض هذه الأشياء ، أول شيء يؤثر فيه فيشــعر بالتأثر هــو الأشــعة الضوئية مثلا ، والاحساس بالحرارة ، أو بقوة هذه الأشعة التي تصب عليه ، فكأن أول التفاعل بين هذا الكائن والأشياء الأخرى هو هذا الاحساس المباشر بوجود هذه الأشياء وبأثرها في كيانه ووجوده ، سواء أكان الأثر محبوبا مرغوبا فيه ، أم مكروها يستحسن الخلاص منه والانحراف عنه ٠

لا ، بل أول احساس الكائن الحي بوجود الأشياء الأخرى ، انما هو ما تفعله هذه الأشياء بالكائن من دفع وجذب وتصادم

ومقاومة ، فكأنه أول ما يحس به هو هذا الأثر الذى تتركه الأشياء في جسمه وفي داخليته ، وبمعنى آخر ليس أول ما يصله معارف ومعلومات عن هذه الأشياء ، أو ادراكات حسية أو غير حسية ، وانما مضايقتها له أو اللذة التى تنتج من هذا الاتصال بينه وبينها ، ولا يعلم بوجودها أصلا بطريقة من الطرائق وانما يحس بأثرها وبفعلها المباشر فيه وفي جسمه ٠

يتدرج هذا الاحساس ويتطور ، ثم يتسع ويعم ويتخصص الى أن يصبح كل نوع من شعوره بهذه الأشياء ذا شكل خاص ومميزات خاصة ، فيصبح الاحساس بالضوء نوعا ، والاحساس بالحرارة نوعا آخر ، وتصبح الرائحة حسا معينا والصوت حسا آخر ، فكأن هذه الاحساسات وهذا الشعور يتفرق ويتوزع فيصبح كل منه له خواص ومميزات تغاير خواص ومميزات الأنواع الأخرى، ولكنه في مجموعه، عبارة عن أفعال وآثار تتركها البيئة أو تأتيها قبل هذا الكائن ، ولكنها في مجموعها ليست اشعارا بالموجودات ، وانما مقدمة لأعمال وحركات يطلب الى هذا الكائن أن يأتى بها ردا على هذه المؤثرات ٠

تتوزع هذه المؤثرات على جسم الكائن الحي ، فبعد أن كان يحس بها كلها احساسا عاما شاملا ، ويستعمل للشعور بهذه المؤثرات جسمه كله ، تصبح أجزاء جسمه مختصة بتلقى بعض المؤثرات دون البعض الآخر ، ويصبح لكل عضو أو جزء معين من الجسم عمل خاص فى نقل هذه المؤثرات الى داخلية الكائن الحى ، حتى يستطيع أن يرد على هذه

المؤثرات بالاستجابات التى تستدعيها الحالة ، وبمعنى آخر تخصص أجزاء الجسم لتلقى بعض المؤثرات المعينة ، وانما هو بدء نشوء أعضاء الحس ، كالعين والأذن والأنف الى آخره ، فالضوء مثلا كان مؤثرا يتلقاه الجسم كله ويحس به الجسم كله • ولكن هذا الكائن الحى قادر على التشكل والتغير والتوفيق بينه وبين بيئته التى يعيش فيها ، ولذلك فان مساحة معينة من هذا الجسم تخصص لتلقى المؤثرات الضوئية؛ بينما تتفرغ مساحة أخرى لتلقى المؤثرات الأخرى كالصوت والحرارة وما أشبه •

هذه المساحة من جسم الكائن التى اختصت بتلقى مؤثرات الضوء مثلا تتشكل وتتكيف ، بحيث تصبح أكثر صلاحية لعملها الجديد هذا ، فتستجلب من جسم الكائن العناصر الصالحة لبنيانها وتكوينها ، والتى تنفعها فى القيام بوظيفتها على أحسن وجه ، ومن هنا تنشأ الأعضاء فى الجسم لتأدية خدمة معينة لهذا الجسم ، وكلما أمعن الجسم فى استخدامها فى وظيفتها ؛ أصبحت هذه الأعضاء أكفأ للخدمة وأقدر على تأدية هذه الوظيفة ، ولكن يجب أن لا نغفل هذه الوظيفة من حسابنا فانها هى الأصل فى وجود هذا العضو ، والوظيفة كما تبين لنا الآن انما هى فى تلقى المؤثرات التى تلكز هذا الكائن وتلطمه حتى ينفعل ويستجيب لها ، كأن يدفعها أو يتجنبها ويهرب منها ، أو يقبل عليها فيتناولها لخدمة غاية من غاياته •

فالأصل فى هذه المؤثرات أنها دعوة من البيئة للكائن لكى يتعامل معها ، يقاوم ويكافح ، أو يهرب ويختفى ، وبعبارة أخرى فان معنى هذه المؤثرات انما هو فى دعوة هذا الكائن الى أن يغير نفسه ويغير بيئته ، أو معناها حثه على العمل والنشاط والتصرف ، وليس معناها استلفات نظر الى وجودها ، أو دعوة له للفهم والمعرفة .

تطورت هذه الحواس ، نشطت وأصبحت أكفأ وأقدر على تأدية وظيفتها ، وفى الوقت نفسه تطور الكائن الحى ، واشتد وقوى وأصبح متعدد النشاط قادرا على كثير من الأعمال التى كان يعجز عنها ، وكفؤا لمقاومة كثير من عناصر البيئة التى كانت تخيفه فيهرب منها ، لا بل أصبح أسرع فى الهروب وأقدر عليه اذا كان المؤثر يستدعى الهروب ، وبالاختصار نقول انه أصبح انسانا مثلنا له جميع الأعضاء التى لنا ، ولكنه يفوقنا فى أنواع المران البدنى التى نعجز نحن عنها الآن، وعلى كل حال ليس من شأننا الآن أن نستقصى تطوره البدنى ، وانما غرضنا أن نتتبع التطورات العقلية التى مرت عليه .

أمعنت حواسه فى التخصص وأصبحت تنقل اليه المؤثرات من مسافات بعيدة ، فأصبح يرى الحيوانات الأخرى والأجسام الأخرى من بعد أميال ، ويسمع زئيرها ويشم رائحتها ، أصبحت هذه الحواس تنقل اليه المؤثرات قبل أن يصبح من العبث أن تنقلها اليه ، فلم تكن تصبر عليه الى أن يدهمه الحيوان المفترس ثم تنقل اليه صورته وتشعره

بوجوده ، وانما كانت تنبهه الى هذه المؤثرات فى متسع من الوقت ؛ حتى يستطيع أن يفعل ما هو فاعل .

بالطبع كانت جميع هذه المؤثرات تنقل عن طريق الحس الى جهاز الحيوان العصبى ، وهذا يأخذها ويدرك معناها بالاستعمال الكثير ومن طول المران ، ثم يصدر أمره الى أجهزة الجسم حتى تستعد للعمل المطلوب ، دون تقديم أو تأخير ، والجهاز العصبى عضو من أعضاء الجسم يجرى عليه ما يجرى عليها ، ينضج بالاستعمال ويتخصص ، ويصبح أقدر على تأدية وظيفته كلما أمعن فى المران على تأديتها ، فكان يأخذ الاحمرار فى التفاحة مثلا على أنه علامة للأكل ، ثم ينقل هذا الاحساس الى جميع عضلات الجسم فتقوم الى عملها ، فيأكل الانسان ، وكان يفهم صورة الأسد على أنها علامة للهروب والاختباء فى الأغصان ، فتطيع باقى العضلات ، وتقوم بوظائفها كل فى دائرة عملها فينجو الانسان .

كان عمل الجهاز العصبى فى أن يتلقى مؤثرات البيئة عن طريق الحس ؛ فيحكم أنه من المتحتم عليه أن يفعل هذا الأمر أو ذاك فيفعله دون ترو أو تفكير ، ودون موازنة أو تقدير .

دأب الجهاز العصبى على العمل ، على تأدية وظيفته ، فأخذ يتطور ، ويتدرج ويصبح أكفأ وأقدر على تأدية هذه الوظيفة من قبل ، أو أصبح قادرا لا على تلقى المؤثرات من الحس فقط ، أو العمل بمقتضاه فقط ، وانما تمكن من اختزان صورة من هذه المؤثرات ، ودفنها فى طياته للرجوع

اليها فى المستقبل ، وهذا هو عصر العقل ، هنا آخذ العقل فى الظهور ، وهنا آصبح الكائن فى عصر جديد وعلى أبواب تطورات جديدة ، لا نعرف على التحقيق أين تنتهى به ، وانما نعرف شيئا واحدا ، وهو أن عنصرا مهما من عناصر الحياة ، وثب الى الوجود ، وأصبح عاملا مهما يحسب له من الحساب فى الحياة من جميع وجوهها ، وفى علاقة الحياة بباقى الموجودات ٠

بدأ العقل أول ما بدآ بتذكر الحوادث ، استطاع ان يستبقى آثارها فى نفسه داخله بعد أن تخرج عن دائرة الحس ، ثم استطاع أن يسترجعها الى الصدر متى أراد ، حتى وان لم يكن هنالك داع حسى لاسترجاعها ، وبمعنى آخر أصبح قادرا آن يستحضر صورة الأسد متى أراد ، حتى وان لم يكن هنالك آسد تستطيع العين أن تراه وتستطيع الآذن أن تسمع زئيره ، وتستطيع الأنف أن تشم رائحته ، أو تستطيع اليد آن تلمسه ، أصبح العقل قادرا على استحضار صور الحوادث (Events) يرى منها بعين العقل ما يمكن رؤيته بالعين المادية ، ويجوز الحوادث فى مخيلته ، كآنه يجوزها فى الزمان المادى ، وبعبارة أخرى آصبح مستطيعا أن يتخيل مطاردته لأحد الحيوانات ، وآصبح يتتبع هذه المطاردة من لحظة الى أخرى دون آن يتحرك من مكانه ودون أن يكون لجميع هذا حقيقة خارجية مستقلة ٠

لقد وضع الانسان قدمه على أول درجة من التطور العقلى ، ولم يبق عليه الا أن يرقى هذه الدرجات ليرى أين تسير به ، لقد نبت العقل ، وما بقى علينا الا أن نرى أى

نوع من النبات هو هل سيصير الى شجرة كبيرة وارفة الأغصان، أم يصبح عليقة صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوع ، فبعد أن كان الانسان يقاتل أعداءه جسما لجسم ومخلبا لمخلب ، أصبح يقاتلها في الخيال ، يقاتلها وهو في مأمن منها ، فاذا تغلب عليها في الخيال ، نازلها في الحقيقة والواقع ، واذا رأى بعين ذاكرته ما فعلته تلك الأنياب في جسمه في الأيام الفائتة ، امتنع عن القتال ونجا بنفسه ·

أصبحت الاختبارات باقية في نفسه لا تتحول عنها ، وأصبح قادرا على استدعائها كلما عن له ، ليرى ماذا حدث في الحقيقة والواقع في الأيام الماضية ، وأصبحت صورة هذه الحوادث ماثلة له يسير بهديها ويستضيء بنورها ، واذا به يجد الى جانب سلاح الحواس سلاحا آخر ذا مضاء وأثر ، يستطيع أن يستعمله في كفاحه للحياة وفي سبيلها ، وأصبحت المؤثرات لا تأتيه من الخارج فقط ولكنها تأتيه من الداخل أيضا ، وكلها مؤثرات تتطلب منه استجابات معينة ، وبعبارة أخرى كان العقل والحواس جميعا سبيلا تؤدى الى العمل والنشاط ، وليست أبوابا تدخل منها المعارف الى نفس الانسان ، ولكننا لا نزمع أن نطيل في هذا لأننا سنعود اليه عندما نتكلم في المعرفة من وجهة نظر البراجماتية ·

ثم تطور هذا الشيء الذى يحسن أن نسميه عقلا وتدرج من اختزان صور الأشياء أو الحوادث الى صوغ فكرة أو رأى، ومعنى لهذه الحوادث (Events) (ونرجو من القارىء أن يلاحظ أن معنى « الحوادث » في الفلسفة انما هو الأجسام والأشياء ثم الأمور التى تحدث أيضا) ، فأصبح للحجارة

مثلا معنى وهو الصلابة ، وللطينة معنى آخر وصفة أخـرى وهى الرخاوة وأصبح الانسان قادرا على التعامل مع هـذه المعانى ، ومقارنتها بعضها ببعض ، وتخير المنـاسب منهـا لأعماله وأغراضه ، فاذا أراد قتال حيوان آخر ضربه بحجر، وهو يعلم مقدما ماذا سيحدث هذا الحجر فى جسم الحيوان، واذا أراد بناء عشه فى الأشجار استجلب له الطينة من قاع النهر أو البحيرة ، وأصبح يعلم مقدما ماذا تفعل هذه الطينة عندما توضع بين أغصان الأشجار ٠

وبعبارة أخرى ، أصبحت الفكرة عن الشيء تقوم مقام الشيء نفسه عند العمل ، أصبح يجرى تجاربه عـلى الأشياء فى داخل عقله ، أصبح يبنى بيته من الأفكار أولا ، من طوب وطينة عقلية ، أو من معانى الطوب والطينة ، فان صـلحت هذه العملية فى العقل ، يقوم باجرائها فى الواقع والعمل ، وان لم تصلح لاستحالة فكرية غض الطرف عن عملهـا فى الواقع ، ولا نقصد من هذا أن تعامله بالفكرة والمعنى كان دائما مصيبا ، أو كان دائما ينطبق على الواقع ، وانما نقصد أنه استطاع أن يوجد لكل شيء مادى فكرة فى ذهنه ، وأن يتعامل بهذه الفكرة أولا ، ثم يقفى على هذا بالعمل المادى ٠

وهذا هو المعقول بالطبع ، والا فكيف استطاع أن يبتنى عشه فى الأشجار ، وليس لديه غريزة تقوم مقـام عقله فى بناء الأعشاش ، لأن الانسان فى الأصل ليس من فصيلة بناة الأعشاش ، وعلى ذلك ليست له هذه الغريزة ، فاذا لم تكن له فكيف استطاع أن يبنى عشـا أولا ، ثم كيف اسـتطاع أن يبتني بيوتا وقصورا وهياكل ومعـابد فيما بعـد ؟ بالطبع

استطاع كل هذه لأنه كـون في نفسـه ملكة التعامل الداخلى بالأشياء ، أو بعبارة أخرى ملكة التعامل بصور الأشياء فى ذهنـه ، أو التعـامل بالآراء والأفكار قبـل التعامل المـادى بالأجسام المحسوسة •

فأول البناء بالطبع ، مشروع البناء ، أو بناء الفـكر والعقل ، وهذا يقوم بالطبع على مواد أولية ، وهـذه المـواد الأولية يجب أن تكون صورا عقلية للأشـياء لأن العقل من طبيعته أنه لا يستطيع التعامل مع الأجسام المادية ، فهنالك فى العقل اذن معان وفكرات عن الطوب والطين والأشجار ، فيتناول العقل هذه جميعا ويبتنى بها منزلا له ، ثم يدخل منزله فى الخيال والفكر ليستريح ، ثم يشعر أنه بمأمن من الأمطار والبرد ، بعد هذه الخطوات التمهيدية أو بعد مشروع البناء يشرع فى البناء المادى فعلا وعملا ، وقد يخرج البيت المادى مطابقا للمشروع وقد لا يخرج ، ولكنه فى كلا الحالين يخرج الانسان باختبـارات جـديدة وفكرة جـديدة ورأى طريف ، ويستطيع أن يسـتعمل هـذه جميعا فيما يتلو من حياته وفيما يضطلع به من نشاط •

والتعامل بالأفكار انما هو تحسين لتصرفات الانسان، وجعلها أنجع للحياة وأفيد للعيش ، وأسهل فى التداول حتى اذا تبين له أنها لا تنفع امتنع من اتيانها ، وأما اذا كان من المحتمل نجاحهـا فلا بأس من أن يشرع فى تحقيق الـرأى واخراج الفكرة الى حيز الوجود ، ولكن الفكرة على أية حال هى فى أصلها مبدأ العمل ، أو الخطـوة الأوليـة التمهيدية للعمل •

أصبح الانسان أقدر على التعامل بالأشياء بعد أن أوجد لها معاني وصورا ذهنية . ذلك لأنه في بعض الحالات يتعذر عليه أن يتعامل بالأشياء المادية ، لا بل ربما يستحيل عليه ذلك ، وفى هذه الحالة يكتفى بالمعاملة الذهنية دون غيرها ، يستحيل عليه أن ينقل جبلا الى جوار جبل آخر ليرى أيهما أصعب ارتقاء وأيهما يصح أن يحاول صعوده ، يستحيل عليه أن ينقل حريقا كبيرا الى جانب حريق آخر فى الغابات حتى يرى لنفسه كيف الخلاص من هذا كما خلص من ذاك ، يستحيل عليه أن ينقل أسدا الى جوار نمر ليرى أيهما أكبر فيتجنبه وأيهما أضعف فيهاجمه وأيهما أسرع فى العدو فيبادر بالهروب قبل أن يدركه هذا أو ذاك ، من غير المستطاع له أن يتعامل بهذه الأشياء المادية بهذه الكيفية التى تلزمه فى ظرفه هذا وفى حالته هذه ، ولكن كل هذه الأمور ممكنة اذا ما تعامل بمعانيها ، وبالفكرة التى عنده عن أحدها وما يراه ويشاهده عن بعضها ـ يستطيع أن يقيس هذا الجبل الذى يراه بذلك الذى له فى نفسه فكرة ، ثم يخرج من هذه المقارنة بين الصورة الحسية والصورة الذهنية ، أى الفكرة ، بما يريد من النتائج .

وبعد ، فانه فى حكم المستحيل علينا فى حياتنا أن نتعامل مع جميع الأشياء المادية دون الصور الذهنية التى لنا عنها ، يكاد يكون من المستحيل أن أعرف أى البيتين أكبر ، وأجمل ، بينما أحدهما فى القاهرة والآخر فى الاسكندرية مثلا ، ولكنه أمر هين نفعله كل يوم اذا قارنا بين فكرتنا أو الصورة الذهنية التى عندنا عن أحدهما مع ما نشاهده ونحسه من

الآخر ، هذا أمر سهل ميسور ، ولا تمر لحظة دون أن نفعله مطمئنين واثقين أن النتائج التى نصل اليها نتائج صـائبة أو قريبة من الصواب •

الفـكرة هى العملة التى نستعملها فى هـذه الحيـاة لأغراض الحياة دون حاجة الى مسمياتها أو معانيها المادية ، وعوضا عن أن نسوق أمامنـا عشر نوق ، ونذهب بهـا الى المقهى ، ونتركها ترعى فى شارع عماد الدين الى أن نجد مشتريا لها فنبيعها ، أو عوضا عن أن نقـود سـبع أفراس معنا الى حيث نذهب ونسير من مكان الى مكان ومن دار الصور المتحركة الى دار التمثيل ، حتى اذا ما وجدنا انسـانا عنده مثلها ويريد أن يبيعنا اياها فنشتريها عوضا عن أن نفعل هذا أو ذاك نسير أفرادا غير مثقلين ، نحمـل فى أذهاننـا فكرة العدد (عشرة) وفكرة (النوق) أو صورة ذهنية عن العدد وعن النوق ، ثم نتعامل بهذه العملة فى المقهى وفى دور السينما والتمثيل دون حرج ودون اثقال لأنفسـنا ، ونستطيع أن نبيع ونشترى فى النوق والخيل ، دون أن يكون هنالك فى الحقيقة والواقع نوق أو خيل •

وليس العقل أداة للمعرفة فى هذا الزعم ، وانما هـو أداة للتعامل وللنشاط ، والحال معه كالحـال مع الجنيـه فليس الجنيه أداة لفهم العملة ، وفهم النقود ، وانما هـو أداة للتعامل ، للأخـذ والعطاء ، ليس الجنيـه خبزا وانما يقود الى الخبز، وليس هو لباسا وانما يؤدى بنا الى الكساء ، وبعبارة أخرى أن معنى الفكر والعقل انما فيما يؤديان اليه من الأعمال، وليس فيما ينقلان الينا من المعلومات والمعارف •

فكل ما نعمله ، وما نشاهده ، وما نجوزه من الاختبارات تنطبع صوره في نفوسنا وفي أجهزتنا ، هذا الاختبار المكدس المخزون ، انما هو العقل ، والتعامل بالاختبارات المختزنة ، انما هو التفكير ، وقطعة من الاختبار معينة انما هي في نفوسنا فكرة نستطيع أن نتناولها ونمتحنها ونتأملها ، ثم نستطيع أن نجوز ظروفها في داخلية نفوسنا كما جزناها في الحقيقة وفي الواقع ٠

هذا هو العقل ٠

بعد هذا الاستعراض المقتضب لنشوء العقل وتطوره ، أصبح من الميسور لنا أن نخرج من قضايا الفلسفة برأى يحسن السكوت عليه ، وأصبح في مقدورنا أن نفهم مزاعم الفلسفة التقليدية ، وربما يتسنى لنا أن نرد هذه المزاعم الى أصولها التي خرجت منها ، ونخلص منها بحقيقة التفكير الفلسفي ، لا بل صار من المستطاع لنا بقليل من الفكر أن نفهم حقيقة المعرفة (Epistimology) ونظرياتها المتضاربة ٠

والواقع أن الفلسفة التقليدية قد تناولت المشكلة من حيث لا يجب أن نتناولها منها ، اذا كنا نرغب في الوصول الى الحقيقة ٠

وهذا ما سنتبينه من الفصول التالية ، ولكننا يجب أن نذكر على أية حال ، أن الفضل في رد الأمور الى نصابها في قضية العقل والفكر انما يرجع الى فلسفة البراجماتية ٠

الفصل السادس

الفلسفة والعمل

نفهم كيف أن الرجل العادى يستطيع أن يسلم بأن الحواس هى أبواب للمعرفة ، بل نزعم أنه يوقن أنها كذلك دون حاجة الى جدل ، أو بحث • فهو يسير فى شئون الحياة على هذا الزعم ، فالمعرفة عنده لها طريق واحد وهو هذه الحواس ، ان الأشياء موجودة فى المكان ، تحيط بالانسان من كل جانب وتصدمه وتقاومه فى كل لحظة من لحظات الحياة ، هنالك فى المكان الخارجى الموضوعى شجرة على قيد أقدام من الانسان ، هذه الشجرة لها وجود مستقل حقيقى لا شك فيه لأن العين تؤكد لنا ذلك ، وهى فى مكانها لها عمل تعمله ، أى أنها ليست واقفة فى مكانها تلتفت الى شئونها الخاصة دون اهتمام بما يجرى حولها ،وانما تهتم بما يحيط بها وخاصة بالأحياء التى تسعى حواليها ، وعندما نمر بها ، تتصرف هذه الشجرة كأنها تطلب الى عيوننا أن تتفضل بتقديمها لداخلية الانسان ، أو ترجو العين أن تعرفها الى هذا الانسان ، وكأن العين تقول لبيك على العين والرأس • ثم تلتفت هذه العين الى الانسان وكأنها تقول :

« يا رجل هذه شجرة » وكأنه يوجد فى داخلية الانسان أجهزة تردد هذا الاعلان الى أن تدرك جميع الاجهزة أن هذه شجرة ، وهكذا الحال مع جميع الأشياء المادية ومع جميع الحواس دون استثناء ، فجميع الأشياء لها وجود خارجى مستقل فى المكان ، وجميع الحواس تظل تقدم هذه الأشياء للانسان شيئا شيئا ، وتظل تعرفه بها ، وتحيطه علما بماهيتها ، فكأن الأشياء موجودة لتعرف (بضم التاء) ، والحواس موجودة لتعرفها الى الانسان ·

نفهم هذا ، ثم نفهم كيف أن الانسان العادى لا يفهم وظيفة الحواس الا على هذا الوضع ، أى للمعرفة والعلم ، كل هذا واضح لا يحتاج الى شرح واطالة ،وانما ما نريد أن نشرحه ــ لأنه يحتاج الى الشرح ــ هو كيف أن العقل أصبح أداة للمعرفة ، أو كيف أصبح الانسان يعتقد أن العقل أداة للمعرفة ، كيف أصبح هو الآخر ينقل الحقائق (Realities) الخارجية ، التى لها وجود موضوعى (Objective) مستقل الى الانسان بشكل من الأشكال ·

ولكن قبل أن نفصل الأسباب التى دعت الى هذا النوع من النظر الى وظيفة العقل ، يحسن بنا أن نميز بين الحقائق أو بعبارة أخرى نحدد المصطلحات التى نريد أن نستعملها فى هذا الفصل ، فعندما نتحدث عن الحقائق نقصد أولا الأشياء المادية التى تحيط بنا ، كالحجارة والأشجار والأنهار والانسان والحيوان وجميع العناصر المادية التى تقع تحت حسنا ، وهذه تسمى فى الفلسفة حقائق الحس ، (Objects of sense) ثم نقصد ثانيا الأفكار والآراء ، والعلاقات

المعنوية بين الأشياء ، والعلاقات العددية ، والصور الذهنية ، والمعانى ، والصفات المجردة عن الأشياء الموصوفة كالاستدارة والانارة والانسانية الى آخر هـذه المعـانى والمصطلحات ، وهذه تسمى فى الفلسفة حقائق عقلية أو (Rational Realities or objects of mind) ، وكثيرا ما يسمى النوع الأول منهما، حقائق الحس ، أو موضوعات الحس ، أو المحسوسات ، أو المدركات الحسية الى آخر هذه التسميات ، ثم قد ندعو النوع الثانى من الحقائق ، موضوعات العقل أو الحقائق العقلية ، أو المدركات العقلية أو الفكر ، ولا يجب أن يفهم من كلامنا هنا أننا نقرر أن هذه أو تلك هى الحقائق ، وغيرها خرافات أو أوهام ، وانما نقصد أن نقول انه عندما نستعمل هـذه المصطلحات نقصد منها ما تقدم ، أى أننا نريد أن نستعمل هذه المصطلحات فى الكتابة الآن دون أن نتقيد برأى فيها ٠

وأما فلسفة البراجماتية ، فقد أضربت عن الكلام فى الحقـائق ــ حقـائق الحس أو العقل ــ لا تسـتعمل هـــذه المصطلحات الا عندما تريد أن تجادل الفلسفة التقليـدية ، ولكنها تفضل كلمة حوادث (Events) وتطلقهـا عـلى كلا النوعين من الحقائق ، أى على الحقائق الحسية والحقـائق العقلية ، تميل الى اطلاق لفظة (الحـوادث) عـلى هـذين النوعين من الحقائق لسببين : أولهما أن العلم الحديث لم يعد يتكلم عن الحقائق كحقائق موضوعية لها وجود فى ذاتهـا على حالة معينة ، وانما يرى العلم أن جميع هذه الحقائق ــ المادية والعقليـة ــ لا تخلو من الزمن ، فالزمن عنصر مهم فيها ، ومتى دخل عنصر الزمن فى الأشياء أصبح من المعقول

أنها تسمى (حوادث) ، والسبب الثانى عند البراجماتية في هذه التسمية هو أن هذه الفلسفة تؤمن أن جميع هذه الأشياء أو الحقائق ، انما هى جزء من الاختبار (Experience) وأن الخبرة والتعامل والمران وعراك هذه الأشياء جميعا هو حقيقة هذه الأشياء ؛ ولذلك نسميها (حوادث) ٠

بعد هذا نعود الى ما كنا فيه لنرى كيف زعم الانسان أن العقل للمعرفة ، وكيف أصبحت وظيفته أن يحيط الانسان علما بوجود الحقائق لمجرد العلم ٠

قلنا فى غير موضع من هذا الكتاب ، ان حقائق الحس متغيرة لا تستقر على قرار ولا تبقى على حال ، كانت توجد أمام الانسان فى بدء نشأته ، وكانت تقع تحت حسه ، فيعتقد بوجودها ، ويؤمن بها الايمان كله ، ثم يشرع فى الاستعداد للتصرف أو العمل بشكل من الأشكال ، ولكنه ما يشعر الا وقد اندثرت هذه الأشياء وغابت عن الحس ، وأصبحت لا وجود لها ، وأصبح يفتقدها فلا يجدها ، كأنها طارت من الدنيا ، وليس هذا فقط ولكن التغير فى الموجودات وهى ماتزال تحت الحس يربك الانسان ويحيره ، فهذا حيوان صغير يعيش فى كنف الانسان ، يحمله على كتفيه كل يوم ويقذف به الى مسافات غير قصيرة ، وما يشعر الانسان الا وهذا الحيوان قد كبر وزاد وزنه زيادة كبيرة ؛ حتى أضحى عاجزا عن حمله ونقله من مكان الى مكان، دع عنك القذف به الى مسافات طويلة أو قصيرة ، ثم هذا طفله الصغير الذى كان رضيعا فى العشية أصبح رجلا اليوم ، فهذا الرجل ليس هو فى الواقع طفل البارحة ، وبالاختصار فان الانسان لا يرى

حواليه اذا اعتمد على الحس الا تغيرات تتلوها تغيرات ، والا أشياء تنقل من حال الى حال ، ثم تندثر قطيعا لسبب من الأسباب ٠

وهنالك حقيقة الموت ، تلك الحقيقة التى تحير لبه من جهة وتخيفه وترعبه من جهة أخرى ، فقد كانت زوجه معه ، تسعى الى شئونها كما يسعى وتتحرك كما يتحرك ، تتكلم وتناقش ، وتصرخ وتولول ، وتطعم طفلها الرضيع ، تنام وتقوم ، فاذا بها تنام ولا تقوم ، واذا بها ساكنة هامدة أول الأمر غير عابئة بصراخ الطفل وآلامه ، وغير عابئة بأوامر زوجها وتهديداته ، ثم اذا بها تنبعث منها الروائح الكريهة ، فلا تعود الاقامة معها مستحبة ، واذا وحوش الغابة تلتهمها فلا تبقى منها أثرا ، فأين ذهبت، ولماذا ذهبت، وكيف أن الأسد الذى التهمها لا يزال كما كان دون تغير بزيادة أو نقص ، وهل مصيره هو الى هذه الحالة ، وهل مصير جميع من يحب وما يحب الى هذه الحالة ؟ حقا أن هذا الكون مريع فظيع ، وحقا أن الانسان فيه لا يطمئن على نفسه ولا يركن الى الأشياء والحوادث ، فما العمل اذن وكيف الخلاص مما ينتظر الانسان ؟ يظهر أن لا محيص له عن أن يجوز هذه المحن كما تجوزها الأحياء والأشياء ٠

وبعد ، فالعالم ملىء بالكوارث والنوازل والأخطار والأعداء التى تكتنفه من كل جهة ، هنالك الزوابع والأعاصير التى تقتلع الأشجار الضخمة القوية وتلقى بها الى حيث تشاء ، أو تحملها وتسير بها الى حيث تسير بعيدا عن أفق النظر ، وهنالك النيران التى تشب لغير سبب ظاهر فتلتهم

الأخضر واليابس ، الحيوان والجماد ، فلا يبقى لهذه أثر يدل عليها ، وهنالك الزلازل التي تدك الجبال دكا فتخفض أعاليها الى أسافلها ، وترج الأرض رجا فلا تعود تصلح للعيش فيها ، ولا يعود الانسان واثقا من موضع قدميه عليها ، وقد كان عهده بها ثابتة لا تتزعزع ولا تريم ، وهنالك البراكين التي تقذف الحمم من جوفها لغير سبب مفهوم ، كأنها غاضبة عليه تريد أن تناله بالأذى والشر ، وهنالك مصائب ونوازل أخرى كثيرة لا حصر لها ، ولا يستطيع الانسان أن يتكهن بحدوثها ، أو بالأسباب التي تتقدمها ، كالفيضانات ، والمد والجزر ، والصواعق والشهب والنيازك ، وكاختفاء الأجرام السماوية ، واحتجاب الشمس في رائعة النهار والأمراض والآلام والاصابات الجسمانية ، وغير هذه كثير لا يدخل تحت حصر ٠

كل هذه أسباب تدعو الانسان الى التفكير العميق أولا ، تدعوه الى محاولة الفهم والمعرفة ؛ حتى يتسنى له أن يتقى شرها ، وينجو بنفسه من مخاطرها ، هذا من جهة ، وأما من الجهة الاخرى فانها تعطى للأمن والطمأنينة والسلامة قيمة كان لا يمكن أن تكون لها في عالم آخر وفي نظام آخر ، أصبحت المسألة الكبرى في الحياة ـ مسألة المسائل ـ هي الثقة والطمأنينة واكتشاف الأشياء أو الحقائق التي يصح للانسان أن يركن اليها دون حرج ، كل ما يريده هو هذا الاطمئنان الى بعض الأشياء أو الى جميع الأشياء ، ليس غرضه الأولى والأساسى أن يفهم أو يعرف الأسباب والدواعى الى هذه الظواهر القوية العنيفة ، وانما غرضه اكتشاف

شيء أو حقيقة يستطيع آن يركن اليها ، اذا ما كان فى حاجة الى ما يركن اليه ٠

وأول عهده بالفلسفة بمعناها الواسع الفضفاض ، هو زعمه بأن الكون ملىء بالأرواح ، وأن هذه الأرواح هى السبب في ثوران الطبيعة.، وهى الأصل فى التغير والتحول في الأشياء وفى الموت وغير الموت من الظواهر المفهومة وغير المفهومة ، هذه الأرواح التي تسكن في قلب الكون هي التى تثور وتغضب أولا ، فتلقى بالأشجار فى الفضاء وتضرب الجبال فتهشمها ، وتسكب مياه المحيطات والأنهار على اليابسة فتغرق جميع الأحياء ، هى التى اذا غضبت ركلت الأرض بقدمها فتتدحرج أو تتقلقل كما تفعل الأجسام الصغيرة اذا ركلها الانسان بقدمه ، فاذا غضبت هذه الأرواح غضبت على جميع من فى الأرض وما عليها ، ومن ضمنها الانسان ، والانسان عندها كباقى الأحياء والمواد لا تهتم له بصفة خاصة ، فاذا ناله أذى من غضبها ، فلينله الأذى وليحق به ما يحيق ٠

ولكن الانسان معنى بالسلامة كما قلنا ، مهموم بالثقة والاطمئنان الى الأشياء ، فعليه أن يحاول لفت نظر الأرواح اليه بصفة خاصة ، والأرواح كما تبين له أهم عوامل هذا الكون وآقواها ، فاذا استطاع أن يصادقها ويتحبب اليها ، أصبح واثقا مطمئنا ، فالأرواح هى الثابتة وغيرها هو المتقلب ، هى قوية وغيرها ضعيف ، هى باقية وغيرها زائل، هى ثابتة على حالها وغيرها حائل ، فكأن هذه الأرواح تجمع جميع الخصائص والمميزات التى يتطلبها الانسان فى الأشياء

وفي الدنيا ، ولكنه قد عجز عن أن يجدها هنا ، وأما هنالك فهي موجودة دون شك ودون جدال ، لقد تألم وشقى بهذه التغيرات فى المظاهر الطبيعية ، لقد اكتوى بنارها وتقلب فى سعيرها ، وهو الآن يريد أن يهرب من هذا التغير ، وهذا الشك والتقلقل وعدم الثبوت والاستقرار يريد أن يهرب من هذه الى عكسها ، الى اليقين ، نعم يريد اليقين دون سواه ٠

حاجة الانسان الشديدة الى اليقين هى الأساس الذى قامت عليه النظم الفلسفية فى معناها الواسع ، هذه الحاجة هى التى أوحت اليه أن يهرب من الواقع ، ومن دنيا التغيرات والمفاجآت الى دنيا الحقائق الثابتة ، التى يمكن الركون اليها والثقة بها والاطمئنان اليها ،واليقين بعدم تقلقلها ، فظروف الانسان التى وجد فيها هى التى جعلته يسعى وراء الأشياء الثابتة غير المتغيرة ، وهى التى جعلته ينظر الى هذه الأشياء نظرة تقديس واحترام واجلال ، جعلته يفضلها ويؤثرها على سواها ، ويعجب لها ، ويلصق بها كل الصفات السامية التى لا توجد فى المظاهر المادية ، وهذه الصفات التى يجب أن توجد فى ناحية من نواحى الكون على أية حال٠

فالفلسفة بمعناها الواسع قد بدأت فى الرغبات والأمنيات ، أو نشأت من داخلية الانسان من ميوله ، وآماله (Desires) من شعوره الداخلى بالحاجة ، أو احساسه بالافتقار الى شيء خارج عنه يستطيع أن يسنده عند ما يجد الجد ، ويستطيع الانسان أن يلجأ اليه اذا ما حزبته الأمور واكتنفته الحوادث ، لم تكن الأرواح فى الأصل فى الكون ،

فعثر عليها الانسان بالصدفة ، أو بالقصد ، أى أنه لم يجد هذه الأرواح بالاختبار ، أو بالعقل ، وانما احتاج اليها ، وافتقر الى وجودها ، فقال انها موجودة فى الواقع ، وراح يتعامل معها بكل الطرائق التى تخطر له على بال ٠

ومن هنا أصبح الانسان متحيزا للأشياء المعنوية ، أو التى لا ترى ولا تحس ، أصبح يعتقد أن ما لا يرى أهم وأقوم ، وأرقى وأسمى مما يرى ، والمعانى أهم من المواد ، والمصطلحات أعلى فى القدر والقيمة من الأشياء المادية التى تمثلها هذه المصطلحات ، فعالم المعانى آثر عنده من عالم المادة ، عالم الفكر أسمى من عالم الجسم ، والسماء أشرف من الأرض، والروح أقدس من الجسد ، الى آخر هذهالمقارنات التى تخسر فيها الأشياء المادية ، والتى تخرج منها الأشياء المعنوية بالقسط الأوفر من الاحترام والاجلال والتقديس ٠

ثم ارتقى الانسان ، وأتى عصر الفلسفة عصر النور والأمن النسبى فى بلاد الاغريق القدماء ، وظهر فلاسفة الاغريق العظام الذين أخذوا يهتمون للحقائق (Realities) دون الأوهام والخيالات ، والذين لم يكونوا يعنون بشيء بقدر اكتشاف الحقيقة واستخلاصها من بين هذه المظاهر الخادعة ، لم يكن هؤلاء الناس معنيين قبل كل شيء بالثقة والطمأنينة ، كما كان أسلافهم ، وانما كانوا معنيين بالبحث والدرس والتحصيل ، كانوا مهمومين باكتشاف قوانينالكون ونواميسه ، ولذلك أخذوا يحددون المعنى المفهوم من الفلسفة ، لم تكن أبحاثهم فى الكون موجهة الى الكشف عما ينفع ، وانما الى الكشف عما هو كائن وموجود ٠

ولكنهم عندما دخلوا الأبحاث الفلسفية الصرفة ، لم يدخلوها مجردين عن كل شيء ، وعن كل رأى ، لم يستطيعوا أن يتحللوا كل التحلل من تفكير العصور التى سبقتهم ، شأنهم في هذا شأن جميع الناس في كل العصور والأزمان ، فنحن في عصرنا هذا ــ عصر النور والعرفان والمكتشفات العلمية ــ لا نستطيع مهما تثقفنا وأمعنا فى التفكير الراقى أن نتحرر من كثير من معتقدات الأجيال التي سبقتنا وآرائها، فبعض هذه تندمج في نفوسنا وتصبح طبيعة ثانية لها ، فانك مستطيع أن تجد فى أشد الناس تحمسا فى الدفاع عن حقوق المرأة فى هذه البلاد مثلا ، بعض الدلائل التى تدل على أنه لم يستطع التحرر كله من رأى أبيه وجده فى المرأة ، هنالك في زاوية من زوايا نفسه ركن يحن الى العهد القديم ، حينما كانت المرأة سلعة تباع وتشرى ، وكثيرا ما تطغى هذه الناحية من نفسه على تصرفاته فتجده يأتى من الأعمال قبل المرأة ما لا يستقيم بحال مع آرائه فى حقوقها ، وبعبارة أخرى لا يستطيع الانسان أن يقفز من حال الى حال ، ويبدل نظرية شاملة فى الكون بنظرية أخرى ، بين عشية وضحاها، لابد أن يرزح هذا الانسان تحت عبء الآراء التى تقدمت عصره زمنا طويلا ، ولابد أن يكون خلاصه منها تدريجيا ، وليس دفعة واحدة .

وهكذا الحال مع الفلاسفة الاغريقيين عندما أخذوا يتفلسفون ، لم يستطيعوا أن يقضوا على كل النظم الفكرية التى تقدمت عصرهم ، والتى تحكمت فى عقول الناس عصورا طويلة ، بل دخلوا رحاب الفلسفة وهم مثقلون بكثير من الآراء والمعتقدات والنظريات التي كانت سائدة على التفكير

الانسانى قبل عصر الفلسفة بمعناها الصحيح ، دخلوا ميدان الفلسفة وهم يحملون بذور تفضيل العالم المعنوى على العالم المادى ، عالجوها وهم يحملون جراثيم الغض من قيمة الأمور المادية ، والأشياء المتغيرة الخاضعة للزمان ، وضعوا أسس الفلسفة الحديثة وهم ما يزالون يحنون الى الثبوت والاستقرار والبقاء ، ويخشون التغير والتطور ، وبعبارة أخرى أسسوا هذه الفلسفة وهم مايزالون بعد متحيزين الى عالم الأفكار والمعانى ، دون عالم الحوادث والحس ٠

وعندما أخذوا يسعون وراء الحقيقة (Reality) كان هذا السعى ما يزال متأثرا بتفضيل العالم غير المنظور على هذا العالم المنظور ، وما كادوا يسألون : « أين هى الحقيقة وعلى أية صورة توجد؟»، حتى وجدوا الجواب حاضرا أمامهم وهو أن الحقيقة (Reality) لا يستطاع اكتشافها الا فى عالم المعانى والآراء والأفكار ، دون الأشياء المحسوسة ، فكان أسهل عليهم أن يزعموا أن الحقيقة هى من موضوعات العقل ، وليست من موضوعات الحس ، ولما كانت هذه الأخيرة متغيرة متقلبة لا تستقر على حال ، فقد كان من الميسور عليهم أن يظنوا أن عالم الحس هذا عالم خيالى لا وجود له فى ذاته ، وما هو فى الواقع الا مظهر الحقيقة وشكلها الخارجى الوقتى أو الزمنى ٠ أما الحقيقة ذاتها فهى عقلية ، هى المعنى والفكرة، والعلاقات بين الأشياء وبعضها وبينها وبين المعانى والمصطلحات ، ومن هنا أصبح « زيد » ليس له وجود حقيقى، والموجود الحقيقى انما هو « الانسان » ذلك المعنى المجرد عن المادة ، أو تلك الفكرة التى تصلح لأن تكون موضوعا للعقل يتناوله ويتعامل معه ، وأما محمد وحسن وفهمي فهذه جميعا

من موضوعات الحس . وعلى ذلك فهى ظل الحقيقة او شكلها الذى تتشكل به هذه الحقيقة .

ومن هنا ايضا ، نبت الزعم بأن العقل أداة للمعرفة ، فالحقيقة موجودة في مكان ما فى هذا الكون ، والعقل يدور باحثا عنها فى ثنايا الوجود ، واذا وجدها ينقلها الى الانسان ، ويحيطه بها علما ، يخبره ان الحقيقة موجودة هنا أو هنالك وأن طبيعتها كذا وكيت . والانسان يتلقي هذه الرسائل فرحا مغتبطا لأنه وجد الحقيقة وعرفها وعين لها مكانها فى نظام الكون ، ثم أصبحت المعرفة ، والعلم بالشيء ، والنقل الآلى هي وظيفة هذا العقل ، أو أصبح هذا العقل كالمنظار المعظم يدور فى الفضاء باحثا عن الحقائق ومتى وجدها ، فانه يشير اليها ويبين مكانها وطبيعتها للانسان ، فيصفق الانسان بيديه لأنه وجد الحقيقة ، وقد كان يظن أنه لن يجدها ، ويربت للعقل على ظهره لأنه أدى وظيفته خير أداء .

وهنا أيضا أصل النزاع بين النظريتين المتقدمتين فى المعرفة ــ النظرية العقلية ، والنظرية الاختبارية ، هذه تزعم أن الحقيقة هى هذه المواد والأشياء والأجسام الحسية التى تحيط بنا ، وأن الحواس ــ العين والأذن والأنف ــ هى الأبواب التى تصل منها هذه الحقائق الى نفوسنا ، وأن الغاية من هذه الحواس انما هى المعرفة ، العلم بوجود الشيء لا أكثر ولا أقل ، على حين أن النظرية الأخرى تزعم أن الحقيقة انما هى فى الأفكار والمعانى والعلاقات والصور الذهنية ، وأن العقل هو المنفذ الوحيد الذى تنفذ منه

الحقائق الينا وأن وظيفة العقل هي الأخرى المعرفة ، العلم بوجود الشيء لا أكثر ولا أقل ٠

فكأن النظريتين تختلفان في طبيعة الحقيقة أولا ، هل جوهرها مادة أم فكرة ؟ وتختلفان في وسيلة معرفة هذه الحقائق ثانيا ، هل تعرف بالحس ، بالنظر والسمع ، أم بالأقيسة المنطقية ومقارنة الأفكار بعضها ببعض ؟ تختلفان في هذا ، ولكنهما تتفقان في أن العقل أو الحواس (تبعا لكل منهما) انما هي وسائل وأدوات للمعرفة لا أكثر ولا أقل ٠

وكما بينا في هذا الفصل، نعيد الآن القول بأن الانسان لا يستريح الى التغير والتقلب والتحول ، فان عالما مؤسسا على التقلبات لا يستطيع الانسان أن يستريح اليه ، ذلك لأن المعاملة مع هذا العالم لا تستقيم له كل الاستقامة ، ولا يكون معها مطمئنا الى أن تصرفاته سوف تذهب به الى الغاية التي يريدها من هذه التصرفات ، وبعبارة أخرى لا يستطيع الانسان أن يكون واثقا مما سيتلو هذا المظهر ، أو هذا العمل أو هذا التصرف ، يريد أن يوجد حالة ، ولكنه لا يأمن أن هذه الحالة لا تتغير في اللحظة التالية ، أي عندما يصل اليها، فكأنه دائما أبدا في حالة تقلقل واضطراب وشك ، وكل هذه الحالات ليست مستحبة لديه ، أو مرغوبة عنده ٠

ومن هنا ، نشأ احتقار الاختبار والزراية به في عالم الفلسفة ، كان المفكرون يضعون العمل والتصرف والاختبار في الموضع الثاني ، بعد الفكر والتفكير ، العمل هو الشيء المكروه المحتقر الذي لا يطمئن الانسان الى نتائجه ، هو

الاتصال المباشر بالبيئة الطبيعية عن طريق الحواس . وأما الفكر فهو التعامل مع الأشياء الثابتة فى هذا الكون ، الحقائق التى لا تتغير ولا تتبدل ، والتى تظل حقائق على مر العصور وفى جميع الحالات ، الأشياء تتبدل ، ولكن العلاقة الفكرية بين الأشياء تظل كما هى ، فالطفل مثلا يكسر القدح، ثم بعد قليل من الزمن قد يكسر قدحا آخر أو قد يكسره طفل سواه ، ففى هذه الحالة تتغير الأقداح والأطفال ولكن العلاقة المعنوية بين هذه الأشياء ، العلاقة السببية مثلا لا تتغير ، فلابد أن عمل الطفل ، أيا كان ، يحدث نتيجة ، ولابد لكل نتيجة من سبب .

هذه الحالة وأمثالها جعلت الناس يميلون الى ناحية الأمور العقلية ، ويفضلونها على سواها ، فأصبح عالم الأفكار هو العالم الحقيقى ، والوجود فيه وجودا حقيقيا (Real Existence) وليس وجودا صوريا أو خياليا ، صارت الناس تميل الى الاعتقاد بأن الموجودات العقلية أشرف وأسمى من غيرها ، وأن الموجودات الحسية فى مكانة ثانوية يصح أن نغفلها من حسابنا ، ويصح أن نزعم أن ليس لها وجود حقيقى .

ثم أتى أفلاطون برأيه فى الحقيقة وجوهرها فى الأشكال والنظم والمثل ، وكيف أنه لم يعتقد أن للحصان المادى ــ الحصان الذى أركبه أنا وتركبه أنت ــ وجودا ذا قيمة ، وانما الحصان الموجود حقا هو الحصان المعنوى الفكرى الذى يستطيع أن يتعامل معه العقل دون الحس ، ولا نرغب بالطبع أن نبحث فى مثل (بضم الميم والثاء)

أفلاطون ، لأنها قد بحثت في الكتاب الأول من هذه السلسلة « قصة الفلسفة اليونانية » ، وانما يكفى هنا أن نقول ان الفلسفة العقلية نبتت في الأصل من ميل الناس الى الأشياء الثابتة المستديمة التى لا تتحول ، وبالتالى انما هى فى الواقع مؤسسة على رغبة الانسان وميله الى الثقة والاطمئنان •

هذا الفصل بين العمل والفكر ، الاختبار والعقل ، الصناعة أو الصياغة والتأمل ، هو من عمل الفلاسفة ، هم الذين أوجدوه ، وأكدوا الفروق بينهما ، آغلوا فى توكيد هذه الفروق لدرجة أصبح معها العالم مقسوما الى قسمين ، والدنيا الى دنيوين، دنيا عليا ـ هى دنيا العقل، هىالسماء ، ودنيا سفلى ـ هى دنيا العمل والاختبار ، هى هذه الدنيا التى نعيش فيها من يوم الى يوم ، ويجب أن لا ننسى أن الفلاسفة على العموم هم رجال فكر لا عمل ، رجال تأمل لا صناعة ، فلابد أن يضعوا وظيفتهم فوق مستوى الوظائف الأخرى عامدين أو غير عامدين ، من وظيفتهم أن يتعاملوا بالأفكار والآراء والنظم الفكرية والمعانى والمصطلحات ، فبالطبع من حقهم أن يؤكدوا هذه ويلفتوا نظر الناس اليها، خصوصا وأنهم ينفردون بهذا التعامل دون باقى الناس الذين يأكلون عيشهم بالكفاح ضد المادة ، بتكييف هذه المادة ، وصياغتها بالطرائق التى تنفعهم فى الحياة والعيش•

بدأت الفلسفة بموضوعات العقل ، وأخذت تقلبها على وجوه كثيرة ، ثم أصبحت تعتقد أن هذه الموضوعات هى الحقائق دون غيرها ، بالطبع كانت الحرب سجالا بين الرأيين،

فتارة ترجح كفة هذا الرأى ، وتارة ترجح الأخـرى تبعـا لقوة عارضة الفيلسوف الذى ينضح عنها ، تارة كان العقل هو الراجح ، وتارة كانت موضـوعات الحس هى الراجحة ، وانما يجب أن لا نغفل هـذه الحقيقة ، وهى أن الفلسـفة بدأت عملها المنظم ، عملها الفلسفى بالمعنى الحقيقى لهـذه الكلمة بترجيح كفة العقل ، وكفة الحقائق العقلية ، ويكفى فى هذا أن نقول ان أفلاطون أبا الفلسفة ، حينما دخل الى ميدانها ، دخله مدافعا عن قضية الحقائق العقلية ·

ومما ساعد على هذه النتيجة ، أى على اتجاه الفلسفة الى هذا الطريق ، آن العقل استطاع أن يشـكك الناس فى حقيقة الاحساسات التى تنقلها الحواس عن الأشياء كما بينا فى الفصول السابقة ، هـذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فحقائق العقل كانت تصحبها صفة الالزام (necessity) أو عليها مسحة الضرورة والاضطرار بحيث لم يكن للانسان بد من أن يقبلها ، والأمثلة على هذا كثيرة لا يتعب الانسان فى البحث عنها ، منها مثلا آن لكل نتيجة سببا ، أو الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية ، هذه وآمثالها أحكام ملزمة ، تظهر عليها عوارض الضرورة ، أو هى قضايا تضطر الناس اضطرارا أن يقبلوها على أنها صحيحة وحقيقية ·

الفصل السابع

الحـــق

فى الكلام عن الحق يجب أن نميز بين شيئين ، ألا وهما « الحق » (truth) و « الحقيقة » (Reality) هـذان الشيئان يختلفان اختلافا كبيرا فى الفلسفة ، وعلى من يدرسها أن يتنبه لهذا الاختلاف والا اختلط عليه الكلام ، والواقع أن كثيرين ممن يهربون من الفلسفة ويكرهونها ؛ انما يهربون منها ويكرهونها لأنها تتكلم عن الحق كلاما ، ثم فى مكان آخـر تتـكلم عن الحقيقة كلاما ينـاقض كلامهـا الأول ، والصعوبة هنا آتية من الخلط بين الحق والحقيقة .

فالحق فى الفلسفة انما هو صفة للـكلام أى للحـكم ، والحقيقة صفة للأشياء ، وبعبارة أخرى الحقيقة هى الأشياء الموجودة ، وأما الحق فهو رأينا فى هذه الأشياء ، فعنـدما نقول ان الوردة حمراء مثلا ، تكون الوردة حقيقة من حقائق الوجود (اذا كانت موجودة حقا وليست خيالا أو خداعا) ثم كونها حمراء هو الحق (اذا كانت حمراء حقا) فحكمنا عليها بالاحمرار حق أو غير حق ، وحكمنا عليها بالوجود حق أم غير حق كذلك تبعا لانطباق الحكم على الواقع ، وأما الوردة ذاتها

فهى حقيقة من حقائق الكون . وبعبارة أخرى الحقائق هى الموجودات ، والحق هو حكمنا على هذه الموجودات . ففى كل قضية أو حكم طرفان • أولهما : هو الحكم نفسه هل هو حق أم غير حق ، وثانيهما : هو الشىء الذى نحكم عليه ــ هل هــو حقيقة أم غير حقيقة ، وبمعنى آخر هل له وجود ام ليس له وجود •

ولكى نزيد هذه المسألة وضوحا نضرب بعض الأمثــال . « اذا كان الغول موجودا فهو حيوان » هذا الحكم حق ، ولكن الغول ليس حقيقة ، أو « ليس للغول وجود » هذا الحكم حق ولكن الحقيقة : (أى الغول) غير موجودة (بالطبع لا نسميها حقيقة فى هذه الحالة) ، « هذا الكتاب يبحث فى فلســفة البراجماتية » هذا الحكم حق ، والكتــاب ، والبراجماتيــة حقيقتان يصح البحث عنهما ، فاذا وجدتا كان الحكم حقا ، واذا لم توجدا فالحــكم ليس حقا ، فالحقيقة هى الوجــود ، والحق هو الحكم فى هذا الوجود اذا كان الحكم صائبا •

ففى هذا الفصل نجد أننا مازلنا فى قضية المعرفة عندما نبحث فى الحق ، هل نستطيع معرفة الحقيقة ؟ هل نستطيع أن نتقدم برأى فيها ، وهل هذا الرأى صائب ، أما الحقيقة ذاتها ، أما الموجودات العقلية أو الحسية فلا نتناولها فى هذا الفصل ، وكل ما نتناوله منها انما هو حقنا فى الحكم عليها ، وهل نملك من الوسائل ما يجعل حكمنا فيها حقا ، ففى هذا الفصل سوف نتناول الكلام عن الحق وليس الحقيقة ذاتها •

الأصــل فى هذه القضية بالطبع ــ قضية الحق ــ انما هو البحث في الحقيقة وعنها ، « الحقيقة موجودة» أم «الحقيقة

غير موجودة » ثم « الحقيقة حسية أو مادية » أو « الحقيقة معنوية أو عقلية » أى هذين الحكمين أصدق ، أيهما هو الحق ، وأيهما هو الباطل ؟ فليست قضية الحق هابطة علينا من السماء دون مقدمات أو دون ضرورة ، وانما هى مسألة معجلة اذا كنا نريد البحث الفلسفى على الاطلاق ، واذا كنا نريد أن نصل الى نتيجة لمجهوداتنا فى عالم الفكر وفى عالم الحس ، ومن هنا أخذ الفلاسفة يبحثون فيما هو الحق (Truth) وفى قضية الحق (The Problem of Truth) ، وعندما نقول الحكم نقصد منه أى كلام فيه معنى الاخبار عن شىء من الأشياء ، سواء أكانت حقيقة أم خيالا ، ومشكلة الحكم هذه (The Problem of Judgment) تدخل فى كل حالة يقول فيها الانسان رأيا عن شىء من الأشياء ، فما الحق اذن ؟

تقول الفلسفة التقليدية (Rationalistic Philosophy) : ان الحق هو التطابق بين الحكم وبين الحقيقة ، فعندما يقول انسان كلاما عن أى موجود من الموجودات ، يكون هذا الكلام حقا اذا انطبق على الشىء المحكوم فيه ، ويكون غير حق اذا لم ينطبق على هذا الشىء أو على حقيقة الحال Fact ، فاذا قلت عن حيوان من الحيوانات انه حصان ؛ فهذا القول حق اذا كان الحيوان حصانا حقا وليس شيئا آخر ، كأن يكون حمارا أو ناقة ، أو كأن يكون شبحا أو خيالا لا حقيقة له ، فمسألة التطابق بين الحق (Truth) والحقيقة (Reality) مسألة جوهرية فى غاية الخطورة عند هذه النظرية الفلسفية .

وهذا التطابق بين الحكم والشىء ، فى ظاهره حق لا غبار عليه ، ذلك لأن المتبع عند جميع الناس فى معاملاتهم

كلها هو انهم يأخذون هذا الحكم ويطبقونه على الواقع فاذا انطبق كان حقا وان لم ينطبق كان باطلا ، نقول مثلا ان طول هذه الغرفة سبعة أمتار ، وهذا حكم يصح أن يكون حقا ويصح أن يكون باطلا ، هو حق اذا انطبق على حقيقة الحجرة ، ولكى نبرهن عليه نأخذ مقياسا طوله سبعة أمتار ونطبقه على جدار الحجرة ، فان انطبق أصبح حقا لا يمارى فيه ، ولا يجوز لأحد أن يرفضه ٠

ولكن هذا التطابق لا يسير بنا الى آخر الشوط ولا ينفع فى جميع الحالات ، لأن النزاع هو فى هذه النقطة بالذات ، فى هذا التطابق نفسه ، فلا معنى لأن نقول انه اذا تطابق الحكم على حقيقة الأشياء فهو حق، فهذا القول تحصيل حاصل. بالطبع يكون الحكم حقا فيما لو انطبق على حقيقة الأشياء ٠ ولكن السؤال هو هل ينطبق أم لا ينطبق على حقيقة الأشياء ؟ وكيف ينطبق على حقيقة الأشياء ؟ ٠

عندما نقول ان الوردة حمراء ، لا نستطيع أن نأخذ هذا الحكم ونضعه بجانب الوردة فاذا انطبق أصبحت الوردة حمراء فى الحقيقة والواقع ، تقول الفلسفة التقليدية اذا كانت الوردة حمراء فى ذاتها حقا فالحكم ينطبق على الحق ، أو بمعنى آخر يوجد ثلاثة أطراف لهذه القضية ، وهى :

١ ــ احمرار الوردة ٠

٢ ــ الحق فى هذا الشأن ٠

٣ ــ حكمنا أو رأينا فى الموضوع ٠

فكأن الفلسفة التقليدية تقول ، انه اذا انطبق الطرف الأول والثالث حصلنا على الطرف الثانى أى : على الحق ، ويجب أن لا ننسى أن هذه الأطراف الثلاثة هى أشياء حقيقية مستقلة موجودة فى الكون ، والحق هو الحد الذى يصل بين الرأى والأشياء •

ولكن المشكل لا يزال قائما ، فلا زلنا عاجزين عن أن نعرف هل حكمنا حق أم لا ؟ لأن معنى كلام الفلسفة التقليدية فى هذا الشأن أن الحكم حق اذا كان حقا ، وهذا كلام أقل ما يقال فيه انه تحصيل حاصل ، فكأننا لا نعدو القول بأن هذا الشىء يساوى ذاك لأنه يساويه •

والخطأ الأساسى فى نظرية التطابق هذه ، هو أن الفلسفة التقليدية تزعم أن العقل كائن مستقل ، والحق كائن آخر مستقل ، والحقيقة كائن ثالث مستقل ، وأن العقل لا يستطيع الاتصال بالحقيقة أو بالأشياء مباشرة ، وانما يستطيع أن يفعل ذلك عن طريق الحق ، وهذا الأخير من شأنه أولا أنه يمثل الحقيقة ، أو الأشياء أصدق تمثيل ، ومن شأنه ثانيا أن يتصل بالعقل ويعلن نفسه له ، فيصبح العقل فاهما للأشياء عارفا بها ، عن طريق معرفته بالحق •

هذا الاتفاق بين الحق والحقيقة هو فى الواقع أصل لكثير من المشاحنات الفلسفية الحديثة ، فالحق فى نظر الفلسفة العقلية ثابت غير متغير أزلى أبدى ، هو حق حتى وان لم يوجد انسان فى الكون يفهمه على أنه حق ، هو شىء مستقل عن الانسان ينطبق من نفسه على الحقيقة دون حاجة

الى انسان يطبقه ، فنهر النيل موجود فى مصر ، هذا حق ، يتفق مع الواقع حتى وان كان لا يوجد فى مصر انسان واحد يشهد لهذا الحق ، لا بل حتى وان كان لا يوجد فى العالم كله انسان فرد يؤمن بأن هذا حق ، وبعبارة أخرى : أن الحق موجود حاصل قائم ، لا يحتاج الى أحد منا ليوجده أو يقيمه ٠

اذن الحق موجود ، كامل فى ذاته وما على عقولنا الا أن تغترف منه وتقدمه الينا ، كلما فهمت عقولنا جزءا منه ، أصبح هذا الجزء ملكنا وفى حيازتنا ، ومن ثم تكتسب أحكامنا ــ فى هذه الحالة فقط ــ صفة الحق ، نحن لا نصطنع هذا الحق وانما نفهمه وندركه ، ونعلمه ، فمثلا أستطيع أن أقول ان « هذه ساعة » وأقصد بذلك هذه الأداة الصغيرة الموضوعة أمامى على المكتب والتى بها أعرف الزمن ، هذا القول « هذه ساعة » حق وينطبق على حقيقة الواقع ، انه حق الآن ، وكان حقا البارحة وما قبلها ، وكونى قلته أنا لا يقدم ولا يؤخر ، لأنه حق ان قلته ، وحق ان لم أقله ، ليس هذا فقط ، ولكنه حق أيضا حتى وان كنت لا أعرف أنه حق ، سواء علمته أو جهلته فهو حق ، وهذه ساعة سواء أكنت أعرف أنها كذلك أم لا أعرف ٠

فالحق موجود فى الكون ، وعمل العقل أن يكتشفه ويدل عليه ، ويبينه للناس، فيفهمه هؤلاء ، ويقبلونه ويؤمنون به، ليس للعقل من عمل الا أن يدور باحثا عن الحق ، فان وجده

أدى رسالته وقام بوظيفته ، ثم نأخذه نحن ونفرح به وكيف لا نسر ، وقد وجدنا الحق ؟

مثلنا فى هذا مثل السائر فى الصحراء وقد برح به الظمأ وفرغ منه الماء ، ففى الصحراء ماء بطبيعة الحال سواء أكان صاحبنا ظمآن ، سواء أكان فى حاجة الى الماء أم فى غير حاجة اليه ، ليس هذا فقط ولكن الماء موجود حتى وان لم يكن فى الصحراء مسافر أو عابر سبيل ، لا يهم الانسان وحاجته فى هذه الحالة ، فان وجود الماء لا يتوقف عليه بحال من الأحوال ، فان وجده ففى الصحراء ماء ، وان لم يجده ففى الصحراء ماء أيضا •

الحق موجود وثابت وغير متغير ، وقد تجده عقولنا وتقدمه الينا ، وقد لا تجده ولا تقدمه الينا ، ولكنه موجود على أية حال ، والاختبار أو الحياة والتقدم والاطراد لا يغير من الحق ، لأنه مطلق غير مقيد بشىء من هذه الأشياء ، فلا يصح أن تكون هذه ساعة اليوم وغدا شيئا آخر ، والحكم الحق فيها لا يمكن أن يتطور أو يتغير بتغير الظروف والمناسبات •

الحق يقلد الحقيقة ، أو هو صورة طبق الأصل منها ، انه ينقل الموجودات الى العقل ، وبغيره لا يستطيع العقل أن يصل اليها ، فالساعة التى أمامى على المكتب حقيقة ، أو جسم تنقله الحواس الى نفسى ، أو تنقل صورتها وشكلها ، بينما العقل يفهم الحق عنها ، يفهم الحكم فيها ، وهذا الحق لا يمكن أن يؤدى رسالته للعقل الا اذا كان صورة طبق

الأصل ، لهذه الحقيقة وهى الساعة ، فكأن الحق يسمى الحقيقة أو يدعوها باسمها ، ويدل عليها دلالة صائبة كل الصواب ، انه مستقل عنها كل الاستقلال ، هو موجود وهى موجودة ، والاثنان متطابقان كل الانطباق ، ونحن نفهم الثانى منهما عن طريق الأول ، الحق هو الذى يعرفنا عن الحقيقة ، ونحن فى بحثنا عن هذه انما نبحث عن الحق فى شأنها ٠

لنفرض أنك واقف فى ميدان من ميادين القاهرة ، ثم حدث تصادم بين سيارتين ذهبت فيه أرواح بريئة ، ودعيت للقضاء لتدلى بشهادتك ، فى هذه الحالة توجدالعناصرالآتية :

١ ــ هذا التصادم ، وبقايا السيارتين ، والجرحى والدماء ، هذه هى الحقيقة كما هى موجودة فى الزمان والمكان مستقلة عن مشاعر الناس وحواسهم ، هذه الأشياء موجودة سواء أكان هنالك انسان يشهدها أم لم يكن ٠

٢ ــ وهنالك أيضا هذا الشاهد ، هذا الانسان الذى سيدعى الى المحكمة ليدلى بشهادته ، أو هذا العقل الذى سيقدم تقريره عن هذه الحادثة أو يبدى رأيه فيها سوف يقدم للقضاء شهادته ، وتتلخص فى أن الحقيقة هى هذه الأشياء الموضوعة بشكل معين فى ميدان القاهرة ، هى هذه الحوادث (Events) بما فيها من عناصر مختلفة ٠

٣ ــ الحق ، وهو هذا الهيكل الموجود فى الكون الذى به نقيس الآراء ٠

وبعبارة أخرى ، الحق هو الانطباق التام بين الحكم والحقيقة وكلامنا اما مستمد من الحق أم غير مستمد منه ، التقرير الذى تقدمه عقولنا ، والحديث الذى نتحدث به اما أنه مستمد من الحق أم مستمد من غيره ، الحق هو شيء مستقل ينطبق على الواقع ، فاذا ما انطبق حكمنا أو كلامنا على الواقع انطبق على الحق أيضا ، واذا ما انطبق على الحق ، فهو لابد وأن ينطبق على الحقيقة ٠

فشهادتك فى المحكمة تقدم للقاضى ليبحثها ، فان وجد أنها تنطبق على الواقع فهى حق ، أو ان وجد أنها حق فلابد وأن تنطبق على الواقع ، وقد تسأل كيف عرف القاضى الحق ، وكيف تنتقل اليه صورة صحيحة عن الحقيقة ــ أى عما حدث بالضبط ؟ قد تسأل هذا السؤال لأن المسألة تحير حقا ، ولكننا نريد أن ننقل اليك صورة من عقلية النظرية العقلية (Rationalism) فى المعرفة ، وهى صورة ممقدة فى الواقع وتعقيدها ناشيء من الفصل بين الحق والحقيقة كما قدمنا فى أول هذا الفصل ٠

فالقاضى يفرض أن للحقيقة وجودا ، يفرض أن فى الدنيا سيارات وأنها قد تتصادم ، ويفرض أنه قد يحدث عن هذا التصادم قتل وتجريح وضياع للنفوس ، ثم يفرض أن هنالك حقا ، هنالك صورة صحيحة لهذه الحقيقة موجودة فى الكون ، لا أعلم أين ، ولكنها موجودة على أية حال ، يعرف أن شيئا حدث فى هذه المدينة ، وأن تقريرا مضبوطا عما حدث كما حدث موجود أيضا ، أو يمكن الكشف عنه والوصول اليه ، أو بعبارة أخرى لو كانت العقول كآلة

التصـوير ، كنا نجد بعد أن نشقها أن فيها صورة صحيحة لما حدث ، صورة حقيقية للحقيقة •

والغرض من استحضارك الى ساحة المحكمة هو لكي تقول ما تريد عن كل شيء تريده ، فيأخذ القـاضي هـذه الأقوال ويطبقها اما على الحقيقة كما يعرفهـا ـ أى على ما حدث فى الواقع ، فان انطبقت أقوالك على ما حدث فهى حق ، وان لم تنطبق عليه فهي باطل ، يستطيع أن يفعل هذا أو أن يفعـل شيئا آخر وهو أنه يطبق أقوالك على الحق ، ليس على الوقائع المادية ، وانما على النظم الفكرية ، وقواعد العقل والمنطق ، فان وجدها تنطبق فقد آمن بقدرتك على الوصول الى حقيقة الأشياء (Events)، وبالتالى يؤمن بأنك قد وصلت الى الحق فى هذا الموضوع •

فكأن في الدنيـا شـيئين : كلاهما حقيقى ، وكلاهما موجود ، أولا : هذه الدنيا ، هذه الأشياء والأجسام والحوادث، هذه الجبال والأشجار والأنهار ، والمنازل والسيارات ، هذه موجودة في ذاتها ، موجودة مستقلة عن الانسان وعن فهمه وحسه وعقله ، موجودة حتى وان انعدم كل عقل يستطيع أن يدركها ، وثانيا : صور هذه الأشياء ، نسخ فكرية معنوية منها ، هذه هى الأخرى موجودة ومستقلة عن فهم الانسـان ومداركه •

ثم يأتى العقل ، ويعالج هـذه الصـور المعنوية ، فان استحوذ على قسط منها ، فقد استحوذ على قسط من الحق ، وان امتلك صورة كاملة تامة من هذه الصور ، فقـد امتلك

قطعة من الحق تامة كاملة ، فالحق هو موضوع العقل الذى يعالجه بالامتلاك والحيازة ، كما أن الطعام هو موضوع المعدة تعالجه بالهضم والامتصاص وتدمجه فى نفسها ، بالطبع الطعام موجود حتي وان لم توجد معدة واحدة تستطيع أن تهضمه ، كذلك الحق موجود حتى وان لم يوجد عقل واحد يستطيع أن يدركه ٠

ومعنى هذا بكلام آخر ، أن هناك وجودا (Existence) أسمه حق ووظيفة العقل أن يتقدم اليه ويتناوله ، يأخذه بين يديه ويفحصه ، ثم يفهمه أو يدركه ، والادراك أو الفهم، هو عملية امتلاك وحيازة ، وتأمل فى هذا الوجود، او بمعنى آخر نقل هذا الوجود الى الانسان نقلا دقيقا ، فيصبح الانسان عالما بهذا الوجود شاعرا بأنه ليس وحيدا فى هذا العالم ، وانما هنالك وجود آخر غيره بعيد عنه مقابل له ، ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن هذا النقل ، والتقليد هو لمجرد نقل هذه الصور وتقليدها ليس الا ، ولنفرض أني فى حجرة ، وصديق لى فى حجرة مجاورة ، واذا بصديقى هذا يقول : « أنا هنا فى الغرفة المجاورة » ، يقول هذا دون أسباب أو مقدمات ، أو دون داع لهذا الخبر لأني لا أحتاج الى صديقى ولا هو يحتاج الى ، وانما كل ما فى هذا الأمر أنه لمجرد العلم به لا أكثر ولا أقل ٠

عمل صديقى هذا ـ هو بالضبط عمل العقل فى هذه النظرية (النظرية العقلية في المعرفة) ـ عمله هو أن يشعر الانسان بالوجود والموجودات لمجرد الاشعار لا أكثر ولا أقل ، كأنه يقف على باب النفس الانسانية ويطل الى الخارج ، ثم

ينادى لمن فى الداخل قائلا ، « هذا منزل » و « هذا حصان » و « هذا مصباح كهربائى » الى آخر هذه النداءات ، ثم هنالك فى داخل النفس الانسانية من يقيد هذه الأحكام ، أو هـذه الأخبار ، خبرا خبرا ، أو يرسمه رسما ويصوره تصويرا ، وينتهى الأمر عند هذا الحد لا يتعداه ٠

يعتبر الحق فى الفلسفة التقليـدية كائنـا موجـودا مستقلا عن الكائنات الأخرى مثل الشجرة والنهر والجبـل . والفرق بينه وبين هذه هو أن الاخيرة تدرك بالحواس ترى وتحس ، ولكن ذاك شيء لا يدرك الا بالعقل وحده ، بالنظم الفكرية ، بالمنطق والقضايا الـكلامية ، فالأشـياء المـادية لا يدركها العقل بالطبع الا عن طريق الصور الذهنية التى تصله عنها ، ولكن الحق لا يتقدم الى العقـل فى صـور أو أزياء أو أشكال ، وانما الاتصال بينهما اتصـال مباشر ، اتصال عن غير واسـطة من الوسـائط الذهنيـة كالصـور والأشكال ٠

ومن خصائص هذا الحق عند الفلسفة التقليدية أيضا أنه يتصل بالعقل لمجرد الاتصال أولا ؛ لأنه من واجب العقل ومن امتيازاته أيضا أنه يدرك الحق ، ولكنه يتصل به ثانيا لسبب آخر ، ينفذ اليه حتى يعينه على فهم الحقائق (realities) والـوقائع (facts of Experience) ، فالحقـائق والـوقائع أشياء أو كائنات لها وجود خارجى مستقل كل الاستقلال عن العقل ، بعيد عنه كل البعد ، وانما الأمر فى الحق يختلف عن هذا ، فليس الحق والعقل مستقلين كل الاستقلال بعيدين كل البعد ، وانما هما على اتصال وثيق أحدهما بالآخـر ،

يستطيع الحق أن ينفذ الى دخائل العقل ويستقر فيه ويكشف نفسه له ، ثم يستطيع العقل أن يدرك هذا الحق ويهضمه ويفهمه ويستحوذ عليه •

ومن الجهة الأخرى ، للحق اتصال وثيق بالحوادث وبالحقائق وبالأشياء ، هو صورة طبق الأصل منها ، ليس صورة ذهنية ، ولكنه صورة موضوعية مستقلة عن العقل وتستطيع أن تتصل بالعقل كما قدمنا ، بخلاف الصور الذهنية للأشياء فان هذه من صنع العقل نفسه ، وعلى أية حال. فالحق صورة موضوعية للحوادث ، ولأن العقل يستطيع أن يتصل به ، فهو بذلك يستطيع أن يتصل بالأشياء الأخرى عن طريقه •

ولنأخذ مثلا آخر على ما تذهب اليه الفلسفة التقليدية فى معنى الحق ، وفى معنى أن العقل ينقل هذا الحق الى نفس الانسان ويفهمه اياها ، ويوضحه له ، هنالك فى قبة السماء سبعة نجوم ، مرتبة على شكل حيوان معروف ، هو الدب ، والواقع أننا ندعوها بالدب الأكبر ، فهذه النظرية تزعم أن هذا الدب الأكبر موجود قبل أن يوجد الانسان ، وهو موجود على هذا النظام الذى يجعل شكلها قريبا من الدب ، ثم ان عدد نجوم هذا النظام هو سبعة ، وقد كان سبعة قبل أن نكتشفها ونعرف مكانها من السماء ، ثم كان شكلها كشكل الدب قبل أن نعرف أن نميز بين الدب والسلحفاة •

وقد شعرت الفلسفة أن هذا الكلام لا يستقيم لفهم ولا يقبله ذوق ، لأن العدد سبعة ، هو علاقة اخترعها الانسان

بين الأشياء ، أو هو يد أو مقبض أوجده فى الأشـياء بحيث
يتسنى له أن يتناول الأشياء من هذا المقبض أو هاته اليد ،
ثم هنالك صورة الدب ، وشبهه ، وهذه أيضا معنى من معانى
العقل التي أوجدها ، حتى يستطيع أن يميز شيئا عن شيء
آخر لأنه اذا لم يستطع أن يميز بين هذه الأشياء بصور من
عنـده لاختلطت عليه جميعهـا ، فيقـول جمـلا حين يعنى
انسانا ٠

كل هذه الصعوبات أحست بهـا الفلسـفة التقليدية ،
وشعرت أن الحق (Truth) لا يمكن أن يكون حقا الا اذا كان
هنالك عقل يفهمه بشكل من الأشكال ، هـذه العـلاقات فى
الأشياء لا تكون علاقات قبل أن يكـون هنالك عقـل يفهمها
ويدركها ، هذا أكبر من ذاك مثلا ــ هذه العلاقة بين هذين
الشيئين حق ، ولكنه حق يحتـاج الى عقـل يدركه ، وهنـا
تضطر الفلسفة العقلية الى أن تقول بوجود عقل كبير أزلى
أبدى ، يفهم الأشياء على حقيقتها ، يفهمها كما يجب أن تفهم
ويدركها كما يجب أن تدرك ، حتى وان كنا نحن لا ندركها
ولا نفهمها بعقولنا المحدودة ٠

نحن نعرف الآن أن هذا الجو الطبيعى ، هذا الفراغ الذى
يحيط بالأرض مملوء بالأمواج الكهربائية ، وأننا نستطيع
الآن أن نستخدم هذه الأمواج فى نقل الأصـوات من أقصى
مكان على الأرض الى أية بقعة منها نشاء ، ثم نعلم الآن أيضا
أنه من المستطاع نقل صور الحوادث على هـذه الأمواج من
مكان الى مكان ، فوجود هذه الأشياء حق ، وقد كان حقا قبل
أن نعرفه ، وسيظل حقا بعد أن عرفناه ، ولكنه قد كان حقا

لعقل آخر غير عقولنا وفي نظر كائن آخر غيرنا ، هذا الكائن الأزلي هو الذى قضى بوجود هذه الأشياء ، هو الذى قرر هذه الحقيقة ، وبقينا نحن جاهلين بها ، والآن قد أتي دورنا ، وأصبحنا نحن أيضا نقرر هذا ونقبله ونفهمه ، ونتحدث به ، وننقل صورة عنه لمن يريد أن يستمع لحديثنا .

بعد هذا الفرض ، بعد الزعم بوجود هذا العقل ، استقام الأمر نوعا للفلسفة التقليدية ، فأصبح الحق عندها أزليا ، أبديا ، أصبحت هذه الصور المعنوية للأشياء موجودة لأن هنالك عقلا يفهمها ويدركها ، ثم أصبح الحق كاملا فى نفسه بعيدا عن التغيير والتبديل والزيادة والنقصان ، وأصبح العقل ولا عمل له ــ من هذه الناحية ــ الا أن يدور باحثا عن الحق ، ومتى وجده تأمله وأدركه الى آخر هذه العمليات السالبة التى لا تتعدى النظر والمشاهدة .

اكتسب الحق هذا الخلود وهذا الكمال ، وهذا الاستقلال عن العقل الانسانى ، وهذا البعد عن أن يتأثر من هذا العقل بحال من الأحوال من صفة أخرى يجدها العقل فى هذا الحق ، وهى صفة الالزام والاضطرار (necessity)التى يجدها في بعض الصور الذهنية والعلاقات بين الأشياء ، خذ مثلا العلاقاتالمنطقية والعلاقات العددية ، والعلاقات السببية ، كل هذه العلاقات لها صفة الالزام والضرورة ، يشعرالانسان معها أنها حاصلة بالضرورة ، موجودة من نفسها دون تدخل من العقل أو دون سعى منه في ايجادها وتحصيلها ، هذه الصفة ، أو هذه الخاصية في الحق تأخذها الفلسفة التقليدية وتبنى عليها القصور العوالى ، وتحج المخالفين بها .

ولا يشعر الانسان معها الا باضطراره للتسليم بصحتها ، دون أن يكون له عمل ايجابى فيها ، وكل ما يستطيع أن يعمله معها هو الفهم والادراك ، ثم القبول والتسليم ، فوجودها ضرورى لا محيص له عن قبوله ٠

خذ مثلا هذه القضية « أ » أكبر من «ب» و «ب» أكبر من «حـ» اذن « ا » أكبر من « حـ » هذه قضية لا تحتاج الى شرح كثير والى أخذ ورد ، كل انسان فى هذا العالم ، متى كان له القسط العادى من العقل والفهم ، لابد أن يقول ان هذا حق، حق ملزم ، حق بالضرورة ٠ لا دخل لنا أو لتفكيرنا فيه ، انما نشعر أن عقولنا مغلوبة على أمرها فى هذا المجال ، كأنه فى الواقع قوة قاهرة تفرض وجودها على عقولنا فرضا، وما على العقل الا أن يحنى الرأس ويقبله ، ثم انه حق أزلى أبدى لا يتغير ولا يتبدل ، لا ينقص ولا يزيد ، حق سواء أكنا موجودين لقبوله ، أم غير موجودين أصلا ، انه لا يتوقف علينا بحال من الأحوال ، وكل ما نستطيع أن نفعله بازائه هو أن نحسه ونشعر به ٠

ولكن كيف نعرف ونتاكد أن هذا حق وغيره باطل ، كيف نعرف أن الحقيقة موجودة ، كيف نعرف أن هنالك دولة تدعى اليابان ، وما الحق فى هذا ، ثم كيف نعرف أن الأرض مستديرة ، وما الحق فى هذا ؟

تقول الفلسفة التقليدية ، ان هذا الحكم « اليابان دولة موجودة » حق فيما لو انطبق الحكم على الحقيقة ، لو كانت اليابان موجودة حقا فالحكم حق دون نزاع ، وما علينا الا أن نثبت وجود هذه الدولة أو عدم جودها ، فيتبين الحق دون عناء ، وبعبارة أخرى الحق لا يحتاج الى تحقيق ، لا يحتاج

الى عملية تجعله حقا ، كل ما نحتاج اليه هو أن نتأكد من حقائق الموجودات ، نبحث عنها ونجدها ، أما الحق فلا يحتاج الى تحقيق ، وانما كل ما يطلبه منا الحق هو أن نفهمه لا أن نعينه على أن ينحقق ٠

ففكرتنا أو رأينا في أى شيء صائب اذا ما كان هذا الفكر أو الرأى متصلا بالحق أو منطبقا عليه ، أو بعبارة أخرى أن هذا البحث من أوله الى آخره ـ انما هو بحث في صحة المعرفة وصدقها ٠ لقد يذكر القارىء أننا قد أثرنا في فصل سابق مسألة المعرفة (Epistimology) وقلنا ان هذه القضية لها شقان ، الشق الأول هو كيف نعرف ـ ما الأدوات والوسائل للمعرفة ، والشق الثاني ٠ كيف نتأكد من أن معرفتنا بالأشياء مضبوطة ، كيف نعرف أن ما يصل الينا من الحقائق الخارجية انما هو يمثل هذه الحقائق دون زيادة أو نقص ، ودون تحريف وتبديل ، قلنا في الفصول السابقة ان هنالك رأيين في وصول المعرفة الينا ، أو وصول المعلومات عن الأشياء المحيطة بنا ، أولهما رأى يقول : ان الطريق الوحيد لوصول هذه المعلومات هو الحس ، النظر والسمع واللمس ، ورأى آخر يخطيء هذا الرأى ويدلل على هذا الخطأ بأن كل الاحساسات التي تصل الينا عن طريق الحس مشتبه في صحتها لأن الحس يخطيء ويخدع ، ثم يزيد هذا الرأى على ما تقدم من نقد للحس بأن المعرفة الصائبة انما تأتينا عن طريق العقل وحده ، وأن هنالك شيئا مستقلا اسمه الحق ، هذا الشيء ينطبق بطبيعته على حقيقة الأشياء والحوادث ، ومتى عرفنا الحق ، متى اتصلنا به ، أو متى كشف هذا الحق نفسه لنا ، أصبحنا عارفين الأشياء معرفة

صحيحة ، وبمعنى آخر متى كان رأينا منطبقا على حقيقة الواقع فهو حق ، والا فهو خطأ ، ومن هنا نشأت مسألة الانطباق هذه ، كيف تنطبق آراؤنا على الحقائق Realities نحن نسلم بأنها متى انطبقت فهي حق وصحيحة وصادقة ، وانما ما لا نفهمه ، وما لا تدركه عقولنا ، هو كيفية هذا الانطباق ، الطريقة التي بها نتناول هذه الآراء ونطبقها على الحقائق كما نطبق المتر على أطوال الأشياء ، هذه هي المشكلة .

ولنضرب على هذه المشكلة مثلا يرينا مكانها من الصعوبة والاشكال ، عندى فكرة عن الكهرباء ، هذه الفكرة أو هذا الرأى قد يكون صوابا وقد يكون خطأ ، فكيف أعرف أنه خطأ أو صواب ؟ كيف أتحقق من صواب حكمي ؟ تقول الفلسفة التقليدية خذ هذا الرأى وطبقه على الحقيقة أى على الكهرباء فاذا انطبق فهو حق ، أو اذا انطبق فقد كشف الحق نفسه لعقلك وقد فهم عقلك الحق ، نقول حسن ، هذا معقول جدا ولا يمكن الشك فيه ، فرأيي حق عندما ينطبق على الحقيقة ، ولكن معضلتي ليست فى هذا على الاطلاق ، وانما المشكلة عندى هى فى كيف أطبق هذا الرأى على الحقيقة ، كيف أتناول هذا الرأى أولا ، ثم كيف أتناول الحقيقة ثانيا ، ثم كيف أضعهما بجانب بعضهما ثالثا ، وكيف أرى هذا التطابق بينهما رابعا ؟

من هذا نرى أن الفلسفة التقليدية تفرض فروضا كبيرة ، فهي تفرض أن العارف والمعروف شيئان مختلفان كل الاختلاف منفصلان كل الانفصال بعيدان عن بعضهما كل

البعد ، تفرض أن العقل شيء والحقيقة (Reality) شيء آخر ، ولا تصل بين هذين الشيئين صلة طبيعية معروفة ، وهذه مشكلة أخرى لا نعرف الآن كيف الخلاص منها ، هذا الفصل القوى العنيف بين الأشياء التي تريد أن تعرف ، وبين العقل الذى يريد أن يعرف ، مشكلة أوجدتها الفلسفة التقليدية لا يمكننا التخلص منها اذا ما استعملنا طريقتها وقبلنا قضاياها ، لأنه اذا كان العقل شيئا مستقلا بنفسه قائما بذاته منفصلا عن بقية الأشياء ، ثم اذا كانت الحقائق (Realities) أشياء مستقلة قائمة بنفسها لا علاقة لها بالعقل ، فكيف أصبح أحدهما يعرف الآخر ، والآخر مفهوما عند الأول ، اذا كان عقلى لا يتصل بالأشياء بطريقة من الطرائق كيف اذن يدركها ؟

ولكى تتخلص الفلسفة التقليدية من هذه المشكلة ، فرضت وجود شيء آخر مستقل عن هذين ، ولكنه يستطيع أن يتصل بهما جميعا ، وعن طريق اتصاله ، يستطيع العقل أن يصل الى الأشياء ، هذا الذى تريد أن تفرضه هذه الفلسفة ، هو الحق ، هذا الحق شيء قائم بنفسه ، أو حقيقة لها وجود خارجى ذاتى مستقل ، ولكن من خصائصه ومميزاته أنه يستطيع أن يكشف نفسه للعقل الانسانى ، يستطيع أن يفتح العقل الانسانى فيراه ويعقله ويفهمه ، ويصبح هذا الحق المعلن ملكا للعقل يستعمله لفهم الأشياء ومعرفتها ، ثم يستطيع هذا الحق أن يفعل شيئا آخر وهو أنه فى مقدوره أن يمثل الحقيقة (Object or Reality) أو الأشياء الموجودة

أصدق تمثيل ، هو صورة طبق الأصل من هذه الأشياء ، انه ينطبق انطباقا مطلقا على الأشياء ٠

فعندما يكشف هذا الحق نفسه للعقل الانسانى ، يصبح العقل قادرا على ادراك الأشياء أو حقائق الوجود وفهمها ، والرأى الذى يرتئيه العقل فى أى وقت من الأوقات يكون صحيحا اذا ما وافق هذا الحق ، لأنه اذا وافق الحق وانطبق عليه فهو بالطبيعة يوافق الحقيقة وينطبق عليها ٠

فكأن الغاية الأخيرة من هذا الفصل هى هذه ، حق الانسان فى الحكم على الأشياء والحقائق ، هل له هذا الامتياز وهل هو كفء لهذا الحكم ؟ وبعبارة أخرى ، هل للانسان المقدرة ليحكم فى الأشياء ، ليقول ان الحقيقة هى كذا وكذا ، هل له أن يقول انه يفهم الحقيقة ، ويعرفها وهل له أن يتصل بها ، وما طريق الاتصال بين العقل والحقيقة (أى جميع الموجودات) ؟ هل هذا الاتصال بالطريق المباشر ، كالنظر مثلا ، يمتد الى الأشياء ثم يحيط بها ، ويرتد ببعض الاحساسات عنها ، أم أن اتصال العقل بهذه الحقائق بطريق غير مباشر ، كأن يتصل العقل بشىء آخر غير الحقيقة ، وعن طريق هذا الشىء يتصل بالحقيقة نفسها ، ومثله فى ذلك كمثلنا عندما نرى أحد التوأمين ، فنكتفى بمشاهدة الواحد عن طريق مشاهدة الآخر ، لأن هذا ينطبق على ذاك كل الانطباق ، فنقول مثلا اننا نعرف التوأم محمدا وان كنا لم نشاهده أبدا ؛ ولكننا نعرفه على كل حال لأننا نعرف أخاه عليا حق المعرفة ٠

فالفلسفة التقليدية تذهب هذا المذهب وهو أننا نعرف الأشياء والحقائق عن طريق غير مباشر ، نعرفها لأننا نعرف الحق عنها ، والحق هو الصـــورة الوحيـدة المضبوطة لهذه الحقائق ، والحال في هذا كالحال مع الرئيس ويلسن رئيس الولايات المتحدة الأسبق ، لم نتصل بويلسن بحال من الأحوال لأنه لم يكن من الممكن أن نتصل به ، ولـكن هنالك حقا عن ويلسن، أو صورة له ، وقد رأينا هذه الصورة ، ومنها نعرف ويلسن ، فالفلسفة التقليدية تطبق هـذا عـلى باقى الأشياء والحقائق ، الحقائق فى ذاتها ليس من الممكن أن نعرفها ، ولكن هنالك حقا عنها ، هنالك صورة لها ، والصـورة غير الواقع ، ولكنها تنطبق على الواقع كل الانطباق ، والمعاملة بين العقل والحقائق لا تكون الا عن طريق هذا الحق أو هذه الصورة •

الفصل الثامن

معنى الحـــق

لقد رأينا فيما تقدم من هـذا الباب كيفيـة معـالجة البراجماتية لقضايا المعرفة ، كيف أن هذه الفلسفة الفتيـة الحديثة رجعت بنا الى أصل هذه الحواس ، والى أصل هـذا العقل، وكيف بينت أن الغرض من هذه الأدوات (Instruments) لم يكن المعرفة وانما الحياة والعيش ، وكيف أن الفلسـفة الاختبارية وأختها العقلية قد أخطأتا وعداهما الصـواب ، عندما فرضت كل منهما أن الحواس أو العقل انما هما أبواب للمعرفة أولا ، ثم كيف أخطأتا وعداهما الصـواب عنـدما أخذتا تتناحران وتقتتلان ؛ لكي تثبت كل منهما أن الأخرى هي وحدها المخطئـة ، كان من طريقـة علاج البراجماتيـة للحواس والعقل جميعا ، أن خرجنا نشعر أن هـذا التطاحن بين النظريتين السالفتي الذكر لم يكن يرمي الى غاية ، وانما كانت جهودا في غير طائل ٠

لقد بينت البراجماتية أن الحواس هي أبواب لقبـول المؤثرات ؛ لكي تتلوها استجابات الكائن الحي بطريقة فعالة مجدية تعود على حياة الكائن بالغاية المرجوة ، فالغاية منهـا

ليست المعرفة لمجرد المعرفة ، ثم قد بينت أيضا أن العقل والفكر هما سلاح للعمل وليسا سلاحا للمعرفة ، وأن الفكرة انما هى صورة عن المحسوسات يستطيع الكائن أن ينقلها معه الى حيث يريد ليعمل بها ويؤثر فى البيئة المحيطة به ، ولقد لجأ الانسان الى نقل صورة عن الشيء دون الشيء ذاته ؛ لأن هذا الأخير لا يسهل تداوله في كثير من الحالات ، لا بل قد يتعذر نقل الشيء ذاته في حالات كثيرة ، وعلى ذلك فصورة الشيء المعنوية أو الفكرية قد تنفع حيث كان ينفع الشيء ذاته ، فاذا كان عندى بيت فى القاهرة وأريد أن أبيعه فى الاسكندرية ، أستطيع أن أنقل صورة البيت الى حيث أريد أن أبيعه ، أما البيت ذاته فمن المحال نقله الى كل سوق ٠

ثم قد بينت فلسفة البراجماتية أن العقل فى ذاته انما هو القدرة على اختزان هذه الصورة للأشياء ، والمقدرة على التعامل بهذه الصورة دون الأشياء ذاتها ، وهو أيضا هذه العلاقات بين الأشياء وبعضها ، وبين صور بعض الأشياء وصور بعضها الآخر ، وأخيرا بين الصور والأشياء ذاتها ، هذه العلاقات المنطقية والزمانية والمكانية هى فى مجموعها العقل ، وبعبارة أخرى العقل هو المقدرة على حفظ الاختبار فى مجموعه ، الاختبار الكبير الذى يجوزه الانسان من يوم ولادته الى يوم موته ، هذه القدرة على استدعاء قطع الاختبار وتكليفها بعمل تؤديه ووظيفة تقوم بها ، هذا الاختبار على هذا الوضع هو العقل ٠

لقد كانت الفلسفة التقليدية تغفل العلوم الا فى النادر القليل ، وخاصة كانت تغفل السيكولوجية الحديثة ،

والأنثروبولوجيا وعلم الاحياء ، فأتت فلسفة البراجماتية وتقاضت هذه العلوم جميعها كل الحقائق التي تستطيع أن تصل اليها ، لقد استعملت وسائل هذه العلوم ونتائجها في بحوثها الفلسفية في المعرفة وفي العقل والحواس ، وكانت النتيجة خيرا على الفلسفة كما تبين لنا في الفصول السابقة •

وخرجت من هذا الاستقصاء بأن كل فكرة ، وكل رأى، ليست حالة للمعرفة ، أو ليست قطعة معرفة بحال من الأحوال ، وانما هى فى الواقع مبدأ العمل ، أو الخطوة الأولى التمهيدية للعمل ، فعندما تصل الى ذهنى صورة عن اليابان مثلا لا يمكن أن تكون هذه الصورة هى الحق ، أو هى حالة من حالات المعرفة لمجرد المعرفة والعلم ، فالعقل لم يخلق لينقل هذه الحالات لمجرد المعرفة لا غير ، وانما هى حالة من حالات العمل ، هى الشروع فى العمل والاستعداد له ، أو هى فى الواقع حالة عمل ضمنى مستتر خفى ، يتلوه بطبيعة الحال العمل الظاهر الواضح الذى يقصد منه تنظيم بيئة الانسان بحيث تلائمه •

قد يعترض كثير من المفكرين والفلاسفة على هذا الرأى الذى ترتئيه فلسفة البراجماتية فى الفكر والعقل ، والواقع أن كثيرين منهم قد اعترضوا على هذا ورفضوا بحال أن يأخذوا به ، ولكن ما تقدم فى الواقع قد يقبله جمهرة الفلاسفة الآن ، لأنه لم يخرج عن كونه رواية لما حدث فى تاريخ تطور الانسان ، فالعقل أو الفكر انما نشأ فى الأصل لتمكين الانسان من عمله ومن حياته ، كما خلق كل عضو آخر من أعضائه ، وانما النزاع يدور الآن بين الفلاسفة حول

معنى الحق ، ذلك الحق الذى شرحناه فى الفصل السابق ، لأن رأى البراجماتية فى معنى الحق رأى طريف جدا ، لا بل رأى جرىء يجد الناس كثيرا من الصعوبات فى قبوله ، وان كانت البراجماتية قوية الحجج والأسانيد فيه ٠

ولكن لا داعى الآن لأن نسبق الحوادث ، يحسن أن نسير معها الى أن تصل بنا الى جوهر المشكل بين الفلسفة التقليدية وبين فلسفة البراجماتية على معنى الحق ، ونكتفى الآن بأن نتبع تفكير البراجماتية خطوة فخطوة ، وهى تزعم ــ مستندة الى براهين قوية كما قدمنا ــ أن العقل ليس للمعرفة وانما للعمل ، وأن الفكرة ليست حالة من حالات المعرفة وانما هى الخطوة الأولى التمهيدية للعمل ، وأن عمل الحواس انما هو تلقى مؤثرات البيئة ، والمؤثر بطبيعته ليس اخطارا بوجود شىء لمجرد الاخطار ، وانما هو لكزة أو ضربة أو وخز يتطلب الاستجابة ، والاستجابة هى العمل المطلوب ، أو هى الغاية من جميع هذه الخطوات التمهيدية ٠

ولنأخذ قانون السببية الذى تكلمنا عنه فيما سبق ، هذا القانون يقول ان كل شىء يحدث ، له شىء آخر أحدثه ، كل أثر فى الكون له مؤثر أو سبب أوجده ، هذه الساعة التى أمامى على المكتب تدور لأنه وجد قبلها انسان صانع ساعات قد صنع أجزاءها وضمها الى بعض ووضع لها خطة تسير عليها ، ولا يقبل العقل أن وجود هذه الساعة لم يسبقه وجود آخر ، وأن هذه النتيجة لم يكن لها سبب تقدمها فى الزمن وأخرجها الى الوجود بهذه الكيفية وعلى هذا الوضع ٠

تقول الفلسفة التقليدية هذا معقول بالطبع ، وفكرتنا عن قانون السببية مضبوطة لأنها تنطبق على الحق الموجود في هذا الكون ، والحق بطبيعته ينطبق على الحقيقة اى على الموجودات ، واذن فرأينا هذا ، أو ادراكنا هذا لقانون السببية انما مرجعه الى ادراكنا للحق ذاته أولا ، ثم أنه ينطبق على حقيقة الموجودات لأنه ينطبق على هذا الحق المطلق المستقل القائم بذاته فى هذا الكون ثانيا ، ثم انها تزعم أن هذا القانون ــ أو ادراكنا له وقبولنا اياه ــ ليس الا حالة من حالات المعرفة ٠

ولكن البراجماتية تقبل بعض هذا وترفض البعض الآخر ، تقبل أولا هذا القانون ، ليس لأنه ينطبق على الحق المجرد ولكن لأنه قطعة من الاختبارات العادية ، لأنه شيء يمارس فى العمل والتصرفات والاستجابات لمؤثرات البيئة التى نعيش فيها ، ثم تقبل بالطبع وجود الحقيقة ، أى وجود الساعة ووجود الصانع الذى أوجد هذه الساعة ، وتقبلهما أيضا لأنهما قطع من الاختبار العادى الذى نعركه كل يوم ونؤثر نحن فيه ، ثم تقبل البراجماتية أيضا نظرية الانطباق هذه بين الرأى والحقيقة ، بين الفكرة والشيء ، اذا كان يستطاع التأكد من هذا الانطباق ، وهى تزعم أن هذا اذا تم فلا يدل على شيء الا على أن الرأى والحقيقة يتقاربان بعضهما من بعض ، ويلاحظ القارىء أننا لم نمس « الحق » للآن ذلك الوسيط الذى يتوسط بين العقل والأشياء ، فيمثل الأشياء أولا ثم يعلن نفسه للعقل ثانيا ، لم نذكر شيئا عنه ، وانما نزعم أن الانطباق بين الأشياء والرأى

لا يضير البراجماتية ، ولا مانع عندها من قبوله اذا ما أمكن تحقيقه ·

هذا كله تقبله البراجماتية ؛ ولكنها أولا لا توافق على أن قانون السببية هو حالة من حالات المعرفة ، وانما هو حالة من حالات الاختبار أى حالات العمل والنشاط فى البيئة ، ليس هنالك حق مطلق موجود فى الكون يعلن نفسه لعقل الانسان ، وانما هنالك اختبار يجوزه الانسان ، هنالك دنيا من أشياء وصور يتصرف فيها ويعالجها بكل الطرائق المستطاعة لديه ؛ حتى يغيرها أو يغير علاقته بها سواء بتغييرها أم بتغيير نفسه ، فقانون السببية هذا هو حالة من حالات العمل ، جرده الانسان من الحالات المعينة بذاتها وحمله معه ليطبقه فى كل حالة يريد أن يتصرف فيها ، شأنه كشأن صورة الأسد مثلا ، هذه الصورة جردها الانسان من الأسد ذاته · وأخذها معه فى طيات نفسه ، حتى اذا ما رأى وحشا أخرج هذه الصورة وقارنها به ، فان وجد الصورة تنطبق على هذا الوحش فر هاربا لأنه أسد ، ونجا بنفسه ، ولا يهم بالطبع أن الصورة تنطبق فى جميع دقائقها على هذا الوحش ، أو لا يهم أنها الحقيقة بحذافيرها عنه ، وانما يكفى أن يكون هنالك بعض التشابه فيحذر ويتخذ عدته للهروب أو للدفاع ·

لقد رأى الانسان فى حياته فعل الأشياء فى بعضها ، وفعله هو فى الأشياء ، وفعل الحقائق أو الأشياء فيه ، وهذا كله بالطبع ليس حالة من حالات المعرفة ، انما هو حالة من حالات العمل والتصرف والحياة ، رأى فعل الأشياء

يبعضها فنقل هذه العلاقة أو هذه الصورة ، ثم أعطاها اسما هو قانون السببية ، وآخذها معه الى حيث يذهب ، وعندما تعرض له حالة تتطلب عملا يخرج هذه الصورة ويطبقها او يعمل بها ، وبعبارة أخرى يقلد ما كان يحدث ، فيحصل على النتيجة المطلوبة ، فاذا أراد أن يوجد حالة بذاتها ، أوجد لها حالة تسبقها ، أو بعبارة أخرى أوجد لها سببا فتوجد الحالة التي يريدها ، فليس اذن في الوجود حق مستقل فى نفسه يمثل الأشياء وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر ، وليس قانون السببية اذن حالة من حالات اعلان هذا الحق عن نفسه ، وليس هو حالة من حالات حيازة العقل الانسانى هذا الحق وامتلاكه له ، وانما كل ما فى الأمر أن الانسان تصرف تصرفا معلوما فى حالة معينة من حالات الاختبار ، ثم عاد فى حالة أخرى وتصرف نفس التصرف وخرج بنفس النتيجة ، لقد وجد أن الجرة لا تنكسر الا اذا دفعها بيديه ، فصار يدفعها بيديه كلما أراد كسرها .

وهنالك شيء آخر تنازع فيه فلسفة البراجماتية وتقاومه ما استطاعت الى المقاومة سبيلا ، هو هذا الحق الموجود وجودا مستقلا عن كل شيء آخر ، هذا الكائن الغريب عندها الذى لا تستطيع أن تجد له مكانا فى نظام تفكيرها ، فهى لأنها تزعم أن حالات الاتصال بين العقل والحقائق أو بين الحس والأشياء ، انما هى حالات عمل ونشاط وليست حالات معرفة ، نقول بما أن البراجماتية تزعم هذا الزعم ، فهى بطبيعة الحال لا تفهم وجود هذا الحق أولا ، ولا تفهم ثانيا تدخله بين الانسان وبين الأشياء ، لا تجد له ضرورة ولا عملا يعمله فيما بين الانسان وبين حقائق الوجود

(Existence) ، ليس الحق موجودا مستقلا قائما بنفسه كما تزعم الفلسفة التقليدية ، وانما هو شيء ينتهى اليه العمل ٠

وقبل أن نسترسل فى معنى الحق عند البراجماتية ، نريد أن نجنب القارىء بعض الظنون التى قد يظنها فى هذه الفلسفة ، لأنه اذا لم تستبن الحقيقة فى هذا الكلام اختلط الأمر على القارىء (لعجز الكاتب بالطبع) فأصبح يتهم البراجماتية بأشياء هى منها براء ، فمثلا نريد أن نؤكد بكل ما نستطيع من قوة أن البراجماتية لا تنكر الحق كما تواضع عليه الناس ، لا تنكر أن هنالك حقا وباطلا ، وأن الناس يجب أن يتبعوا الحق ، فلا يجب أن يكون هنالك ظل من الشك فى عقل القارىء من جهة هذه الفلسفة ، لأنها فلسفة أخلاقية حية قوية ، وان كان لها فضل فى ميادين التفكير الفلسفى كما سنبين فى الفصول التالية ، فانما مرجع هذا الفضل هو فى أنها أنزلت الفلسفة عامة الى ميادين الحياة والأخلاق والسلوك ، دون التفكير المجرد الذى لا يتصل بالحياة ٠

ثم ان البراجماتية لا تنكر الحق الذى يقصد به الله ، فاذا كان يقصد من هذه الكلمة الله ، فان البراجماتية تؤمن به وتعتقده موجودا ولا تنازع فيه بحال من الأحوال ، لا بل تذهب الى أكثر من هذا فى شأن الله ، فانها تجد أن نظام تفكيرها يتطلب وجوده ، وأن الحياة لا تستقيم لها بدونه ، فمن هذه الناحية أيضا لا يجب أن نتبرم بهذه الفلسفة ٠

وانما ما تنكره هذه الفلسفة هو أولا هذا الحق الذى يعتبر شيئا قائما بذاته بعيدا عن الأشياء ، وبعيدا عن الانسان ، والذى تفرض الفلسفة التقليدية وجوده على آية حال ، هذا هو الذى تنازع فيه دون سواه ، وتحاول ان تجد له معنى مقبولا تستريح اليه ، لأن ما يقض مضاجعها ليس هذا الاصطلاح فى ذاته ، وانما مدلوله الذى تريد الفلسفة التقليدية أن تتمسك به ، والذى اضطرت الى فرض وجوده اضطرارا لأنها تتمسك بغاية معينة من وجود العقل والحواس ، وهذه الغاية هى المعرفة ، فلأنها زعمت أن العقل مثلا للمعرفة فقط ، اضطرت لأن توجد شيئا آخر غير العقل وغير الحقيقة (object) التى يريد العقل أن يعرفها ؛ حتى تكون هذه المعرفة ممكنة •

الحق عند البراجماتية هو ما ينفع أو يصلح لشيء يتلوه ، ليس هو موجودا مستقلا فى هذا الكون وانما هو نظرية أو رأى يصلح وينفع ، الحق شيء يؤدى عملا مطلوبا منه ، يقود الى نتائج معينة ، والى فتح الأبواب لنظريات وآراء أخرى ، الحق هو مجرد صفة للرأى لا أكثر ولا أقل ، هو خاصية من خواص الفكرة ، فاذا كانت الفكرة تسير بنا الى شيء أو تؤدى بنا الى النتيجة المرجوة فهى حق ، والحق هى ، وأما اذا لم تكن الفكرة تؤدى الى نتيجة ما فليست حقا ، وبعبارة أخرى ليس مقياس الحق انطباقه على الحقيقة ، بل النفع أو الغاية التى تقود اليها الفكرة ليس الحق فى أول الفكرة ، وبمعنى آخر لا يوجد قبلها ؛ حتى نستطيع أن نطبق الفكرة عليه عندما تنبت فى رؤوسنا ، وانما هو النتيجة التى تؤدى اليه الفكرة من الأعمال والآراء ، فاذا

كانت الفكرة تقودنا الى النفع والى النتيجة المرغوبة فهى حق ، وان لم تفعل فهى باطلة ·

هـذا كلام ان لم يفهم عـلى حقيقته ، يؤدى الى اتهـام البراجماتية زورا وعدوانا بالنفعية وأكثر من النفعية من النقائص ، لا بل أخذ الكثيرون يتهمونهـا بالرذيلة والشر لأنها فى رأيهم تجعل الخير والشر ، الكذب والحق ، الصراحة والخداع يستويان ، لقد اتهموها بهذا وبأكثر منه ، وذلك لأنهم فسروا النفع والفائدة تفسـيرا أنانيا لا يقـوم عـلى أساس من الفضائل والأخلاق ، يقول هؤلاء الناقدون هـذا الكلام : افرض أن صبيا وحيدا لأمه ، يقطن معها قريبا من البحر مثلا ، ولأن السباحة فى هـذا البحر خطرة الى اقصى حدود الخطورة ، حذرت الأم ابنها أن يسبح وأخذت عليـه العهود والمواثيق أن لا يفعل والا تكدرت وغضبت وأنزلت به العقاب ألوانا وأشكالا ، ثم افرض أن هذا الصبى غاب عن منزله ساعات فيها ذهب للسباحة ، وبعد ذلك رجع الى المنزل ، فتسأله أمه هل سبح أم لا ، فيجيبها أنه لم يسـبح ولم يقترب من البحر ، وانما كان يلعب ، وافرض ان الام ذهبت الى محمد وعلى وحنا وسألتهم واحدا واحدا عما فعلوا وأين ذهبوا ، فيجيبها كل بدوره أنه لم يذهب الى البحر أو بقربه وانما ذهب الى الناحيـة الفلانية من المدينـة للعب والرياضة فتجد الأم أن كلام كل منهم يدعم كـلام الآخـر ويثبته ، ومن الوجهة النظرية والوجهـة العقـلية تستريح الأم الى أن هؤلاء الأطفال صادقون فيما يدعون ، وتذهب الى منزلها مستريحة البال لأن ابنها لم يخالفها ويعرض نفسـه للغرق، والابن قد استراح أيضا لأنه لم ينله عقاب ولا حساب،

والأصدقاء الثلاثة مستريحون لأن صديقهم قد نجا من العقاب ، بالاختصار فان هذه الكذبة قد أدت الى الغرض المطلوب ، وقد نفعت ، ووصلت بنا الى ما نريد ، فهل نعتبر هذا الكلام حقا ؟ يجب أن نعتبره كذلك اذا ما أخذنا بمقياس البراجماتية ، فهذه الفلسفة تقدم مقياسا واحدا للحق وهو النفع والفائدة ، وهذه الكذبة قد أدت الى النفع والفائدة لجميع من يهمهم الآمر ، وعلى ذلك فهى حق في رأى البراجماتية ·

بمثل هذا الكلام يحاج بعض المفكرين فلسفة البراجماتية وهو ان دل على شيء ، فانما يدل على فهم مغلوط للنفع والفائدة التى تقدمها البراجماتية كمقياس للحق ، وهنا أصل الداء ، هنا المشكل ، فاننا يجب علينا آن نتفق على معنى النفع والفائدة ، ونحدد معانيهما بالضبط ، ونفهمهما كما تفهمهما البراجماتية والا نكون بعيدين عن أن نصل الى نتيجة مرضية فى هذا الموضوع ·

ولكى نوضح المقصود من النفع والفائدة ، ومن أن الحق نافع ومفيد نضرب مثلا بما فعل السير رونالد روس (Ronald Ross) مكتشف ميكروب الملاريا ، لقد نبتت فى عقل هذا الطبيب العظيم فكرة وهى أن بعض أنواع البعوض هى التى تحمل جراثيم الملاريا ، هذه فكرة أو رأى خطر ببال انسان معين ، والآن ما المقياس الذى نقيسها به حتى نتأكد من أنها حق أو باطل ، نظرية الانطباق لا تنفع فى هذه الحالة ولا تؤدى الى الغرض المطلوب منها ، لأن الحق ليس بين أيدينا نتناوله ونقيس به الأشياء متى أردنا ،

وانما المقياس الحقيقى كما تراه البراجماتية ، هو أن نضع هذه الفكرة فى ميدان العمل ، نطلقها لكى تعمل وتتصرف فان أتت بالغاية المطلوبة ، أى ان أتت بالفائدة والنفع فهى حق دون نزاع ، وان لم تأت بالنفع والفائدة فهى باطل دون شك أيضا ، والنفع والفائدة هنا يقصد بهما أن هذه الفكرة تؤدى الى نفس النتائج المنتظرة التى يؤدى اليها الحق ، أو بعبارة أخرى فان هذه الفكرة اذا كانت حقا لابد وأن تؤدى الى النتائج المنتظرة التى تحدث عنها ، فاذا كانت البعوضة الواحدة تحمل جراثيم الملاريا حية ، فالفكرة حق الى هذا الحد ، وقد شرحها السير رونالد روس ووجد فى جوفها هذه الجراثيم الحية كما افتكر وكما ظن وارتأى ، ثم اذا كانت هذه الفكرة حقا لابد وان يصاب بالملاريا كل انسان تلدغه هذه البعوضة ، وقد كان ، فوجد هذا الطبيب أن النتيجة هى كما تنتظر فيما لو كانت فكرته حقا .

لقد كان مقياس الحق فى هذه الحالة النفع والفائدة ، كما تزعم البراجماتية ، لقد أدى الحق الى النتيجة المرغوبة ، أو صلح لما وضع له من الاختبار ، ولا نظن أن أحدا يستطيع أن يؤاخذ البراجماتية على هذا الزعم ، وخصوصا لأن النفع والفائدة لا يقصد منهما فى هذه الحالة المعنى الرخيص المبتذل ، أى النفعية والفائدة الذاتية المرذولة ، وانما يقصد منهما الوصول الى النتائج والغايات والأغراض المنتظرة ، المقصود بهما السير وعدم التوقف أمام حاجز ، وانما الانسجام والاطراد دون تعطيل ، والحق ينفع (Truth Works) ليس معناه أنه أداة للفائدة الذاتية الوضيعة ، انما معناه يؤدى أو يقود الى النتيجة (Works) .

فالرأى أو الفكرة هو مشروع ، واذا نجح هذا المشروع فيما وضع له فهو حق ، وليس معنى هذا بالطبع أن كل مشروع ينجح هو حق ، وليس معناه أن مشروعا للخديعة والغش والكذب حق اذا نجح ، وانما تشترط البراجماتية فى النجاح أن يكون تاما كاملا شاملا ، فالحق ينفع كل الناس وفى جميع الأزمان والأمكنة ، والكذب اذا نجح وأفاد لا يكون حقا لأنه فى النهاية لا يفيد الكاذب ، ولا يفيد الانسانية ، ثم لا يفيد فى جميع العصور وفى كل مكان فى الدنيا ، نفع الكذب مقصور على أضيق الحدود الزمانية والمكانية ، وأما الصدق فينفع فى آخر الأمر وفى النهاية القصوى للأشياء ، ولكننا نرى الآن أننا خرجنا الى عالم الأخلاق والفضائل ، ونحن نريد أن نقصر الكلام على عالم الفكر والرأى والعقل ، فلنترك هذا جانبا الآن ولنعد الى ما كنا فيه .

فمقياس الرأى والفكرة ليس هو الحق ، وانما مقياسها هو فى نفعها وفائدتها فيما وضعت له ، ولا يجب أن نقيس الأفكار فى فراغ ، نقيسها بعيدا عن الحياة والاختبار ، أو نقيسها الى شىء جامد لا حياة فيه ، وانما يجب أن نطبقها فى هذه الحياة الآن ، وفى النشاط الوقتى الحالى ، فاذا صلحت وأدت الى الغاية التى وضعت لها ، فهى حق دون نزاع ، وان لم تؤد الى ما وضعت له ، فهى باطلة لا حق فيها .

هذا الزعم بالطبع يجعل الحق مطاطا متغيرا ، بحيث ان ما يكون حقا اليوم قد لا يكون حقا غدا ، أو بعبارة أخرى ينزع عن الحق صفة التقديس والثبوت والدوام التى كانت

له في النظام الفلسفي التقليدى ، والبراجماتيـة لا تنـكر هذا بحال من الأحوال ، تسلم أن الحق في نظامها شيء غـير كامل يتطور ويتغير ، ولا يثبت على حال ، وهي تزعم أن الحق ينمو ويتقدم وليس ثابتا جامدا ، فليس هنالك حق بالمعنى المفهوم عندها ، انما هنالك تحقيق ــ أى فكرة تحاول أن تتحقق فتصبح حقا ، الحق شيء مرهون بالمستقبل عنـدها وليس بالماضى ، فهو أمامنا نسعى اليه وليس وراءنا نرجع له ، وبمعنى آخـر الحق رهين الغـد وليس رهين الأمس ، سيظهر على أتمه في المستقبل ، وليس قد ظهر وكمل وتم فى الماضى كما تدعى الفلسفة التقليدية ٠

فكل فكرة عندنا أمامها المستقبل ، تعمل فيه الى أن تكتسب صفة الحق ، وليست تعود القهقرى لترى هل تنطبق على حق خلق فى زمن مضى ، وهذا هو الاطراد والنمو فى الحياة الانسانية ، لأن أفكارنا هى فى الواقع مشروعات لنا تتحقق فيما يتلو من الأيام ، فالحق عند البراجماتيـة هـو عملية التحقيق ، عملية البرهنـة عـلى صحة الشيء ، ليس البرهنة المنطقية ؛ وانما الاثبات بالاختبـار وبالتجربة ، وبوضع الفكرة في البيئة لنرى هل تصل بنا الى ما تزعم أنها تستطيع الوصول اليه ، أم لا تصل بنا الى هذه الغاية ، هـل تصلح فيما تدعى الصلاح له أم لا تصلح ، هل تنفع فيما تقول انها تنفع فيه أم لا تنفع ، فالمحك الحقيقى للحق هـو النفع والفائدة والصلاح ٠

بالطبع هذا الكلام لا يرضى الفلسفة التقليدية ، بل تثور عليه وتضطرب ، فهى تزعم أن الحق شيء قائم بذاته

لا يحتاج الى شيء يثبت وجوده بحال من الأحوال ، الحق حق ولا يحتاج الى نتائج تبين أنه حق ، وهو حق سواء أصلح أم لم يصلح لشيء ، حق سواء أفاد أم لم يفد ، لا يمكن لها أن تقبل شيئا خارجا عن الحق برهانا عليه ، لا يحتاج الحق الى برهان لأنه ظاهر ، ولا يحتاج الى اثبات لأنه ثابت ، أما كيف نعرف أن هذا حق أو ليس حقا ، فذلك لأن للحق ضرورة ، له صفة ملزمة تضطر العقول اضطرارا لقبوله ، لا يملك العقل الا أن يخضع له ، وبعبارة أخرى الحق ملزم •

ثم تذهب الفلسفة التقليدية تضرب الأمثال الكثيرة التي لا تفرغ عن هذا الالزام وهذه الضرورة ، تجد أحوالا كثيرة تستمد منها القوة للدفاع عن وجهة نظرها ، فمثلا « الشيء الذى يحوى شيئا آخر أكبر منه » فالمنزل الذى يحتوى على غرف ، أكبر من احدى هذه الغرف بالضرورة وبالطبع ، تقول الفلسفة التقليدية : « أرونا انسانا عاقلا لا يستطيع أن يرفض هذا الحق » ليس فى طبيعة الأشياء أن يرفض هذا ، انه قسر لطبيعة العقل أن نطلب اليه أن يشك فى هذا ، ولماذا ذلك ؟ لأنه حق بالطبع ، والحق تلازمه خاصية ترغم العقول على الاذعان والقبول ، ماذا تقولون يا دعاة البراجماتية فى هذا ، كيف تطلبون الى شيء آخر مركزه ليس بهذه القوة والمتانة أن يدعم الحق القوى فى نفسه ؟ هذا تناقض فى التفكير لا يصح ولا يجوز ، كيف تريدون أن تردوا الحق الى العمل والتصرف والسلوك لكى يثبت نفسه ويقيم الدليل على صحته ؟ العمل والتصرف والسلوك هذه يصح الشك فيها ، بينما الحق لا يجوز الشك

فيه ، وحتى ان جاز هذا الشك فهو غير مستطاع وغير ممكن .

ثم تثور الفلسفة التقليدية على هذه المنزلة الوضيعة (في رأيها) التي وضع فيها الحق ، وتقول وتكرر القول : « أن الحق أزلى أبدى مستقل عن جميع الأشياء ، كفء فى نفسه ، تام كامل لا يتغير ولا يتطور ، لأنه ليس بناقص فينمو ، وليس بقليل فيزيد ، وانما هو شىء ثابت كاللوحة الخالدة ، كائن فى مكان فى الكون ، نظام تام ثابت تطبق عليه جميع الأنظمة » . وهكذا الى آخر الصفات التى تكاد تجعل الحق كالحجر الصلب الذى يظل فى مكانه الى آخر الدنيا .

ولكن هذا بالضبط ما ترفضه البراجماتية ، فالحق عندها كالحى ، يتطور ويرقى ، ويتحقق فى الواقع والاختبار ، الحق عندها هو لخدمة الحياة بمجموعها وليس كائنا مستقلا فى نفسه يجلس بعيدا فى الفضاء يرقب الحياة والاختبار ، وانما هو هذا الاختبار نفسه اذا تحقق وصدق ونجح وصلح ، كل شىء ينجح ويؤدى الى الغرض المطلوب ــ الغرض القريب والبعيد ، الغرض النهائى للحياة ــ فهو حق ، والقضايا والأفكار والآراء لا تطبق على الحق ، وانما هذا الحق يطبق على العمل والتصرف والاختبار ، فاذا صلح لما وضع فيه من الأعمال فهو حق ، وان لم يصلح فليس بحق .

وأما المثل الذى ضربته الفلسفة التقليدية « الشىء الذى يحتوى شيئا آخر فهو أكبر منه » هذا المثل الذى تعده

الفلسفة التقليدية هو وأمثاله برهانا على أن الحق يلزم الى آخر هذا الكلام ، هذا المثل وأشباهه لا يخيف فلسفة البراجماتية ، بل تهجم عليه وتتناوله بالفحص والبحث ، وتخرج منه بنرأى طريف ٠

تقول البراجماتية ، ان كل هذه القضايا وأمثالها انما هى علاقات وأنظمة عقلية ، اخترعناها وفرضناها على الأشياء فرضا بحيث أصبحنا لا نستريح الى علاقات وأنظمة غيرها ، ولو كنا قد فرضنا أنظمة غيرها لما كان هنالك ما يمنعنا عن أن نرفض هذه ، فالكلمات «أكبر» و «أصغر» و « يحوى » ثم العلاقات الفكرية بين مدلولات هذه الألفاظ انما هى من صنع عقولنا وبارادتها ، ولو كنا قد جعلنا « أصغر » تدل على عكس ما تدل عليه الآن ، لانقلبت هذه القضية رأسا على عقب وأصبح الشيء الصغير أكبر مما هو أكبر منه الآن ، وبعبارة أخرى هذه كلها اصطلاحات وضعناها نحن وأردنا أن لا تكون بحالة أخرى غير هذه ، وليس ما يمنعنا عن هذا بالطبع ، لأننا نحن الذين خلقناها ، ونحن الذين نريد لها أن تستعمل فيما تستعمل فيه الآن ٠

ويجب أن لا ننسى أن البراجماتية قد أقامت الدليل كما بينا فى الفصول السابقة ، على كل هذه العلاقات والأفكار والآراء والصور الذهنية ، انما قد استمدها الانسان من الاختبار ومن الحياة ، هى اصطلاحات تقوم مقام مدلولاتها فى أعمالنا وتصرفاتنا وبينت أيضا أن الانسان قد لجأ الى هذه الطريقة فى التعامل ؛ لاستحالة التعامل بالأشياء المادية ذاتها فى كثير من الأحوال ، فلولا هذه المصطلحات لما استطعت

أن أبيعك عشرة أفدنة من الأرض مثلا ونحن جالسان على المقهى في القاهرة ، والأفدنة في أقصى الصعيد ·

لقد حددنا هذه العلاقات لأننا لا نستطيع التفاهم الا بهذا التحديد ، والا كان الأمر فوضى بيننا لا ضابط له ، فعشرة أفدنة اصطلاح ملزم لى ولك بالاتفاق بيننا ، وليس لخاصية فيه ذاته تلزمنا أو تضطرنا ، عشرة أفدنة معناها عندى وعندك عدد معلوم من وحدات السطوح وسلعة معينة للبيع والشراء · فاذا كنت تريد أن تقول ان في كلمة « عشرة » شيئا ملزما ، أو ان في لفظة أفدنة شيئا ملزما ، فأنت وما تريد ، وأما نحن فنعتبر هذه مجرد مصطلحات أطلقناها على هذه الأشياء ، لتيسير التعامل بين الناس بعضهم وبعض وبينهم وبين هذه الأشياء ·

ثم تأخذ البراجماتية هذه الأمثال التى تضربها الفلسفة التقليدية ، وتفسرها جميعا تفسيرا ينطبق على رأيها هذا وتخرج منه بنتيجة معقولة مفهومة ·

ولنأخذ مثل هذا الحق « اليابان دولة في آسيا » ، ونرى أيهما أقوى حجة وأقطع برهانا ·

١ ـ تقول الفلسفة التقليدية في هذه الحالة ، ان هذا الحق قائم بغض النظر عن العقل الانسانى ، أو وجود الانسان على الاطلاق ، فالحق لا يحتاج الى عقل يزكيه أو انسان يدركه ويفهمه ، انه موجود في ذاته ، مستقل عن جميع الأشياء ، فما دام هنالك حقيقة اسمها اليابان ، وحقيقة أخرى اسمها آسيا وعلاقة بين الحقيقتين تتمثل في

حرف الجر «في» ، فهنالك بطبيعة الحال حق ثابت أزلي موجود
ووجوده لا يتوقف على شيء آخر ٠

أما فلسفة البراجماتية فتقول ، «اليابان» و « آسيا »
اصطلاحات أطلقناها نحن على هاتين البقعتين من الأرض ،
وان العلاقات « في » علاقة أوجدناها نحن بينهما ، وفي حالة
عدم وجود العقل والانسان فلا يمكن لهذه العلاقة « في » أن
تتحقق أولا ، ولا يمكن لهذين الاصطلاحين « آسيا »
و « اليابان » أن يوجدا ثانية ٠

٢ ــ في حالة ما لا نعرف هل هذا حق أم ليس حقا ،
في هذه الحالة تقول الفلسفة التقليدية : لو انطبق هذا
التعبير « اليابان دولة في آسيا » على الحقيقة ، لأصبح حقا ،
هنالك تعبير ،وهنالك حقيقة ، والحق يفصل بينهما ، الحق
من طبعه صورة للحقيقة ، فاذا انطبق التعبير عليه ، أصبح
حقا وأصبح هذا التعبير هو الآخر صورة للحقيقة ، ولكن
نسأل كيف هذا الانطباق ؟ وكيف تصل اليه ، هذا صعب
المنال ، فتقول الفلسفة التقليدية انه حق لأننا نعرفه حق
معرفته ، عندنا شعور ملزم بأنه حق ، فليس في العاقلين
جميعا من ينكر هذا ، واذن فعندنا هذا التطابق بين التعبير
والحقيقة الموجودة أي الأشياء ٠

ولكن فلسفة البراجماتية تزعم أن هذا لف ودوران
لا يؤدي الى الغاية المطلوبة ، فهو لا يعدو تفسير الماء بالماء ،
والواقع أن هذا التعبير « اليابان في آسيا » ليس حقا ولم
يخلق ، وانما هو شيء يتحقق ، هو مشروع للعمل آخذ في
التحقيق كل آونة، وكل يوم يمر عليه يزداد تحقيقا، فاليابان

دولة فى آسيا ، لأننا نسمع بأخبارها ، نقرأ عنها ونراسل أناسا فيها ، ونبتاع منها السلع ، وايطاليا والحبشة تعملان لها حسابا فى النزاع بينهما ، ليس هذا فقط ، فالمسألة لم يفرغ منها بعد ، فلها ما بعدها ، لأننا سنراسل أناسا فى اليابان ، وسنبتاع منها السلع فى المستقبل ، وستعمل لها الدول حسابا ، فهذا الحق ما يزال يتحقق ، وما يزال يظهر ويستبين ، لم يكمل بعد ، لم يتم هذا الحق ، وكل كلام غير هذا لا نقبله أولا ولا نفهمه ثانيا .

٣ ــ فى حالة وجود العقل والانسان تزعم الفلسفة التقليدية أن هذا الحق لابد وأن يكشف نفسه ويعلن ذاته للعقل الانسانى ، الحق فى ذاته تام كامل ، وانما احاطة عقولنا به ناقصة غير تامة ، ولابد أن الحق سوف يظهر لهذا العقل ، ويرغمه على قبوله .

وأما البراجماتية ، فتزعم أن الحق والعقل جميعا ناقصان ، أو أنهما شيئان فى سبيل التطور والنمو والتحقيق والظهور ، وكلما جربنا هذه الأفكار ــ أى وضعناها فى الاختبار والعمل ــ تحقق الحق ، وتطور العقل ، ليس هنالك شىء ثابت كامل ، لا العقل ولا الحق ، وانما يسعيان الى الكمال والتمام ، فدنيانا دنيا تجربة واختبار وتغير وتطور ، كل شىء فيها صائر الى أحسن مصير اذا ما نشطنا نحن ، وعملنا نحن ، واجتهدنا نحن ، أما هذه الفلسفة الجامدة العقيمة التى لا تقود الى شىء ولا تؤدى الى تغيير وتطور ، فلا شأن لنا بها على الاطلاق .

وملخص القول فى هذا الفصل ، هـو أن البراجماتيـة تعطى للحق معنى غير المعنى الذى كانت تعطيه له الفلسـفة من قديم الزمان ، صار الحق فى عهدها قوة حية فعالة لهـا أثر فى الحياة ، وليس جامدا ثابتا مكتفيا بنفسه ، للحق عندها معنى ، بينما عنـد الفلسـفة التقليـدية هو مجـرد وجود •

الفصل التاسع

نقـــــد

لقد اتهمت فلســفة البراجماتيــة بكثير من النقــائص مازالت تدفعها عن نفسها بكل ما تستطيع من قوة ، لقـــد وضعها وليم جيمس فى صف الفلسفات المحترمة ، وثبتها فى مكانها جون ديوى الفيلسوف المعاصر ، وضع لها وليم جيمس الأساس المتين ، وشادها جون ديوى بقوة عارضته واستقامة منطقه ، ونفاذه الى لباب الأشياء دون الظواهر ، لقد كان جون ديوى هــو الأول فى الاســتعانة بالعلــوم الانســانية (Human sciences) فى تدعيم نظريات الفلسفة •

ورأى البراجماتية فى الحق هو الذى جلب عليها جميع الأعاصير والزوابع ، ذلك لأن رأيها هذا رأى طريف لم يتقدم به أحد قبلها، وسوف نعود له فى الفصل الأخير من هذا الكتاب عندما نتكلم فى تقــديرنا لهــا كفلســفة تســتحق الدرس والبحث ، وانما نريد هنا أن نستعرض بعض النقــد الذى وجه اها لنرى مبلغ صحته •

من النقد ــ لا بل أهم هذا النقد ــ هو شعور الفلاسفة بأن البراجماتية فرع من اللا أدرية (Scepticism) يذكر القارىء

أننا تعرضنا فى فصل سابق للا آدرية ، وهى ذلك النظـام الفلسفى السلبى الذى يزعم أن المعرفة غير ممكنـة أصلا ، فلماذا هذا العناء ؟ الحق لا يمكن معرفته بحال من الأحوال ، فلا داعى للجهد العنيف الذى نبذله فى سبيل هذه المعرفة ، التى لا تتحقق والتى لا يمكن أن نصل اليها •

والغلطة الأساسية فى هذه الفلسفة ـ أى اللا أدرية ـ على ما نرى هى فى أنها أولا : تقبل الشك الذى أثارته العقلية فى وجه الاختبارية ، ترضى من النظرية العقلية التشكك فى صحة ما يصل الينا عن طريق الحواس ، تقبل هذا المنطق ، وترى مع غيرها أن جميع حقـائق الحس مشـكوك فيهـا ، فلا يمكننا بحال أن ندعو ما يصل الينا عن طريق الحس حقا لا شك فيه •

تقبل هذا من النظرية العقلية ، وفى الوقت نفسه تقبل من النظرية الاختبارية ما يهدم الأولى هدما ويتركها أنقاضا على أنقاض ، يذكر القارىء أننا قلنا ان حقائق العقل ـ هذه العلاقات الفكرية بين الأشياء ـ انما هى فى الأصل قد وصلت الينا عن طريق الحس ، تمر علينا المحسوسات فنجـردها من عواملها المشتركة ومن خصائصها ومميزاتها ومن علاقاتهـا ببعضها ، ونحمل معنا هذا التجريد فى ذهننا نتعامل به تعاملا ذهنيا ونبنى عليه النتـائج العقليـة أو المنطقية • وهـذا بالضبط ما تدعوه النظرية العقلية حقا ، وتنزعه من العقل كأنه مستقل عنه ، ثم تعود وتفرضه على العقل ، لكن الفلسفة الاختبارية قد بينت بما لا يدع مجالا للشك ، بأن هذا كله

مرجعه الى الحس أصلا ، والبراجماتية تزيد على هذا بأن مرجعه الى الحس مآلا أيضا ·

فاللا أدرية تقبل هذا الهدم للنظرية العقلية وتصفق طربا للاختبارية من أجل النجاح فيه ، ثم تشير باحدى يديها الى أنقاض الاختبارية ، وبالأخرى الى أنقاض العقلية وتقول : « أين المعرفة اذن ؟ » لقد انهدم البنيان من أساسه ، فلا معرفة ولا امكانية للمعرفة ، الحس يعجز عن أن يعرف ، والعقل هو الآخر عاجز عن المعرفة ، فبالله كيف نعرف ؟ » ·

هذه الفلسفة السلبية بالطبع لا ترضى أحدا ولا يستريح اليها أحد ، يحس فى جوانبه قوة الحياة ونشاطها واندفاعها فى سبيل العمل والحركة والنشاط ، هذا الموت والجمود الذى تدعو اليه اللا أدرية لا يمكن لانسان على شىء من فضائل الانسانية أن يقبله ، الأديان جميعا تراه عقيما ، وأمل الانسان فى الحياة يراه قاتلا ومميتا لكل نزعة حسنة ·

فلما تناولت فلسفة البراجماتية الحق من جهة عمله وأثره ، لما تناولته على أنه مشروع يستطيع أن يتحقق ويوجد ، لما رفضته على أنه شىء كائن قبل الحوادث ، يتحكم فى هذه الحوادث ويوجهها ، ولما زعمت أنه شىء ينتج من الحوادث ولا يسببها ، وبعبارة أخرى لما نقلته من أول الزمان ووضعته فى آخره ، اتهمها من يريد أن يتهم بأنها نوع آخر من اللاأدرية ، وبأنها فصيلة من هذا الشك والتردد · أليست تزعم بأن الحق غير موجود ، أوليست تزعم أنه قد يوجد فى المستقبل ؟ أليست تزعم بأن الحق غير

موجود ، أوليست تزعم أنه قد يوجد فى المستقبل ؟ أليست تزعم بأن الحق غير موجود ، أوليست تزعم أنه قد يوجد فى المستقبل ؟ أليست تزعم بأن الحق هو رأى أو فكرة ، تصلح أو لا تصلح ، تنفع أو لا تنفع ؟ ومتى زعمت هذا فلا شك ولا ريب بأنها لا أدرية مقنعة .

ولم تعدم البراجماتية جوابا على هذه التهمة ، بل كان معظم نضالها دائرا حول هذا الحق ، فهى تزعم أن التهمة فى الواقع مجرد تجن عليها ، وأن مجرد الرغبة فى رميها بالأوحال الفلسفية هى التى دفعت بعض الناس لالصاق التهم بها ، فالبراجماتية ـ فى رأيها ـ لا تنكر الحق ، وانما تقربه من ناحيته العملية ، من ناحية أثره فى حياة الانسان على هذه الأرض ، وفى نظرها أن الحق اذا كان لا يصلح فى هذه الحياة ، ولا يؤدى الغاية منه ، فوجوده وعدمه سيان ، انها تريد أن ترى للحق عملا يؤديه لا أكثر ولا أقل .

هذا من جهة ، وأما من الجهة الأخرى فثورتها انما هى على الحق الجامد العقيم الذى تتمسك به النظريات الفلسفية التقليدية . ذلك الحق الذى لا يعنيه أن يصلح فى هذه الحياة ، والذى لا يعنيه الاختبار فى مجموعه . هذا الضرب من الحق هو الذى ترفضه ، ولا تقبله بحال من الأحوال ، كل ما تطلبه هو أن يكون الحق حيا يتطور وينمو ويتحقق ويظهر على مر الأيام ، انها تكره فيه هذا الجمود الذى تفرضه فيه الفلسفة التقليدية ، فأين هذا من اللا أدرية التى تنكر وجود الحق أصلا ، والتى تزعم أنه حتى ان وجد فلا نستطيع

بحال أن نصل اليه ، وبمعنى آخر أنه عديم النفع فى الحالين جميعا •

وهنالك سبب آخر جعلها تتهم باللاأدرية ، وهو هـذه المعرفة ، فالعقلية تؤمن بامكانها ولكن عن طريق العقل وحده دون أى شيء آخر • فلا الهام ولا حس يستطيعان أن يجعلانا نعرف ، ومعنى المعرفة عند هذه الفلسفة هو مجرد المعـرفة للمعرفة فقط ، هو هذا الاتصال بين العقل والحقائق الكونية لمجـرد الفهم والادراك ، وبالطبع العقل يلتذ هـذا الفهـم والادراك ويسر له سرورا عقليا بعيـدا عن جميع المشـاعر الانسانية •

ولكن البراجماتية تقول ، ان المعرفة لمجرد المعرفة هراء فى هراء ، فالمعـرفة انما هى مؤثرات للعمـل والنشـاط والحياة ، أما هذا الادراك لوجود الشيء ، مجـرد الشـعور بوجود الشيء ، فلا معنى له عندها ، كل قطعة من المعرفة هى فى الواقع حافز لشيء آخر يتلوها ، هى خطوة تمهيدية لعمل، سواء أكان هذا العمل ماديا أم عقليا ، وقد بينت هـذا بما لا يدع مجالا للشك فى الفصول السابقة ، فأين هذا مما تراه اللاأدرية ، وهى تزعم أن المعرفة غير مستطاعة أصلا ، وأننا لن نعرف ولن نستطيع أن نعرف ، وأنه يحسن بنا أن نطلق هذا العناء ونريح أنفسنا من هذا الشقاء ؟

نظن أن البراجماتيـة تسـتطيع أن تدفع عنهـا هـذه التهمة • تهمـة اللاأدرية ــ فى سـهولة ويسر ، ونظن أنه يحسن بالفلسفة أن ترى لها ميدانا آخر غير هذا تناضل فيه البراجماتية ، ذلك لأن الفرق بينها وبين اللا أدرية ظاهر

واضح لا يحتاج الى الاطالة والشرح • فالأخيرة منهما تنكر الشيء على اطلاقه ، تنكر وجوده أصلا بينما الأولى تراه موجودا ، وانما على صورة تغاير ما تراه الفلسفة التقليدية •

وما دمنا فى مجال المقارنة بين البراجماتية والفلسفات الأخرى ، نذكر شيئا آخر كان أيضا من ضمن الأسباب التى دعت الفلسفات التقليدية الى مهاجمة البراجماتية •

تقول الفلسفة التقليدية ، ان هذه النظم الفكرية ، هذه العلاقة المجردة كحقائق الرياضيات والقوانين الكونية العامة ، هى حقائق مستقلة لها وجود فى الكون بعيد عن العقل الانسانى ، وكل ما يفعله العقل معها هو أن يدركها ، يكتشف وجودها ، يعثر عليها اتفاقا ، فيتأملها ويدركها ، هى الحق يعلن للعقل الانسانى من تلقاء نفسه ، وكل ما يعلن له من هذا القبيل يضاف الى قائمة الحقائق العقلية ، فينتظم عقدها ، وتتم ، وليس لهذا من نتيجة الا أن الحق أعلن نفسه للعقل بشكل أوضح ، وعلى وجه أتم •

هذا بينما بعض الفلسفات ــ الفلسفة الاختبارية مثلا ــ تزعم أن هذا هراء ، وأن هذه العلاقات والنظم الفكرية لم يستمدها العقل من الحق ، وانما استمدها من الواقع ، ومن المشاهدات المحسوسة ، أو وصلت اليه عن طريق الحس ، وبعد أن وصلت اليه وأدركها عقله ، أصبحت تامة فى نفسها كاملة ، لها هذه الصفة العقلية التى تلازم الحق ، وهى صفة الاستقرار والثبوت •

ولكن البراجماتية تقبل هذا الذى تذهب اليه الفلسفة الاختبارية ، وقد أتت بالبراهين القاطعة على صحته ، ولكنها تزيد عليه ، فتزعم أن أصل هذه النظم العقلية هو حقائق الاختبار ، ليس هذا فقط ، ولكن مردها أيضا الى الاختبار ، فليس فى العقل الانسانى هيكل تنتظم فيه هذه العلاقات ، وتبقى هنالك ثابتة خالدة ، كاملة فى نفسها ، كلا وانما هى لا تتم ولا تكمل الا اذا ردت الى الواقع ، والى الاختبار حتى تؤثر فيه وتغير مجراه ، ثم تستطيع أيضا أن تمكن عقولنا من ايجاد نظم أخرى وعلاقات أخرى ، يأخذها العقل للتأمل والفكر ثم يردها هى الأخرى الى الاختبار ؛ لتفعل فيه بدورها وتنتج الآثار التى تستطيع أن تنتجها ٠

وتضرب البراجماتية على هذا مثل جميع العلوم التجريبية التى تعتمد على الاختبار ، فالعالم الطبيعى يتعامل بالمواد الاولية أول الأمر ، يتناولها بالفحص والتقليب ، ويصلها بالمواد الأخرى ثم يفصلها عنها ، وبعبارة أخرى يخضعها للحس ، ولما يستطيع الحس أن يفعل بها ، ثم يخرج من هذه العملية بنتيجة فكرية ـ أى برأى أو نظرية ، أو نظام عقلى عنها ، ولكن العالم الطبيعى لا يقف عند هذا الحد، والا زالت عنه صفة العلم بالطبيعة ، وانما يأخذ هذه النظم الفكرية ، أو هذه النظرية ، ويردها بدورها الى الاختبار والتجربة ، والى حكم الحواس عليها ، ليرى كيف تتصرف هذه النظريات فى الواقع ثم يخرج من هذا كله برأى جديد ، أو بنفس هذا الرأى ليرده مرة أخرى الى التجربة والاختبار، وهكذا دواليك ٠

بالطبع رد هذه الآراء الى الاختبار له آخر ينتهى اليه ، فلا يجوز أن يقضى العالم حياته بين الرأى والتجربة دون نتيجة ، ولكنه مطالب بالوصول الى رأى حاسم فى الموضوع نستريح اليه ونقف عنده ، تقول الفلسفة العقلية نعم نقف عنده ونقول هذا هو الحق ، ولكن البراجماتية تقول كلا ، فان العالم نفسه يقف عنده اذا شاء واذا استطاع ، ولكننا نقول أولا انه لا يستطيع ، لأن هذا الرأى أو هذه النظرية ليست توجد فى فراغ مستقلة عن جميع الآراء والنظريات ، ولكنها متداخلة مع غيرها ، تتفاعل معها ، تؤثر فيها وتتأثر بها ، ففى كل مرة يتناول العالم هذه النظريات الأخرى ويردها الى الاختبار ، فانما هو أيضا يرد نظريتنا هذه التى نتحدث عنها الى الاختبار •

هذا من جهة ، وأما من الجهة الأخرى فان العالم اذا توقف فلن يتوقف الناس ، لقد انتهى العالم من نظريته ـ هذا قد يجوز (فرضا) ـ وأما نحن ، أما الناس فى حياتهم العادية ، فى الصناعة ودوائر الأعمال ، فى النشاط المستمر للحياة فلابد أن يردوا هذا الحق ـ أى الذى تدعوه الفلسفة التقليدية حقا ـ الى الاختبار ولن ينفكوا يردونه الى الاختبار •

ثم أين هذه النظرية أو الرأى أو الفكرة التى نستطيع أن نزعم أنها حق فى نفسها دون ردها الى الاختبار ، أليست جميع النظريات العلمية فى تطور مستديم ، وتغير مستمر ، كلما ظهرت نظرية اضطر العلماء الى أن يجروا التجارب على نظرياتهم القديمة ؟ الواقع أن الحادث هو هذا بالذات ،

فعندما تظهر نظرية فى عالم الوجود يسارع العلماء لبحث أثرها فى النظريات القائمة ، ثم يسارعون الى رد النظريات التى كان يظن أنه قد فرغ منها الى الاختبار والى التجربة ، وقد يخرجون من هذا بآراء جديدة ونظريات جديدة ٠

ليست هذه فى الواقع فروضا بعيدة ، فان تاريخ العلم مملوء بأمثال هذا التحول فى الآراء والنظريات ، ذلك التحول الذى ما نتج الا عن رد الفكرة الى العمل ، وأثر هذا الرد أو أثر هذه التجربة ، فأية فكرة يجب ألا تقاس بحق نظرى ميتافيزيقى ، وانما يجب أن تسخر فى الأعمال ، وليس أمامنا مقياس صحيح للأفكار غير هذا ٠

وتأخذ البراجماتية تضرب الأمثال على صحة هذا ، من ميادين العلم والفكر الانسانى ، وتزعم أنها تجد لها مبررا فى جميع الحالات كما بينا ٠

ونقد آخر وجه الى البراجماتية ، وهو أنها وكلت أمر الحق للارادة ــ ارادة الانسان وميوله ورغباته ، فاذا صحت هذه التهمة حق على البراجماتية اللوم والتعنيف ، ذلك لأن الرغبات والميول شىء عارض وقتى ، لا ضابط له ، قد أرغب فى شىء اليوم وقد أرغب عنه غدا ، والأسباب التى قد أعطيها لهذا التحول أسباب لا تقف على قدميها فى ميدان العقل والمنطق ، ونظن أننا لا نطالب بايراد الأسباب التى من أجلها يجب ألا نسلم الحقائق للشهوات ، لأن السيكولوجية الحديثة قد تكفلت بهذا وأبانته بشكل لا يتطلب المزيد ، فترك الحق لهذه الرغبات والميول فيه خطر كبير على الحق وعلى الانسان ، هذا مفروغ منه ٠

ولكن بعض الفلسفات اتهمت البراجماتية ، زاعمة أن الحق فى عرف البراجماتية أمر موكول الى ارادة الانسان ، اذا شاء الانسان اعتبره شيئا بذاته حقا ، واذا شاء اعتبره باطلا ، ألا تقول البراجماتية ان الحق ينفع ويفيد ، وانه يعود بشيء معين على الانسان الذى يتمسك به ؟ فكأنها تترك الحق تحت رحمة الانسان وشهواته وميوله ، ما يصلح له وما ينفعه فهو الحق ، ومالا يصلح له فهو الباطل ، بحيث لو أنه شعر أن السرقة قد تنفعه وأن الأمانة قد تضره وتمسك بالأولى وترك الثانية ، لأصبحت السرقة فى نظره حقا ، والأمانة باطلا ، أو بعبارة أخرى أن النقد هنا موجه الى القيمة الأخلاقية التى تنتج عن نظرية البراجماتية ، ومع أننا لا نريد أن نتدخل فى المسائل الأخلاقية فى هذا البحث ؛ لأنها تفتح أمامنا أبوابا لا نستطيع أن نلجها فى هذا المجال المحدود ، الا أننا نقول ان البراجماتية تزعم أن هذه التهمة فى غير محلها ، لأنها أولا تصر على أن النفع والصلاح لا يقصد بهما شيء معجل أنانى فردى ، وانما يقصد منهما نفع الجنس البشرى فى مجموعه ، هذا من جهة ، وأما من الجهة الأخرى فان النفع والصلاح يقصد بهما فى الواقع الصلاح للتجربة ، الصلاح فى الاختبار ، فالنظرية العلمية مثلا صالحة ونافعة اذا ما نجحت فى التطبيق العملى ، واذا ما وصلت بنا الى النتيجة المطلوبة التى تنتج منها فيما لو كانت نظرية صحيحة ، هذا هو المقصود بالنفع والصلاح من مبدأ الأمر ، ولا يقصد منهما المعنى المبتذل الرخيص .

وبالاختصار ، لقد وجه الى هذه النظرية الفلسفية نقد كثير ، وبخاصة فى بدء نشأتها من خمس وعشرين سنة مضت تقريبا ، ولكنها على ما يظهر قد استطاعت أن تواجه هـــذا النقد ، وتصمد له ، واستطاعت في آخر الأمر أن تقف عــلى قدميها ، الى أن أصبحت من الفلسفات المشهورة فى عصرنا ، والفضل فى مكانتها الحالية فى الواقع راجــع الى الأســتاذ جون ديوى حامل لوائها في هذا الجيل ، وان كانت على يديه قد اتخذت شكلا جديدا وزيا جديدا ٠

الفصل العاشر

تقـــدير

نريد وقد قارب هذا الكتاب الانتهاء ، أن نثبت هنا أننا لم نقصـد من كلامنا فى هـذا الكتـاب الدفاع عن نظـرية البراجماتيـة أو الدعوة الى قبولهـا ، فانهـا نظـرية قوية تستطيع أن تدافع عن نفسها وتدعو الى نفسها اذا أرادت • وانما نقول هنا اننا ما أردنا سوى بسط هذه النظرية لقراء اللغة العربية ، الذين من حقهم أن يعرفوا شيئا عن التفكير الفلسفى فى آخر مراحله •

وفى هذا الفصـل الختـامى لا نملك الا أن نبين بعض مزايا هذه الفلسفة وخصائصها التى تميزت بها ، أو بعبارة أخرى الخدمات التى قامت بهـا للتفـكير الفلسـفى عامة ، ولا نستند في هذا على مانشعر به نحن،أو بميولنا واتجاهاتنا الفكرية ، وانما لا نورد هنـا الا ما اتفق عليـه الفلاسـفة وعدوه من مزايا هـذه النظـرية دون سـواها ، لقـد أدت البراجماتية للتفكير الفلسفى خدمات معينة ، أحست بهـا الفلسفات الأخرى وقدرتها ونوهت بذكرها ، وهذا بالذات ما نريد أن نستعرض هنا فى هذا المجال •

وقبل أن نستعرض مميزات هذه الفلسفة ، يجمل بنا أن نقول كلمة قصيرة عن البيئة التى نشأت فيها هذه الفلسفة ، فقد نشأت فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وترعرعت فيها، وتغذت منها ، واستظلت بظلها ، والغريب فى أمرها أنها لم تهاجم فى مكان كما هوجمت فى أمريكا ، العجيب فى الموضوع أن العالم الفلسفى كله تقبلها قبولا حسنا ورحب بمقدمها ، وان كان بعضه لا يأخذ بقواعدها ولا يؤمن بنتائجها، ولكنهم جميعا هللوا لقدومها ، وأما فى أمريكا ، بلد البراجماتيـة ووطنها ، فالهجوم كان عنيفا عليها ، حتى ان وليم لم يفرغ من ردوده على معارضيه طول حياته ، وآخر ما كتب فى هذا السبيل كان دفاعا عن البراجماتية ·

ولهذه البيئة الأمريكية خصائص ومميزات بالطبـع ، لتربتها عناصر معينة ، تدخل فى تكوين الأحياء فيها، وتظهر عليهم فى حياتهم وتصرفاتهم ، شأنها فى هـذا شأن جميع البيئات والتربات ، فالكائنات الحية فيها لها مميزات هـذه التربة وخصـائصها ، وكذلك النظم الفـكرية لهـا هـذه الخصائص وهذه المميزات ·

الأمريكيون يغـرمون بالعلم والتفـكير والبحث وراء القضايا والنظريات العلمية ، وهم فى هذا الشأن مثل باقى الشعوب الحية المتمدنة القوية ، لهم فى كل مجال رأى ونظر، ولهم فى كل ميدان من ميادين التفكير المجرد قسـط يساوى أقساط الأمم الأخرى ، ولا نظن أن أحدا يشك فى هـذا ، لا نظن أن أحـدا يزعم أن حظ الأمريكيين فى النظـريات

العلمية ، وفى العلوم النظـرية يقـل قليـلا أو كثيرا عن حظ سواهم •

ولكنهم يتميزون عن سواهم بغرامهم بالتطبيق ، فما من نظرية علمية ، فلكية أو طبيعية الا وتجد من يريد منهم أن يطبقها فى الواقع وفى الاختبار • انهم يفتتنون بالنتـائج الواقعية للأشياء ، وبما يحدث الآن وفى هذه اللحظة أو فى يوم ما من حياة الفرد ، ليس فيما بعد الموت ، أو ما أشبه ، انهم لا ينفكون يجربون كل شيء ليروا أثره فى مجرى الحوادث، ولا يستطيع من عاش بينهم الا أن يعجب لهـذا الالحاح فى تطبيق كل شيء نظرى على الواقع والاختبار ، فعندما يكتشف أحد العلماء نظرية علمية ، تسـارع المعـامل الى التطبيق ، بعضها يطبقها ليرى صدقها ، وبعضها الآخر يطبقهـا ليرى هل تستطيع بحال من الأحـوال أن تنتج آثارا معينـة فى الحياة الراهنة ، حياة الأمة والفرد ، فاذا لم يكن لها نتـائج فى الحياة • اذا لم تحدث شيئا فى البيئة التى يعيش فيهـا الأمريكى ، بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر ، فهى نظرية علمية تضاف الى النظريات الأخرى وكفى ، ولكن الأمريكى على أية حال ، لا يترك نظرية من النظريات قبل أن يستحلفها بكل الأيمان المغلظة ، أن لا رسالة لها تؤديها للانسـان فى حياته الراهنة هذه •

ومن مميزات حياة الأمريكيين حب المجـازفة والاستهتار بالمخاطرات ، ليست المسألة مسـألة شـجاعة ، لأننـا نعلم أن الشجاعة صفة مشاعة بين كثير من شـعوب الأرض ، فلسـنا نزعم أن الأمريكي أشجع من غيره بحال من الأحوال ، وانما

من غنصر الأخلاق الأمريكية حب المجازفة والمخاطرة ، لمجرد الرغبة فى مشاهدة النتائج العملية التى تترتب على هـذه المخاطرة ، ونظن أن ذلك عائد الى قوة حيـويتهم ، الى تدفق الحياة فيهم وفيضها ، وكثيرا ما تسمع هـذا السؤال منهم : « ماذا يحدث لو فعلنا كيت وكيت ؟ « What will happen ? » وعندما يسألون هكذا ، لا ينتظرون الجواب النظرى ، الجواب بالاستنتاج وبالكلام ، وانما يقصدون ماذا ينتج فى الحقيقة وفى الواقع ، لا ينتظرون من المخاطب جوابا وانما ينتظرونه من الحوادث نفسها ومن الاختبار نفسه •

وبمعنى آخر ، لا يهتمون للثقة والركون الى الحياة والى الكون ، ليس غرضهم أن يتثبتوا من نوايا الـكون الحسـنة تجاه الانسان ، لغرض أن يستريحوا من الشـقاء والعنـاء والاجهاد فى الحياة ، وانما يريدون أن يستقصوا الاختبار الى آخر حدود الاستقصاء ، ويستمتعوا به الى أقصى حـدود الاستمتاع ، وبعبارة أخرى يشـعرون أن الحيـاة قصـيرة ولا يحسن بالفرد أن يقضيها فى غرفة من الزجاج مبـالغة فى التحفظ عليها ، وحمايتها من التلف ، وانما الحياة للحياة ، ومن لم يستمتع بها فكأنه لم يعش ، اذا لم يلتذ لها بالاختبار والممارسة فقد فاته معنى الحياة • واذا كان فى هذا بالطبع مجازفة أو مخاطرة فليكن فيها هذا ، لأنه هو الآخر من عناصر الحياة وفى معناها ، ولا تتم بدونه ، ومن كلامهـم المأثـور الشائع : « الحياة نفسها مجازفة ومخاطرة Life is venture » .

نظن أن النجاح المادى فى كل بقعـة من بقـاع الأرض مطلوب مرغوب فيه ، فليس في الدنيا انسان يستطيع أن يزعم

أن هذا النجاح فى ذاته شر يجب التخلص منه جهد المستطاع، اللهم الا بعض أفراد معدودين معلوم أمرهم ، كالصوفيين فى الدين وفى الفلسفة ، ولكن باقى الناس على اختلاف أجناسهم يتحرقون شوقا الى هذا النجاح المادى ، ولا نقصد بهذا مجرد جمع المال فقط ، ولكننا نقصد أيضا الوصول الى النتائج التى يسعى اليها الانسان فى هذه الحياة التى يحياها على الأرض الآن ، هذا النجاح فى ذاته لا يمكن أن يعتبر شرا أو رذيلة ، وليس معنى هذا بالطبع الزعم بأن كل نجاح مادى بغض النظر عن وسائله وبغض النظر عن شخصية الناجح واستعماله لهذا النجاح ، هو خير ، لا نزعم هذا بالطبع ، انما نزعم انه اذا استوت الأمور فان النجاح المادى خير ، والناس ينظرون اليه على أنه كذلك ٠

والنجاح المادى هذا ، هو فى رأينا نوع من المقدرة على التصرف فى البيئة الطبيعية ، هو تسخير هذه البيئة لما يروم الانسان من الأغراض والغايات ، هو الوصول الى نتائج ملموسة ، ترى وتشاهد ، ويكون لها أثر فى تغيير البيئة وتهيئتها لحياة الانسان، أو بعبارة أخرى فالنجاح المادى انما هو النتائج العملية الواقعية من جهود الانسان للحياة والعيش، ولأنه شىء مرغوب فيه كل الرغبة ، محبوب أقصى الحب ، فان الناس تنقسم فى شأنه الى قسمين ، قسم يناله فيقنع به ، ويفاخر بالوصول اليه ، ويباهى الناس ، ويربت لنفسه على ظهره ، ويشعر أنه أدى الرسالة ، وقام بما لا يستطيع غيره أن يقوم به ، فهو مستريح مسرور لهذا النجاح وقسم آخر يعجز دونه ، ولكنه فى نفس الوقت يتحرق شوقا اليه ويضنيه الهيام به ، فتتولد فى نفسه ثورة داخلية غير مقصودة

(Unconscious) ، فيكره النجـاح فى الظاهر ويحمل عليـه حملة شعواء ، ويعده شرا ورذيلة الى آخر هذه الصفات القبيحة المكروهة عند الناس ، ونظن نحن أن التحامل عـلى النجـاح المادى ووصفه بالمادية طورا ، وبالشر طورا آخر انما منشؤه هو فى هذا العجز عند بعض الناس ، وأما نحن فلا نقبل أن هذا النجاح شر لمجرد أنه نجاح مادى ٠

بالطبع هنالك فئة من الناس لا تهتم لهذا النجاح ليس عن عجز أو قصـور ، ولكنهـم معنيون بالنـواحى الاجتماعيـة والفكرية من حياة الناس ، ولا نظن أن مثل هؤلاء يتحاملون على النجاح المادى ٠

هذه هى النظرية الأمريكية للنجاح المادى ، فهـو غاية لأنه نوع من تطبيق النظريات والآراء على البيئة التى يعيش فيها الانسان ، وهو مقياس هذه الآراء والنظريات بالطبع ، لأنه لا يمكن أن يكـون لها مقياس غـير هـذا من الوجهـة الانسانية ، ذلك لأن الانسـان معنى قبـل كل شيء بحيـاته الراهنة هذه ، يذود عنها الأضرار أولا ويجلب لهـا المنافع ثانيا ، ويقصدون من المنفعة أوسع معانيها ، المنفعة الذهنية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية ، أما الشيء الذى لا ينفع الناس ولا يكون له أثر فى حياتهم ، فوجوده وعدمه سيان ٠

هذه بعض عناصر الحياة الأمريكية ، بالطبع نحن لا نزعم بحال أننا أتينا على آخرها ، وانما نزعم أن هذه هى العناصر البارزة التى تلمس فى حياتهم لأول وهلة ، والتى تستلفت نظر الزائر لبلادهم ، وهـذه هى العنـاصر التى دخلت فى تكوين فلسفة البراجماتية بالطبع ، فهي فلسفة مغرمة :

١ ـ بالتطبيق ٠

٢ ـ وبالمجازفة في ميدان الأفكار والآراء ، كما يغرم الأمريكيون بالمجازفة في ميادين الاختبار والحياة ، ثم هي مغرمة :

٣ ـ بالنجاح وبالمنفعة أو مغرمة بدرس نتائج التطبيق، ويجب أن ننبه ولا نمل التنبيه من أن المنفعة في البراجماتية، ليست بالمعنى المبتذل الرخيص الشائع على ألسنة الناس ٠

بعد أن تكلمنا قليــلا عن بيئة البراجماتيــة نعــود الى تقدير خدماتها لنواحي التفكير الفلسفي ، ونقتصر من هذه النواحي على ما لا ينازع فيه الفلاســفة أو النظم الفلسفية الأخــرى ، أو بعبــارة أخرى ســنورد مزاياها التي أجمعت النظم الفلسفية الأخرى في هذا العصر على أنها لها ، وعــلى أنها خدمت بها التفكير الفلسفي في هذا الزمان ٠

ومن هذه الخدمات بالطبع أنها أنزلت الأبحاث الفلسفية الى مستوى تفكير الرجل العادي ، وأصرت على أن لهذا الرجل الحق في المساهمة في هذا التفكير أولا والاستفادة منه ثانياً، لقد كانت الفلسفة الى ما قبل البراجماتية وقفا على طائفــة من الناس ممتازة ، تستعمل مصطلحات لا يفهمها أحد سواها، وتصر على استعمال هذه المصطلحات الى أن اتسعت الهوة بين تفكيرها وتفكير بقية الناس ، فصار الفلاسفة في واد والناس أجمعون في واد آخــر ، وأصبحت كلمــة فيلسوف مرادفة

كلمة رجل شاذ غير مفهوم، غريب فى التفكير لا يمكن الاتصال به عن طريق الفكر أو بعبارة أخرى رجل مجنـون ، وكان الفلاسفة يتجاهلون وجود الناس ، ويعدونهم فى مستوى أقل من مستوى الانسانية ، فكأن جمهورية أفلاطون فشلت فى الواقع والاختبار ، ولكنها نجحت فى النظم الفكرية ، وتقسيمه للناس بقى فى عقول بعض الناس ·

ثم أتت فلسفة البراجماتية وقضت على هـذا الخلاف ووضعت قنطرة متينة بين الفلاسفة وباقى النـاس ، فأصبح التزاور سهلا ميسورا ، أو بتشبيه آخر قد وصلت بين العقل العادى وعقل الفيلسوف ، فأصبح من المستطاع التفاهم بينهما ، وليس من ينكر بالطبع أن هـذه خدمة فى غاية الخطورة والأهمية ، ذلك لأن زبدة التفكير الانسانى كان يدور فى فراغ ، فأصبح الآن يتصل بالناس ·

ونتج من هذا أيضا اتصال وثيق بين العمل والفكر ، فقد كان من طبيعة الانفصال بين الفلاسفة والناس أن يتطلق الفكر من العمل وأن يبتعد العمل عن الفكر ، كان الفلاسفة فى عالم آخر غير هذا ، مهمومين بالتفكير ، والنظم العقلية ، والنظريات والآراء الميتافيزيقية أو غـير الطبيعية ، ومن طبيعة الفلاسفة أنهم لا يعملون ، لا يتدخلون فى الصناعات والحرف والأعمال بجميع نواحيها ، وانما يقصرون كل جهودهم وحياتهم على النشاط الفكرى والعقلى المجرد ، وكان الناس بطبيعة الحال مهمومين بالعيش وبالحياة وبالبيئة والاختبار ، كانوا مهمومين بما ينتجون فى البيئة من آثار مادية تعينهم على الحياة وتيسر سبل العيش لهم ، وبالطبع

نشأ عن هذه الحالة تباعد تام مستحكم بين الفكر والعمل ، العقل والنشاط ، النظريات والحياة ، المدركات العقلية ، والمدركات الحسية ، العقل والجسم ، المادة والروح ، أو نشأ عن هذه الفلسفة الثنائية (Dualism) التى قسمت الكون الى كونين ، الحقيقة الى حقيقتين ، المادة ، والروح ، الجسم والعقل ، الى آخر هذه التقسيمات ، ومن هنا انقسم الفلاسفة أيضا فتارة ينكرون الروح والعقل ، وتارة يؤمنون بهذه وينكرون الحس والحياة الراهنة ، والاختبار والأشياء المحسوسة التى لا نملك الا أن نتعامل معها فى كل لحظة من لحظات الحياة .

أما فلسفة البراجماتية ، فقد ردت الفكر والعقل والفلسفة والمادة والجسم جميعا الى الاختبار والتجربة ، وصلت ما بين العمل والفكر ، ما بين الجسم والروح ، العقل والحس ، وبالتالى نقلت الانسان العادى الى مجمع الفلاسفة ليرى بنفسه نوع تفكيرهم ويقدره قدره ، ويدركه ويفهم الدافع اليه ، ثم نقلت الفيلسوف الى ميدان الناس ، ميادين الجهاد مع البيئة والتعامل معها وفيها من أجل الحياة الانسانية .

وهنالك خدمة أخرى جليلة أدتها فلسفة البراجماتية للتفكير الفلسفى ، وهى أنها بينت أثر هذا التفكير فى النظم الاجتماعية للانسان ، لا بل أظهرت بوضوح أن الفلسفة يجب أن تؤدى الخدمات لحياة الانسان الاجتماعية ، من سياسة الى اقتصاد الى تربية وتعليم ، يجب أن تنزل من ميدانها النظرى المجرد المبنى على الكلام وتركيبه والمبتدأ والخبر ،

أو كما يسميه ديوى النظام النحوى للوجود (The gramatical order of the Universe) الى نظام يعيش فيه الناس وينشطون جماعات •

والخدمة فى هذا المجال ظاهرة واضحة ، فقد قلبت البراجماتية نظم التعليم رأسا على عقب فى جميع أنحاء العالم ، فوضحت الغاية المعقولة من التعليم ، ورسمت له ميادين العمل والنشاط ، فأصبحت المدرسة الحديثة علما على نوع معين من التعليم عممته فلسفة البراجماتية ونشره فلاسفتها ، أمثال ويليام جيمس وديوى ومدارس التربية فى أمريكا •

ونظن أن هذه الخدمة للتعليم قائمة فى الأصل على محاربة البراجماتية لنظرية المعرفة لمجرد المعرفة والعلم ، فهى لا ترى فى الانسان الا حياة الانسان على أتمها وبأوسع معانيها ، فكل نظام نظرى للتعليم لا يؤثر فى هذه الحياة الراهنة ويخدمها بكل الطرائق المستطاعة ، نظام فى رأيها عقيم ، ومجهود يقوم به الأطفال المتعلمون فى غير طائل •

هذا التوكيد للنتائج العملية للنظم الفكرية خطوة جريئة فى حياة الانسان الفكرية ، ونرى أن لها آثارا قيمة فى ميادين النشاط الاجتماعى كما بينا •

وبعد ، فاننا نرى أن البراجماتية فلسفة تستقيم للناس العاديين أمثالنا ، هذا النوع من الناس الذى يشعر أن الحياة بين يديه ، ويجب أن يقضيها على أحسن حال مستطاعة ، ونرى أيضا أنها تستقيم منطقيا اذا ما تسنى للانسان أن

يحذر الفهم المغلوط لبعض قضايا النظرية ، اذا ما استطاع أن يصل الى المعنى المقصود دون أن يزيد عليه ما يعكسه او يخرجه عن معناه الذى وضع له ٠

وبخاصة ، يجب على المفكر أن يدقق ويمعن فى ما تقوله فلسفة ألبراجماتية فى قضية الحق ، ففى هذا المجال متسع للانسان يخطىء فيه التقدير ويسىء الفهم اذا لم يتجرد عن الغرض والهوى ، واذا لم يتجرد عن التحيز لآراء ومعتقدات ورثها الانسان فيما ورث ؛ فأصبحت فى دمه وعنصرا من عناصر تكوينه يصعب عليه التخلص منه على أهون سبيل ٠

الأناة والعدل لازمان أشد اللزوم فى تفهم نظرية البراجماتية فى قضية الحق ٠ وأما اذا تسرع الانسان فى بحث هذه القضية ، فقد لا يسلم من الخطأ والتظنن فى نيات هذه الفلسفة الفتية ٠

ترجمة بعض المصطلحات

Facts	حقائق ـ أى حقائق الاختبار
Facts of Experience	حقائق ـ أى حقائق الاختبار
Realities	حقائق ـ أى حقائق الوجود
Reality	الحقيقـة
Objective Realities	الحقائق فى ذاتها
Truth	حـق
Truths	حقائق ـ أى جمع حقيقة (حق)
Scientific facts	حقـائق علمية
Ultimate Reality	الحقيقة الكبرى
Causality	المسألة السببية
Phenomena	الظواهر والمظاهر
The Universe is orderly and uniform	الكون منتظم
Ontology or Being	قضية الوجود
Axiology	قضية الخير والجمال
Epistimology or Theory of Knowledge	قضية المعرفة
Objective Existence	وجود خارجى أو العالم الواقعى

من صنع العقل الانسانى ، أو من وهم الانسان	Subjective
الالهـــام	Intuition
الدنيا الموضوعية	Objective World
مدركات حسية	Sense perceptions or sense objects
النظام الموضوعى للكون	Objective order of the Universe
حقائق الأشياء فى ذاتها	Objective existence of Realities
نتائج ضرورية أو وجود ضرورى	Logically Necessary
يقين	Certainty
نظرية شاملة	General Attitude

المصـــادر

SOURCES

1. Outline of Modern Knowledge — a Symposium .
2. Students' History of Philosophy, A. K. Rogers.
3. Humanism, a Symposium.
4. A Preface to Morals by Walter Lippman.
5. Types of Philosophy by William Ernest Hocking.
6. Experience and Nature by John Dewey.
7. An Outline of Philosophy by Bertrand Russell.
8. Science in the Changing World — a Symposium.
9. An Outline of The Universe by J. G. Growther.
10. Democracy and Education by John Dewey.
11. Theism and The Modern Mood — Symposium — Editor Walter Marshal Horton.
12. Man and His Universe by John Langdon — Davies.
13. Science Today — A Symposium.
14. Ethics and Some Modern World Problems by. W. Mc-Dougall.
15. The Reasonableness of Christianity by Mackintosh.
16. The Legecy of Greece — a Symposium.
17. Reality by B. H. Streeter
18. Science in Search of God by Kirtley F. Mather.
19. Introduction to Philosophy by G.T.W. Patrick.
20. The Way out of Educational confusion by John Dewey.
21. The Outline of man's Knowledge by Clement Wood.

22. The Varieties of Religious Experience by W. James.
23. The Ways of Knowing or The Methods of Philosophy by Wm. Pepperell Montague.
24. A Pluralistic Universe by William James.
25. Pragmatism by William James.
26. The Meaning of Thruth by William James.
27. The Problems of Philosophy by Bertrand Russell.
28. Reconstruction in Philosophy by John Dewey.
29. The Will to Believe and Other Essays in Popular Philosophy by William James
30. Some Problems of Philosophy by William Jemes.
31. The Quest or Certainty — A Study of the Relation of Knowledge and Action by John Dewey.
32. قصة الفلسفة اليونانية للأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل
احلام الاعلام وقصص اخرى

ى· رادو نكايارم جابوتنسكى
الالكترونيات والحياة الحديثة

آلدس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت· و· فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر· ج· فوربس و ا· ج· ديكستر هوز
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستردبل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د· قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها
تصنيفها ــ عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د· محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية والفرنسية

د· عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
اصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للاهرام

د· صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل واحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبورج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض · ماركس والماركسيون

ف· ع· ادينكوف
فن الادب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
ادب الاطفال « فلسفته ، فنونه وسائطه »

د· نعمة رحيم العزاوى
احمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د· فاضل احمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د· السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د· روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الاخلاق للاطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

ا· سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

د· لينوار تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
دور الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى

رمسيس عوض
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الاوربى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى

د· محى الدين احمد حسين
التنشئة الأسرية والابناء الصغار

ج· دادلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الادب القصصى

د· جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
مختارات من الادب اليابانى
الشعر ــ الدراما ــ الحكاية ــ القصة القصيرة

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

رونالد . . سميسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د . انور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

ولت ويتمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية في عهد محمد علي

الان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

ف. هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون
٢ جـ

روى روبرتسون
الهيروين والايدز وأثرهما في المجتمع

دوركاس ماكلينتوك
صور افريقية • نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د. محمود سري طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لوري
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدروفيتش سيرجيف
وظائف الاعضاء في الألف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني

جون . ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ جـ

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ كنج واخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د . السيد طه السيد ابو سديره
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ جـ

اريك موريس والان هـ
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسي ــ تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ،
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافي
روائع الآداب العالمية جـ ١

روى آرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاي متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الأوركسترالي

ابو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ جـ

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ جـ

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور شين ين .نج وآخرون
مختارات من الآداب الاسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس أوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني
٧ جـ

جان لويس بوري وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في أوروبا
بول كولز

وريس بير برابر
صناع الخلود

زيجمونت هبنر
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكولز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمريكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن أوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ج

هونى براح واخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ ج

جابر محمد الجزار
ماسترخت

- ابرار كريم الله
من هم التتار

ج س فريزر
الكاتب الحديث وعالمه
٢ ج

موريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مارجريت رود
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

د. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية
٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

أرنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادى أونيمود
افريقيا — الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتزمان
كوننا المتمدد

سونداري
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ريليام هـ. ماثيور
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى
٢ ج

بانك لافرين
رومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
أنواع الفيلم الأميركى

مارى ب. ناش
الحمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف نيدهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم أفضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتي

ممدوح عطية
البرنامج النووي الاسرائيلي والأمن القومي العربي

د. ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزي

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بيلز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء في خدمة الانسان

ت. ج. جيمز
الحياة ايام الفراعنة

جورج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
ديناميه الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
في المعرفة التاريخية

كنت ا. كتشن
رمسيس الثاني

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمي

روزالند، وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولز
ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبي دى لونا
موسوليني

الويز جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف البمبي
مختارات من النثر الإسباني

روبرت سكولز وآخرون
آفاق ادب الخيال العلمي

ب. س ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س. هوارد
اشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك في آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ أوربا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال في المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ترنج
ضمير المهندس

ا. ر. جرني
الحيثيون

ستينو موسكاتي
الحضارات السامية

د. البرت حوراني
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربي المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٠٤١ / ١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 5932 — 8

هذا الكتاب يبحث فى إحدى أشهر نظريات الفلسفة الحديثة، وهى البراجماتية، وهى نظرية أمريكية تتناول قضايا الفلسفة بطريقة لم تسبقها إليها فلسفة أخرى.

وتستمد البراجماتية أهميتها من كونها نظرية علمية شديدة الالتصاق بالحياة، لأنها معنية - قبل كل شىء - بصواب الأحكام التى نجريها على الأشياء من حولنا.

ولئن كانت الفلسفة عموماً مشهورة بصعوبتها على الفهم، فإن هذا الكتاب محاولة موفقة لتذليل صعوبتها؛ لكى تصبح فى متناول فهم القارئ.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٥٠ قرشاً